



أحمد مراد

# أرض الإله

دارالشروق



أرض إله

أحمد مراد

تصميم الغلاف : أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٧ شارع سينبوبه المصري

مدينة نصر. القاهرة. مصر

تلفون: ٢٤٣٣٩٩٩

[www.shorouk.com](http://www.shorouk.com)

رقم الإيداع ٧٤٣٣٩٩٩

ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٩٣٣٨٢-٤



«ستُصبحين أرملة،

وكل صوت مقدس سيُجبر على الصمت،

وتصاب معرفة الروح الحالية بالإنكار والسخرية».

من تنبؤات المُعظّم ثلاثة مرات

«إدريس»

عن أرض «إيجيبت»



مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة.

اقتربت السكريتيرة من الغرفة بخطوات صارمة، تحمل بين يديها ملفاً ضخماً مغلقاً بشرط أحمر، عند الباب وقفت.

هندست قمیصها ثم قرعت:

سید بانکروفت، السيد کارت جالس فی مکتبی، حضر دون اخطار مسبق.

نظر الرجل لساعة الحائط التي أشارت إلى التاسعة صباحاً. حكَّ إيمانه بسبابيته في تبرُّم ثم أشار إليها أن تقترب.

وضعت الملف أمامه، أزالت الشريط الأحمر وأخرجت ورقتين:

ذلك هو آخر خطابية ببردية مع رئيس فصلحة الآثار المصرية. وهذا رد مكتب رئيس الوزراء على الالتماس الذي قدمناه.

هزالسيد بانکروفت راسہ

أدخلوا كارتر بعد خمس دقائق، وحين أضغط الحرس تعالى، لتخبريني على قسمع منه أن هناك احتمالاً هاماً

منتظریه

هذه السكريبة أسلها وخدت، مرت عيناه على سطوة المخاطبات البريدية حتى، قرع الباب كارت، دخل، ياتسamtة

العربية والبابيون المنقطة، خلع قبعته و مد يده سلام

سید بانکروفت.

سید کارت، مرحبا، تفضل

فتح عليه سigar فخم وقربها من كارت فاعذر، أشعـل لنفسه واحدة ونفث دخانها ثم قال بابتسامة:

شمس اليوم رائعة، تمثّلت في أشعّتها ساعيًّا حتّى انتعشت مفاصلي وصفاً ذهنيًّا؛ فلديّ اجتماع هام مع المندوب



السامي بعد قليل.

أعتذر عن الحضور بلا ميعاد، ولا أرغب في تضييع وقتك، لكن الوضع أصبح مهينًا وغير محتمل.

سيد كارتر، لقد خاطبنا مصلحة الآثار ومكتب رئيس الوزراء السيد سعد زغلول، وكان الرد قاطعًا: رفض تجديد تصريح التنقيب الخاص بالمقبرة.

تحفظ كارتر على طرف كرسيه:

سيد هنري، سأمحني حين أقول إن حكومتنا لا تدرك حجم المشكلة؟ تلك الفضيحة ستتدوّي في الجرائد أكثر من اسم «توت عنخ آمون»، هوارد كارتر، مكتشف أهم مقبرة في القرن العشرين، ممنوع من التنقيب في مقبرته بأمر من السلطات المصرية.

مقبرتك! لم لا تكمل الجملة يا سيد كارتر؟

نظر بانكروفت في خطاب مصلحة الآثار وقرأ:

لما لاقته المصلحة من مخالفات وتلاعب في السجلات، مثل عدم تدوين رأس الملك الخشبية الخارجة من زهرة اللوتس الزرقاء والتي عثر عليها في صندوق نبيذ أحمر ماركة «فورتنم وماسون» بمقبرة رمسيس الحادي عشر، أتحب أن أكمل قراءة التقرير؟

أنت تصدق المصريين؟ تصدق الهمج! لقد وجدها في ردّيم فم المقبرة. كيف أهتم بتدوين قطع صغيرة تافهة وسط هذا الكم من الصخب الصخفي وزيارات رجال السلطة؟

عليك أن تقنع السلطات المصرية بذلك، بالإضافة إلى أن مكتشف المخالفة هو السيد «بيير لاكو» وليس أحد الموظفين المصريين، وقد أسرّ لي بأن رأس الملك الخشبية ليست القطعة الوحيدة التي لم تدون في السجلات..

البيروقراطية أهم من كشف «توت عنخ آمون»؟



عذر لا يبرر موقفك.

ما لي أشتمن رائحة تخاذل؟ أين مكتب المندوب السامي؟ كانت لنا اليد العليا يوماً في مثل تلك الأمور.

من فضلك أخفض صوتك، انفعالك ليس له مردود في ذلك المبني، أنت تعلم جيداً أن الوضع ملتهب بيننا وبين السلطات المصرية منذ انتهاء الحماية على مصر...

قاطعه كارتر:

الحماية؟ هراء، تلك لعبة سياسية أنت أول من يعلم بها.

في وجود «سعد زغلول» على كرسي الوزارة، لا مجال للتفاهم، رأس من الصخر، متحفظ ضد كل ما هو بريطاني، يجب أن نلتزم بالتلهدئة حتى إشعار آخر، وأؤكد لك مرة ثانية على صعوبة التدخل الحالي لحساسية القضية.

أنتم لا تدركون ما تفعلون؟ چورج الخامس بات يرسل إلى مصر هواة السياسيين.

راقب ألفاظك، إن أهمية «مقبرتك» كما تسميه ليس في أهمية السياسة الخارجية للمملكة.

قام كارتر في غضب:

حسنًا، بلغ رؤسائك أنني إن لم أتلق ترضية كافية وعادلة، فسأنشر على العالم كافة تفاصيل تصوّص البرديات التي عثرت عليها بغرفة دفن الملك...

أي برديات؟



♀

♀

♀



س茅ود: معبد الأسوار السبعة، ٢٥٠ عاماً قبل ميلاد المسيح

السنة الخامسة والثلاثين لحكم فيلادلفيوس «بطلميوس الثاني».

رغم الصيف القائظ تراكمت السماء بالغيوم الداكنة، ثم انهالت الأمطار، غزيرة صاحبة مصحوبة بهزيم زعد يصم الآذان، حتى امتلأت تجاويف الأرض ببرك صغيرة ولمعت أحجار المعبد العتيق في بهاء ورهاة.

الطقس المباغت لم يمنع الكهنة الحفاة حالي الرؤوس والأجساد من التراكم في بهو الأعمدة، تبللت أرديتهم الكثانية حتى لاحت الجلود تحتها وارتعشت الأطراف في وجل، تتردد أعينهم بين السحاب المركوم وبين الباب التحتاسي الكبير لقدس الأقداس، الباب الذي لم يكن ليترك مواربا، فهو إما مغلق لأن المكان خال، أو مغلق لأن كاهن المعبد بالداخل، يتولى بنفسه حفظ المتون المقدسة في الرفوف، حرق البخور، ودهان التمثال الكبير بزيوت اللوتيس واللبان والمisk، ذلك التمثال الذي نحته الملائكة تكريماً للمعظم ثلاث مرات «إدريس». رجل حاز الملك والحكمة والنبوة، علم الجيوبتين الزراعة والغزل، الصلاة على الموتى، وجعل من رؤية الهلال وفيضان النهر عيداً، كما علمهم قراءة النجوم والأبراج، والكتابة بالقلم، في لغة لم ير لها مثيل بين البشر من قبله.

انقضت دقائق والقلق ينهش الكهنة المتزاحمين، مستقر في صدورهم أن أمراً جللاً سيحدث، حتى كسر الجمود «كاي»: فتى من قرية مجاورة وهبته عمه للمعبد بعد وفاة أبيه، تربى بين جنباته ككاهن «مظهر»، يعني بشئون النظافة والسباحة، ثم تعلم الكتابة حتى بلغ مرتبة كاهن «مجنح»، وضعت على رأسه ريشتا التحليق في العلم الإلهي واطلع على أسرار الحروف بعد صوم عن الكلام ترك في عينيه ثبات العارفين، تقدم كاي فالتفت الأعين وتعالت الهممات قبل أن يرتفع صوت:

لست مخولاً بالدخول دون إذن، ستجلب علينا لعنة، لننتظر عودة نائب الكاهن.

رفع كاي سبابة السماء:

مطر غزير في صيف عقيم، باب قدس الأقدس موارب، والكافن الأعظم لم يخرج لصلاة منذ الفجرا.



ارتفاع صوت ثان:

. لعله يتأمل.

تبعه صوت آخر:

. أو صعد إلى السماء ليقابل رب الأرباب.

. أو لعل مكروهاً أصابه.

قالها كاي فساد صمت، ثم أردف:

. سأتحمل العاقبة وحدي.

تقدّم تجاه الهيكل ورفع المقبض الكبير ثم هوى على صدر الباب بطرقتين، زن النحاس في وقار ولم يلتقط الكاهن إجابة، دنس رأسه بين ذرقي الباب في حذر، لم يتبيّن من الظلمة شيئاً، فالهيكل نافذته في السقف والشمس إلى الغروب تنحدر، التفت لرفاقه فأجابوه بقصمات ملؤها الوجوم والخشية، ثم نظر للسماء يستسمحها الدخول فتمتما بسifer الغفران، شب الكهنة على أطراف أصابعهم يتطلعون لمن ستبلل قدميه أرض الهيكل حتى احتفى عن الأنظار، راسخ في صدورهم أن أصحابهم من اللحظة هالك ملعون، فمن ذا الذي يدّنو من قدس الأقدس دون إذن الكاهن! الدائق مرت كستة جدياء قبل أن يلتقطوا صوت آنية تصطك على الأرضية المرمرية، في الداخل كان كاي يتعثّر في كلوس وأباريق مبعثرة، السراج الكبير مطفأ والشمعون هامدة، وهواء الهيكل محمّل ببخور كثيف أثار حلقه وعينيه، نادي في الفراغ:

. سيدى الكاهن الأعظم، أنا كاي، خادمك، اغفر لي دخولي دون إذن، سيدى!

لم يتلق إجابة فرفع يديه يتلمس طريقه حتى تعرّف على المركب المقدس، ابتعد خطوات فاصطدم بالناووس الحجري فقرر الثبات متىًّا لعينيه الفرصة أن تعتمد الظلمة، ببقايا ضوء الغروب النافذ من الفتحة العلوية ميّز تمثال «إدريس» فخر على ركبتيه احتراماً قبل أن يلمح كتلة جائمة على الأرض بين القدمين الحجريتين، اقترب فميّز ملابس الكاهن



الأعظم، نَفَضَ ذهوله وأسرع ناحيته، الكاهن كان مُكيناً على وجْهه ومن تحته بِرَكَة دماء لزجة خضبت قرو الفهد فوق كتفيه وتسلىت بين شقوق الأرضية. التقط كاي اليـد فاستشعر برودة، تلاحت أنفاسه وهو يَدِيرُ الجـسد الهرم ناحيته، أخدود غائر شق الرقبة وأبرز لحمها، وسيـكـين استقر على بـعـد ذراعين من الأطراف الباردة.

تغلب كاي على رعشة المـوت به فأراح جثمان الكاهن بلسان لا يكـف عن تـرـديـد مـتـونـ الرـحـمةـ، ثـمـ قـامـ والـنـقـطـ السـكـينـ، تـأـمـلـ نـصـلـهـ المـشـحـوـذـ بـحـرـفـةـ ثـمـ لـمـ لـمـ الخـزانـةـ الـأـرـضـيـةـ؛ فـرـاغـاـ مـرـبـعاـ عـمـقـهـ ذـرـاعـانـ، تـغـطـيـهـ بـلـاطـةـ مـحـفـورـةـ بـزـهـرـةـ لـوـتـسـ غـائـرـةـ، لـهـ قـفلـ سـحـريـ لمـ يـسـأـلـ يـوـمـاـ عـنـ طـرـيقـةـ فـتـحـهـ، الغـطـاءـ كـانـ مـرـاحـاـ عـنـ مـكـانـهـ وـالـبـرـديـاتـ مـبـعـثـرـةـ! ثـمـ مـيـزـ قـرـبـ كـفـ الكـاهـنـ أـحـرـقـاـ مـكـتـوبـةـ بـالـدـمـ، مـدـ يـدـهـ لـمـرـأـةـ الـرـوـحـ فـسـتـغـفـرـاـ فـعـكـسـ عـلـىـ سـطـحـهـ ماـ تـبـقـىـ مـنـ ضـوءـ السـقـفـ، قـرـأـ بـصـعـوبـةـ ثـلـاثـ عـلـامـاتـ إـغـرـيقـيـةـ «ـ٣ـ٨ـ٤ـ»، رـعـشـةـ الـخـطـ قـالـتـ إنـ الـكـاهـنـ الـأـعـظـمـ كـتـبـ رسـالـتـهـ بـالـرـمـقـ الـأـخـيـرـ، رسـالـةـ أـغـلـلـهـ قـاتـلـهـ!

انكفاـ كـايـ عـلـىـ الـأـرـضـ يـلـتـمـسـ أـثـرـ خطـوـاتـ الـغـدـرـ فـتـدـاعـتـ الـأـفـكـارـ فـيـ رـأـسـهـ كـالـدـبـابـيرـ الـجـانـعـةـ، الـهـيـكلـ لـهـ بـابـ وـأـحـدـ لـمـ يـخـرـجـ مـنـ الـكـاهـنـ مـنـذـ الـفـجـرـ، مـنـ ذـبـحـهـ اـسـتـفـرـدـ بـهـ سـاعـةـ التـأـمـلـ حـيـثـ يـحلـوـ لـهـ التـعـبـدـ وـالـكـلـ نـيـامـ، ذـبـحـهـ وـلـمـ يـنـتـظـرـ النـفـسـ أـنـ تـغـادـرـ، سـرـقـ الخـزانـةـ الـأـرـضـيـةـ وـفـرـ فيـ عـجـالـةـ تـارـكـاـ الـبـابـ فـوـارـيـاـ!

«ـأـيـكـونـ أـحـدـ أـبـنـاءـ الـمـعـبدـ؟ـ»

وـقـعـ الـفـيـكـرـةـ كـانـ مـرـعـبـاـ، أـجـبـرـ كـايـ أـنـ يـنـظـرـ لـلـعـلـامـاتـ نـظـرـةـ أـخـيـرـةـ، ثـمـ يـطـمـسـهـ بـكـفـيـهـ «ـإـذـاـ أـرـادـ الـكـاهـنـ إـيـصالـ رسـالـةـ؛ فـمـنـ الـأـفـضلـ أـلـاـ تـصـلـ لـقـاتـلـ بـيـنـ جـنـبـاتـ الـمـعـبدـ»، قـالـهـاـ فـيـ نـفـسـهـ ثـمـ تـوـلـىـ مـدـبـراـ حـتـىـ وـصـلـ إـلـىـ الـبـابـ الـنـحـاسـيـ، خـرـجـ بـوـجـهـ بـاهـتـ وـكـفـ مـخـضـبـةـ، رـقـعـهـ مـرـعـشـةـ فـيـ وـجـوهـ الـمـتـرـقـبـينـ مـقاـوـمـاـ حـشـرـجـةـ الـجـمـتـ حـلـقـهـ:

لـقـدـ قـتـلـ الـكـاهـنـ الـأـعـظـمـ.





ظهر اليوم التالي.

جزيرة فاروس، الإسكندرية.

على ارتفاع مائتين وستين ذراعاً انتصب إله البحر فوق القمة، رافعاً يمناه بحرية ثلاثة النصل، رامقاً البحر بعينين راجرتين من العقيق في رأس ذهبية بثت الرُّعب في نفوس من أقاموه. أسفل منه يقع بيت المرأة، قبة تحملها ثمانية أعمدة تحتضن مرأة برونزية هائلة تعكس الشمس بصفرة ذهبية يميزها ملاحو السفن من مسافة ثلاثين ميلاً، ويتحاشون بؤرتها الحامية فند روح البحارة العجائز الحكایات عن اضطرام النار في سفنهم حين تسلط عليها المرأة تحرّكها ثيران فحالة في طواف سرمدي بغرفة تحت الأرض، وحين تنحسِر الشمس يشتعل الموقد، فحمرة نار حامية تتوضّط بيت المرأة، تغذّيها البغال والحمير بالحطب صعوداً على منحدر حلزوني ينتهي إلى أتون ملتهب، يسكب العمّال فوق حطبه الزيوت فتتأجّج بوهج يخترق الحجب ويرشد السفن الجائحة إلى الميناء، أمّا أسفل المرأة وباتساع الفنار فيقع جناح الملك، طابق كامل زينت شرفته بحوريات بحر برونزيات ينفحن في أصداف ذهبية، يكشف الواقع فيها قبر الإسكندر العظيم بشارع «صوما» ومعبد «السيرا بيوم» والاستاد الأوليمبي بحري «راقوودة»، هي الجيبيتين.

استوى الملك في الشرفة على كرسي ناء بحمله السمين، فسُمِّتعَ بالسُّمعَةِ الشَّمْسِ في رداءٍ من الحرير لم يخفِ دهون الرّفّه، بجانبه رقدت «بليستيش» فوق مخدّة عريضة، بربيرة حسنة اشتهرت بلقب «أفروديث»، خلبت عقل الملك



حين شاهد رقصتها فاقتناها، نفت سحرها في أنفه فانطفأت أغلب العشيقات المتنافسات أمام سخونة وجنتيها التي تداعبها أنامله وهو يتبع سفينه غال ضخمة تترنح فوق الموج مقتربة من الميناء، من ورائه وقف في خشوع رئيس خاصته الملكية، مُرْدَخَاي، رجل ذكي عرف منذ زمن متى يتكلم ومتى يلتزم الصمت، ملك من الحنكة ما حافظ به على منصبه منذ عهد الملك الراحل «بطلميوس الأول» وحتى الآن، يلقبه عمال وموظفو الخاصة الملكية سراً بـ«القط» نظراً ليقظته وبراعته في إدارة مقاليد القصر، يُوْقَع العقاب المبالغ فيه على المخطئ؛ فيرهبا من انتوت نفسه التراخي أو الإهمال.

مررت دقائق من الصمت قبل أن يسحب الملك من فوق المنضدة إناء نبيذ محمومة فيه زهور اللوتيس الأزرق، قربها إلى أنفه فاستنشق العبير السحري المُخدّر ثم رشف رشفة وألقى برأسه إلى الوراء في انتشاء حين أفلقت سكينته ذبابة لحوم، وضع الإناء وأشار لمُرْدَخَاي، اقترب الأخير دون أن يقطع خط النظر للبحر في عيني مليكه.

أعرف يا مُرْدَخَاي، لقد بنيت تلك المِنارة في عشرين عاماً، ارتفعنا بها لعنان السماء حتى يراها السلوقيون من شرفات قنالهم، لكنني ما زلت لا أفهم كيف يصعد الذباب في طرفة عين إلى قمّتها!

لقد اتخذ أصحاب الأهرامات من الذباب نيشاناً للشجاعة على صدور جنودهم، فالذبابة إن طردت عن مكان فلا بد أن تعود إليه، كذلك القائد الناجح، إذا انسحب من مكان معركة فعليه أن يهبو نفسه للعودة إليه.

إذن علينا ترويض ذلك الكائن البغيض، أو جد لي طريقة لإبادته، لم يلقيك موظفو القصر بالضبط من فراغ.

ضحك مُرْدَخَاي مجاملًا:

لو كان صديقنا «هيروفيلوس الخلقدوني» على قيد الحياة لخيرتها بين التشريح في مختبره أو العدول عن إزعاج جلالكم.

رمقته بليستيش بعينين متهكمتين حين رفع الملك كأس نبيذه وسكن منه قطرات على الأرض:

إلى روح طبيبنا الراحل هيروفيلوس.



ثم استطرد:

. فإذا لديك يا مُرَدْخَاي؟

أشار الأخير لعبد بالباب، اقترب، يحمل بين يديه بردية ملفوفة بحزام جلدي، وضعها وانسحب، فـمُرَدْخَاي يده وسحب بردية، فضّها ونظر فيها فلما بمحتواها ثم ابتسם:

. سيدي، استكمال حفر القناة القديمة بين بحر البوص والنيل أوشك على الانتهاء، دَورتان للقمر وستسافر على متن مركبكم الملكي عبر النهر إلى أرض الفيروز

. احرص على أن يكون موكب الاحتفال مهيباً، أريد لأصدقائه أن تصل لأصدقائنا في الشمال والشرق.

. يتم تزيين الفنار بمشاعل ستظل مشتعلة حتى عودتكم الكريمة، أما الرسامون والنجّاتون فيضعون اللمسات الأخيرة على العربات الحربية وعِرْش جلالتك فوق الفيل.

داعب الملك ثدي بلسيثيس تحت الغاللة الشفافة مُرَدْقاً

. وأكثر من الأقزام في الموكب يا مُرَدْخَاي، فإن النساء يحبونهم ولا أعرف لذلك سبباً.

ضحك بلسيثيس وابتسم مُرَدْخَاي

. أمر جلالتك.

ثم مد يده وسحب بردية أخرى:

. إقليدس يتطلب مقابلة، أنهى كتابه في الرياضيات والهندسة، ويود أن يعرضه على جلالتك قبل تسليمه للمكتبة.

آندي به بعد الغروب، إقليدس يحتاج إلى قليلولة قبل لقائه وكأسني نبيذ، فلسانه متدفع كفيضان غاشم، غَزِير الكلام ينسى متى يتوقف، قل لي، كم بلغ عدد البرديات في رفوف المكتبة إلى الآن؟



. ستمائة وثمانين وخمسون ألفاً، وستزداد خمس إضمادات هذا الصباح، فقد أنهى حاخامات أورشليم عملهم على ترجمة الأسفار الخمسة للتوراة إلى اليونانية، وينتظرون مباركة جلالتك قبل أن يودعوها رفوف المكتبة.

. ترجمت كتبكم المقدسة في شهرين؟

. اثنين وسبعين يوماً يا سيدي بالتمام والكمال.

. وعدد الحاخامات كان...؟

عاجله فرداً،

. اثنين وسبعين حاخاماً، سبعة حاخامات من كل سبط من أسباط بني إسرائيل الثاني عشر.

. يا للصدقة!

. علامات الرب لا تنقطع منذ جئت بهم من «أورشليم»، بعد استئذان «إليعاذر» رئيس الكهنة، أبحروا ومعهم النسخ مخطوطة بحروف من ذهب على رقوق الجلد، عزلت كل اثنين منهم في غرفة منفصلة بالجزيرة، وحرضت على عدم اتصالهم عن طريق مراقبة لصيقة، حتى أضمن أمانة الترجمة واحتراراً من الاقتباس، وما لبثت المعجزات أن بدأت في الحدوث.

. معجزات!

. نعم يا سيدي، لقد امتنع الحاخامات فجأة عن الطعام بلا مرض أو أدى، وكثُرت الخمائيم على الجزيرة بشكل غير مسبوق، تحوم في دواائر لا تتوقف وتحدل في تناغم، وشفقت زوجة رئيس عمال الفنار من العقم، والآن هي حبلى...

قطعته بليسريش:

. عقم! أعرف زوجة رئيس عمال الفنار كما أعرف أصابعك، كانت من فتيات الدكتور يادس وكانت تجيد خدمة الرجال، أندثر أنها حملت مرة لكنها أجهضت نفسها بالقرفة وبذور السمسم.



ضحك الملك:

. يبدو أن أحد الحاخamas كان يتوجّل ليلاً.

كُزْ مُرَدَّخَاي على أسنانه ثم افتعل ابتسامة وأردف كأن لم يسمعها:

. اثنان وسبعون يوماً من البركات المتلاحقة توجّت بست وثلاثين ترجمة تطابقت بشكل عجيب، تطابق لا تصنعه سوى بيد إله، الحاخamas بلا استثناء قصوا رؤية واحدة أنتهم نياماً، زار الرب فيها أرواحهم ومدد من جداول شعره الذهبي حبال نور إلى صدورهم.

رفع الملك إلى أنفه إناء اللوتيس الأزرق، استنشق وارتشف فتسلى إلى فمه ابتسامة:

. اثنان وسبعون حاخاماً ترجموا توراتكم إلى اليونانية في اثنين وسبعين يوماً، سته حاخamas من كل سبط؟

. صحيح يا سيدي.

. بعض النظر عن الأساطير العشرة الذين فقدوا زمن غزو البابليين على أورشليم، ربكم أشرف بنفسه على ترجمات الحاخamas حتى أصبحت كلها متطابقة؟

. هزْ مُرَدَّخَاي رأسه في إيجاب:

. بل وألهمهم صيغة لعنة نطقوها للتطارد كل من يجرؤ على الحذف من النسخة المترجمة أو الإضافة إليها، إيماناً وبقينا باستخدام الرب أجسادهم وأقلامهم في ترجمة كلماته.

ضحك الملك:

. ليست تلك علامات الرب، بل علامات مُرَدَّخَاي.

ابتسِم مُرَدَّخَاي ثم أردف:



جلالتك، إن شيوخ اليهود في حي «دلتا» يموتون، ولم يَعُد باستطاعة أحفادهم من مواليد الإسكندرية قراءة توراتهم بالعبرية، لذا تكفلوا باستضافة حاخامات أورشليم، وتبיעوا بعشرين تالنت من الفضة من أجل المكتبة ومعبد سيرابيس، وسيصلون باسم جلالتك حين يقرءون توراتهم باليونانية التي فضلوها على لغتهم الأثيرية.

وماذا عن الكلمات المُسيئة في كتبكم؟ سمعت أن «لوجوس»: اسم جديّ الأكبر، يعني في لغتكم «أرب».

خطأ تم تداركه يا سيدتي وتبدل الكلمة إلى «ذو الأقدام الخشنة».

قام الملك من مكانه فقامت وراءه بلستيش تصب له كأس نبيذ، استند إلى السور ورشف رشفة ثم نظر إلى تمثال بوسيدون فوق قمة الفنار:

أي رب تصلون إليه يا مردحاء، يهوه؟ إلهي؟

كلها أسماء لإله واحد يا سيدتي.

هل من الممكن ضم بوسيدون إلى معبداتكم؟

بوسيدون إله البحر، والبحر مصدر الخير والتجارة.

أطلق الملك ضحكة عالية،

أنتم يا مُعشر اليهود مثلكم مثل الماء، تتکيفون مع كل إناء.

هذه سمة الغرباء المستضعفين في الأرض يا سيدتي، والشرف كل الشرف في معاونة من آوانا ورحمنا، والدكم العظيم ثم مليخي، حتى ولو لم يستوف أهل دلتا حقوقهم كاملة حتى الآن.

نظر إليه الملك فتعاجله مردحاء،

إن الضرائب تثقل كواهلهم، وقد تساووا مع أهل البلد غير المتعاونين، آن الأوان يا سيدتي لإعطاء اليهود مواطنة كاملة في مدينتهم التي يتغافلون في خدمتها.



. يا مَرْدَخَى، إن بيوت المَرَابِين والرهونات تملأ الإسكندرية، وعشيرتك لها حق دخول الجمنازيوم أسوة باليونانيين، وشبابها يتزاحم كل ليلة في أرقة إلبوسيس المظلمة، يغترفون رحيف الراقصات في ترف، بالإضافة لوجود مَرْدَخَى إلى جانب ملكهم.

. يكفيوني شرقاً ويكتفيهم شرف الخدمة في جيش المملكة... بعد إذن جلالتك.  
قالها واتجه للباب، فتحه وأدخل رجلاً يدينا في رداء بنبي، لحيته مُخضبة بالحناء وحول عينيه كحل، ومن ورائه خمسة عبيد يحمل كل منهم إضمادات بردي مربوطة بالجلد، وقفوا في دشوش حين استطرد مَرْدَخَى:  
جلالتك، أسبغ على توراتنا اليونانية شرف الاطلاع لمباركتها.

نظر الملك للرجل الذي تقدم العبيد ثم وجه كلامه لمَرْدَخَى:  
من هذا؟

أجاب مَرْدَخَى:  
. الحاخام رأوبين من سبط لاوي، مساعد كبير الكهنة في أورشليم والمشرف على الترجمات.

تأمل الملك كرش الحاخام للحظات ثم فلتت منه ضحكة:  
أكنت فمتنعاً معهم عن الطعام؟

ضحكت بلستيش في غنج فاضطراب الحاخام قبل أن يتمالك نفسه:  
. أيها الملك العظيم، لقد كفى الإله أجسادنا عن الطعام وأشبع أرواحنا عن السؤال.

ثم التقى أول بردية من العبد الأقرب إليه وانحنى أمام الملك:  
إنه سفير التكوين يا جالة الملك.



وشرع يقرأ: «في البدء خلقَ ربُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وكانت الأرض خربةً وخاليةً، وعلى وجه العمر ظلمةٌ، وروحُ ربِّي يَرْفَعُ على وجه المياه، وقالَ ربُّ: ليَكُنْ نورٌ، فكانَ نورٌ، ورأى ربُّ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ، وَفَصَلَ ربُّ بَيْنَ النُّورِ والظُّلْمَةِ...».

استرخي الملك في جلسه وأطرق برأسه للأرض فرفع مُرَدَّخاً كفه للحاخام:

.أشكرك يا رأوبين.

قطع الحاخام قراءته وطوى الرُّقْ في خشوع ثم انحنى في تحية وانصرف ساحب العبيد وراءه. قال الملك: .ضع توراتكم في المكتبة يا مُرَدَّخاً. فرفوفنا تحمل خبر برديات العالم، لن يضر أن ترضى شيوخ ومرابي حَيْ «دلتا» ما داموا يجبون عَنِ الضرائب ويتحملون مشقةِ الجِدَال مع الصناع والفالحين.

.بُورك عمر جَالَتك...

قاطع الحديث طرق بالباب، انفتح عن رسول آت بخبر عاجل، أشار له الملك فاقترب في خطوات حثيثة وانحنى ساجداً باسبيطاً ذراعيه حتى أمره الملك بالكلام، جلس على ركبتيه وأخرج لفافة صغيرة فضها مُرَدَّخاً فاكفهرت ملامحه بغتة، .ما فحوى الرسالة يا مُرَدَّخاً؟

الحمام الزاجل أتى بخبر حزين، إنه الكاهن مانيتون السمنودي يا سيدنا! عبست ملامح الملك فاللتقط اللفافة، قرأها ثم قام إلى سور الشرفة حين انسحب بلسيتيس خلف الأستار، تأمل البحر الممتد أمامه بلا نهاية ثم سحب شهيقاً أخرجه حين اقترب مُرَدَّخاً في خشوع. احترم صمت الملك حتى تكلم، لا يقتل الكهنة كل يوم، ولن أجد أفضل منك في تقصي الحادث يا مُرَدَّخاً.

.ساعدَ عَذْتَي للسفر إلى سمنود قبل الغروب.

قالها مُرَدَّخاً بحزم ثم انحنى منسحاً قبل أن يستدركه الملك:



.انتظر، مانيتون كان بصدد إنهاء كتاب تحدث معي بشأنه في آخر زيارة. احرص على أن تجده.

.لن يحيط جسد الكاهن الأعظم قبل أن أظفر بقاتلها، وبالكتاب.

قالها فردخاي وانسحب فالتحقق الملك كأس نبيذه وسکبه على الأرض متماماً:

.وداعاً يا مانيتون.



سمنتود، مَعْبُدُ الْأَسْوَارِ السَّبْعَةِ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ.

أحمل إليك تعازى الملك في كبير الكهنة.

مُصيبة لا تُحتمل.

أنا مُكلَّف بِتقصي الواقع، سأسمع ما حَدث فَهُما بَدَا تافِهَا.



لم أكن هنا حين قُتِلَ الْكَاهِنُ الْأَعْظَمُ، عَانِيَتِ الْهَيْكِلَ ثُمَّ أُمِرَتْ بِغَلْقِ بُوَابَاتِ الْمَعْبُدِ عَلَىٰ مَنْ فِيهِ وَاسْتِدَاعَهُ مَنْ كَانَ غَايِبًا، ثُمَّ نُقْلِتُ الْجَثَمَانَ إِلَى غُرْفَةِ التَّحْنِيَطِ.

تحنيط قتيل قبل فحصه.

خُشِيتَ عَلَىٰ جَسْدِهِ التَّلْفُ وَقَدْ عَاهَدْتُهُ يَوْمًا عَلَىٰ تَكْرِيمِ مَنْ يَسْبِقُ فِينَا الْآخِرَ إِلَى الْحَيَاةِ التَّالِيَةِ.

زَفْرَ مَرْدَخَائِي:

مَنْ الَّذِي اكْتَشَفَ الْحَادِثَ؟

كَاهِنٌ يَدْعُوكَ كَاهِنًا.

آتَنِي بِهِ، وَقَدْنِي إِلَى غُرْفَةِ التَّحْنِيَطِ.

تقدمه نائب الْكَاهِنِ إِلَى مَدْخَلِ السَّرْدَابِ، نَزَلا دَرْكًا مِنْ عَشْرِ سَلَامَاتٍ يَفْضِي إِلَى غُرْفَةِ مَا لَبِثَ كُلُّ مَنْ فِيهَا أَنْ خَرَّ عَلَىٰ رَكْبَتِيهِ احْتِرَامًا.

أَينَ وَجَدْتُمُ الْجَثَمَانَ؟

أَجَابَ النَّائِبُ:

أَمَامَ تَمَثَّالِ الرَّسُولِ.

أَرِيدُ أَنْ أَرِيَ السَّكِينَ.

مَدْ كَاهِنٌ يَدِيهِ بِقَمَاشَةٍ مَلْفُوَّة، وَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيِ مَرْدَخَائِي الَّذِي فَضَّحَهُ، تَأْمَلُ مَقْبِضَهَا الْمَلْفُوفَ بِكَتَانٍ خَشِينَ وَنَصْلَهَا الْمَشْحُوذَ عَلَىٰ حَجَرٍ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنَ الْجَسْدِ الْمَسْجُونِ يَتَفَحَّصُهُ فِي صَمْتٍ، تَرْقَرَقَتْ عَيْنَاهُ وَنَشَجَ صَدْرُهُ قَبْلَ أَنْ يَتَمَّالِكَ نَفْسَهُ، التَّقْطُعُ مِبْضَعًا لَامْسَ بِهِ أَطْرَافَ الْجَرْحِ حِينَ قَالَ نَائِبُ الْكَاهِنِ:



. المسكين، كان يصلني في بوغت من الخلف.

. بل القاتل ياغته من الأمام!

التفت مُرَدَّخاًي لصاحب الصوت فاستدرك نائب الكاهن:

. هذا كاي، الكاهن المجنح الذي اكتشف مقتل الكاهن الأعظم.

وأشار له مُرَدَّخاًي:

. اقترب.

دنا كاي فرفع مُرَدَّخاًي شمعة فَكُنْتَه من رؤية عينيه الواسعتين وأنفه المستقيم المدبب، فسَخَ ملامحه للحظات طالت

ثم أردف:

. أكمل.

اقترب كاي من الحوض وأشار للعنق:

. القاتل قوي البنية، محترف، عمل سكينه بسرعة لم تتمكن الكاهن من الاستغاثة، تركه يصارع الموت وشرع في البحث

عما جاء من أجله.

. إذن القاتل شخص يعرفه الكاهن، شخص لم يتعجب ظهوره؟

. لا أظن القاتل من رجال المعبد، ضربته كجزاري النوق، يعقرون ذبابهم من أسفل الرقبة في خفة، وليس بيننا جزار.

كما أن النعل التي يرتديها من الجلد، وكهنة المعبد كما ترى يا سيدى لا يرتدون إلا نعال الحلفاء والبردي.

التفت مُرَدَّخاًي للنائب بدھشة فعاجله:

. هذا الفتى كان ابنًا لقاصٌ أثراً قبل أن يصير كاهنًا مطهراً، تربى بيننا في طاعة، لم يقرب يوماً السمك أو الفول أو لحم



الخنزير، يجيد الكتابة ويحفظ متون الأقدمين كاملة.

نظر إليه مَرْدَخَاي:

. هل تتبعك آثاره؟

. ذلع نعليه لما تلوثنا دمًا، وتكللت الأمطار بدماء خطواته على الصخر خارج الهيكل.

هز مَرْدَخَاي رأسه ثم نظر لنائب الكاهن:

. أريد أن أعاين الهيكل، وأريد لكاي أن يصاحبني.



♀

♀

♀

تسقط شمس الظهيرة من فتحة السقف كسجين لاعف. ضربت الأرضية وانعكست على تمثال إدريس الكبير فأكسبته رهبة على رهبة، رائحة البخور لا تزال عالقة في هواء الهيكل، والكتوس والبرديات مبعثرة لم ترتفع من مكانها.

دخل مردحاي خلف نائب الكاهن ومن ورائهم كاي الذي أغلق الباب وسجد. تأمل مردحاي أثاث الهيكل المبعثر وأبواب الناوس المفتوحة ثم التفت لنائب الكاهن:

ماذا فقد من الهيكل؟

الكتوس والشمعدانات الذهبية لم تمس، كذلك محتويات الناوس، فقط أغلقت الخزانة.

ماذا عن الذهب؟

القاتل سرق ثالث ونصفاً من ذهب الإله في خزانة الهيكل، وبعض البرديات.

نظر مردحاي للخزانة:

اسمح لي بتفقدها.



بعد تردد توجّه نائب الكاهن إلى فنضدة، التقط من فوقها كأساً خشبية حافتها من النحاس، ملأها من إناء الماء المقدس ثم سكب بعض قطرات حتى بلغت حافة الماء حفرة صغيرة لا تراها العين، اتجه إلى غطاء الخزانة ذي نقش اللوتس الخائن، سكب الكوب فوق ورقة بعينها فجرى الماء في منحنياتها حتى وصل إلى تاج الزهرة التي اهتزت قبل أن تصدر طقطقة تلاها انخفاض كتلة من الحجر فانفتحت الخزانة، جذب نائب الكاهن الغطاء فظهرت البرديات، اقترب مُرَدْخَاي:

الآن عرفت لم لا تغادر الأسرار أسوار المعابد! من المطلوب على مفتاح الخزانة؟

أجاب نائب الكاهن:

القتيل، وأنا.

هز مُرَدْخَاي رأسه ثم التقط بردية من الخزانة وقرأ:

الجيبيتيكا.

أردف نائب الكاهن:

قوائم أسماء ملوك الأسرات الجيبيتية منذ التوحيد الثاني، تم نسخها وإرسال نسخة منها إلى الملك.

إذن ما الذي فقد؟

متومن «الجيبيانا».

الجيبيانا؟

أجاب كاي:

سيرة البلاد ما قبل الأسرات الحاكمة، نشأة وتكوين مملكة الجيبيتين ومتومن الحكماء الأقدمين مروراً بزمن الرعاة، جمعها الفقيد من ألواح الأوستراكا والبرديات المتفرقة في معابد البلاد، ثم ترجمها إلى اليونانية استعداداً لإياديعها



رُفوف المكتبة.

. كُم نسخة تم صناعتها من الجبانا؟

التفت نائب الكاهن إلى كاي

. كاي كان يساعد الكاهن في الكتابة.

أردف كاي:

. نعم كان يُمليني، عَدَا أجزاء خص الكاهن نفسه بكتابتها.

. أين البرديات التي نسختها؟

. بعْرْفْتِي.

. آتني بها، وأعد نفسك لمراقبتي إلى الإسكندرية أيها الكاهن النبيل.

تبَدَّلت مُعَالَمْ نائب الكاهن:

. لكن خروج كاهن مُجَنَّح من معبده ليس بالأمر السَّيِّدِي...

قاطعه فَرَدَّخَيَ:

. سَيِّدي النائب، لن أجد لمساعدتي خيراً من مقتفي أثر بارع كان أول من اكتشف الجريمة.

شَرَدْ نائب الكاهن للحظات ثم أشار لكاي:

. أعد نفسك للسفر.

انحنى كاي في خَضُوعٍ فاتجه فَرَدَّخَي إلى مكان سقوط الكاهن، جثا على الأرض مدققاً، تمشي بأنامله على موضع

علامات الدم الممسوحة، ثم التفت لكاي



. كانت هناك علامات مكتوبة!

كتم كاي أنفاسه واحتست أفكاهه كنار في قش «بالأمس دَنَست قدس الأقداس بقدمي، واليوم أفحى عن سير من أسرار الكاهن! ثقل لا تتحمله أكتاف الثيران، لكن «قتل كاهن والعبيث ببردياته» أثقل وطأة، فهـي آخر كتابات المعلم الأكبر، جمعها لأعوام من المعابد المتهالكة وضدور الكهنة الذين أشرفوا على الموت، وأفضى لي في مرـة أن الجيتانا هي تاريخ إيجيبـت الأصلي، التاريخ الباقي، لا سـبيل للاستهـانـة بمـعرفـة الفاعـل».

أفاق كـاي بعد شـرود:

. الكاهـن كـتب بـدمـائه عـلـى الـأـرـض ثـلـاث عـلـامـات يـونـانـية: «٤٨٥».

. تـقـصـد سـبـعـمـائـة وـخمـسـاً وـثـلـاثـين؟

هـزـ كـاي رـأسـه مـؤـكـداً فـارـدـف فـرـدـخـاـيـ.

. أمر غـرـيبـاً لـو تـعـرـفـ الـكـاهـن وـجـه قـاتـلـه لـكـانـ الـأـولـى أـن يـكـتبـ اـسـمـهـ. هـذـه الـأـرـقـامـ لـا بـدـ تـعـنـيـ شـيـئـاً أـقـيمـ منـ مـعـرـفـةـ اـسـمـ القـاتـلـ، لـكـنـ، لـمـ طـمـسـتـهـ؟

. خـشـيـتـ أـنـ يـكـونـ القـاتـلـ مـنـ بـيـنـنـاـ وـأـرـدـتـ تـفـوـيـتـ الفـرـصـةـ عـلـيـهـ كـيـ لـا يـنـتـبـهـ بـمـاـ أـرـادـ الـكـاهـنـ.

. هل لـلـأـرـقـامـ دـلـالـةـ مـعـرـفـةـ فـيـ مـعـبـدـكـمـ؟

. لـا تـعـنـيـ شـيـئـاً فـيـ حدـودـ مـعـرـفـتـيـ.

. مـنـ المـسـمـوـحـ لـهـ بـدـخـولـ الـمـيـكـلـ؟

سـأـلـ فـرـدـخـاـيـ نـائـبـ الـكـاهـنـ.

أـجاـبـ النـائـبـ:



لا يَدْخُلُ قَدْسَ الْأَقْدَاسِ إِلَّا الْمَلَكُ إِذَا حَضَرَ وَالْكَاهِنُ الْأَكْبَرُ، وَأَنَا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ.

. وَأَنْتَ يَا كَاي؟

لا أَدْخُلُ إِلَّا بِإِذْنِ الْكَاهِنِ لِيَمْلِي عَلَيَّ الْمَتَوْنَ.

هَزْ مَرْدَخَايِ رَأْسَهُ:

حَسَنًا يَا كَاي، سَيَكُونُ فِي رَحْلَتِنَا إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ مُتَسَعًّا مِنَ الْوَقْتِ لِأَسْمَعَ مِنْكَ مُزِيدًا مِنَ التَفَاصِيلِ.

انْهَنِي كَاي فِي خَشْوَعٍ حَتَّى خَرْجَا، مَا إِنْ خَفَتْ وَقْعَ أَقْدَامِهِمَا وَرَنَّ الصَّمْتُ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْ تِمَثَالِ الْمُعْظَمِ إِدْرِيسِ، لِأَمْسِ

قَدْمَيِهِ الْحَجَرِيَّتَيْنِ مُتَمَمَّا:

سَيِّدِي، لَا تَتَرَكْنِي.





قبل الغروب خان الهواء لافحا، حبات الرمل تتطاير كشهب السماء لتخرق الوجه والصدر، والأرض تصرخ تحت وطأة العجلات الضاربة، كانت المرة الأولى التي يركب فيها كاي عربة ملكية تجرّها أحصنة، طالما رآها منحوتة على جدران المعبد لكنه لم يحلم يوماً باعتدالها. تشبّثت يداه بجدرانها المصقول محاولاً الاتزان، يلتفت وراءه كل بضع دقائق ليتأمل أسوار المعبد الذي لم يغادره منذ سنين، وأشجار المدينة التي لم يعرف غيرها. سمنود، من يصدق أن تلك الأرض المهمّلة كانت يوماً مقرّاً لحكم آخر ملوك الجيبيين قبل اجتياح الفرس ثم الإغريق، قبل النهاية المشئومة في أقل من مائة عام صارت بقعة على الهاشم لا يميزها سوى المعبد العتيق وذكريات أجداده عن مجده ولئن في أطلال كانت يوماً قلاعاً وقصوراً، قبل أن يدنسها لصوص القبور ليلاً لينهلو من كنوز الموتى المخبأة في أرضها. تذكر كاي حين كان يسيراً خلف أبيه مقلداً مشيته وحركاته، يتبع طرف عصاه الخشبية الطويلة التي يشير بها لمواقع الأقدام على الرمال مقتفيًا لسارق قبور، قاطع طريق أو قاتل، حتى يصل إلى مخبئه كثعلب حكيم، يقرأ في أثر الأقدام وضغطها على الرمال نوع الجاني وزن ما يحمل وعلى أي كتف، عمره وحجمه، به عاهة أو سليم، أسمرا البشرة أو أبيض، وإن كانت أنثى أدرك عذريتها من غرور جوانب قد미ها في الرمال، ومن رسم كاحلها يعرف إن كانت حبلق، ويعرف من شكل ومسار خطوات الحيوان نوعه وحالته، ومن برازه المختلف وراءه ما أكله ومن أين. كان أشهر مقتفٍ للأثر بسمٍ نود، حتى أقعدهه مرض تقىاً بسببه دماء سوداء، ثم مات في فجر هادئ، يذكر كاي ذلك اليوم كأنه الأمس، عمره لم يكن تعدّي الثانية عشرة، كتمت أمّه صرختها وأرسلته ليخبر الأهل والأقارب فالتحقق عصا أبيه التي لم تكن تفارقها، وقف على باب الدار ورفعها كما تعلم منه، أغمض عينيه للحظات ليُصفي ذهنه، ثم حركها فوق الرمال في دوائر محفوظة، مقاوِماً



دَمْعًا سَاخِنًا أَعْاقَهُ عَنِ الرُّؤْيَا، مَسَحَ وَجْهَهُ ثُمَّ اتَّحَدَى يَتَلَمَّسُ أَثْرَ سَارِقِ رُوحِ أَبِيهِ، كَمْ تَمَنَّى أَلَا تَكُونَ تِلْكَ أُولَئِكَ مَهَامُهُ،  
وَتَمَنَّى يَوْمَهَا أَلَا يَفْشِلُ، ظَلَّ يَحْدَقُ فِي الرَّمَالِ حَتَّى اقْتَرَبَ ظَلَّ كَبِيرٌ، رَفَعَ كَأْيَ عَيْنِيهِ فَمَيَّزَ عَمَّهُ:

. مَاتَ أَبِيهِ.

قَالَهَا كَأْيَ فَأَعْمَضَ الْعُمَرَ عَيْنِيهِ فِي الْأَلْمِ وَاقْتَرَبَ مِنْ أَبْنَى أَخِيهِ فَاحْتَضَنَهُ:

. وَمَاذَا تَفْعَلُ يَا كَأْيَ؟

. أَقْتَفِي أَثْرَ مِنْ سَلْبِ أَبِيهِ رُوحَهُ.

. وَهَلْ عَرَفْتَهُ؟

. لَمْ يَتَرَكْ أَثْرًا وَرَاءَهُ.

قَالَهَا بِإِيمَانٍ فَأَرْدَفَ عَمَّهُ:

. بَلْ تَرَكَ.

نَظَرَ إِلَيْهِ كَأْيَ فِي أَمْلَقِ فَبَسَطَ الْعُمَرَ كَفِيهِ تَحْتَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ.

. طَالَمَا أَرْدَتْ مَعْرِفَةَ أَبِنِ ذَهْبَتِ رُوحِ أَبِيكَ، فَعَلَّلَكَ اتِّبَاعَ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ.

لَمْ يَفْهَمْ كَأْيَ وَقْتَهَا كَلِمَاتُ عَمَّهُ، ظَلَّ يَرْمَقُ الْقَرْصَ الْمَلْتَهَبَ حَتَّى احْتَرَقَتْ عَيْنَاهُ وَتَلَاثَتِ التَّفَاصِيلُ، دَفَنَ أَبِيهِ بِحَفْرَةٍ  
صَغِيرَةٍ فِي صَفَّةِ الْمَوْتِي بَعْدَمَا لَفَّهُ عَمَّهُ بِجَلْدِ ثُورٍ كَانَ يَدْخُرُهُ لِنَفْسِهِ، وَوَضَعَ بِجَانِبِهِ تَمَثَّالَ إِدْرِيسٍ وَكَيْسَ شَعِيرٍ سَقَيَ  
بِالْمَاءِ لِتَنْبَتْ بِرَاعِمَهُ، قَبْلَ أَنْ يَهْبِلُوا عَلَى جَسَدِ الرَّمَالِ وَيَغْرِسُوا سَعْفَ النَّخْلِ فِيهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ وَضَعَتْ أُمُّ كَأْيَ عَلَى كَتْفَهُ بَقْجَةً مِنِ الْكَتَانِ تَحْوِي لِبَاسًا أَبْيَضَ نَظِيفًا، تَحْتَهُ بَتَّاً وَبَنْصَفِ إِوْزَةٍ مَشْوِيَّةٍ وَبَعْضِ  
**الْتَّنِينِ وَالْحَمِيرِ**، حَاوَلَتِ التَّمَاسِكَ وَهِيَ تَخْبِرُهُ أَنَّهَا سَتَوْدِعُهُ الْمَعْبُدَ تَخْفِيَقًا لِأَحْمَالٍ أَثْقَلَتْ كَاهْلَهَا مِنْ إِخْوَةِ أَصْغَرِ سَنَّا،  
اسْتَقْبَلَ كَأْيَ الْخَبْرَ بِصَمْتٍ وَسَكُونٍ ثُمَّ هَزَّ رَأْسَهُ تَفْهِمًا، مَقاوِمًا الدَّمْوعَ بِابْتِسَامَةٍ مَطْمَئِنَّةٍ لَمْ تَمْنَعْ الْأَلْمَ مِنِ النَّحْيِبِ،



قبل أن يركب حماراً وراء عمه.

في معبد الأسوار السبعة أوصى العم الكهنة بابن أخيه قبل أن يغلق الباب الكبير، بات كاي ليلته الأولى خائفاً وسط رفاق من أعمار متقاربة، قبل أن يستدعى في اليوم التالي لساحة المذبح، وقف وسط صفين من الكهنة يتلون أذكاراً لم تعهد لها أذناه، ثم صدوا عليه ماء فاتراً قرئت عليه التعويذات قبل أن يقدم إليه كوب فيه عسل، شربه كاي فأمره الكاهن بتعرية ذصره، دهنوها عضوه بفرشاة من شعر الخيل غمسة في مزيج من الخل، لحظات وسار الخدر في الطرف المنكمش، أمسكه كاهن ليحدّ من حركته قبل أن يقطع كاهن آخر غرلته بسكين من حجر الصوان في سرعة وهدوء، رفع الجلد فرثل الواقعون كلمات منحمة قبل أن يلقinya فوق نار المذبح وسط ذهول كاي الذي فقد الوعي ما إن رأى الدخان يتصاعد من لحمه قرباناً إلى السماء.

هكذا رسم كاي كاهناً «مطهراً»، يُكنس المعبد من الفجر ويغسل جيشه، يدهن الأعمدة بالزيوت ويطعم الطير الهابط إلى بهو الأعمدة، وينظف المذبح من رعاد قرابين الإله، كان ذلك قبل أن يرى الكاهن الأعظم «مانيتون» لأول مرة، يتذكر الرينة المطمئنة على كتفيه، ثمرة التين التي وضعها في كفه، والوجه البشوش الذي غطاه فطر التحبيط منذ ساعات

أفاق كاي من رحلته للماضي الجميل فقاوم شحوص عينيه في سراب مدينته التي اختفت، ونظر في النجوم الزاهية قبل أن يلتقط أنفه ملوحة المستنقعات الشمالية، أبطأت غربة مردحه بعد صيحة للخيول، توقفت، على ضوء القمر رأه كاي يترجل من عربته ويداعب بنعله الفاخر نبات المستنقع فنزل واقترب في فضول: لم توقفنا يا سيدي؟ القمر مكتمل.

أفراش النهر تكره الغرباء، تهاجم العربات المسرعة والخيول، سنببت ليلتنا ونستأنف رحلتنا مع شروق الشمس.

ساد الصمت لحظات أغمض فيها مردحه عينيه وسحب نفساً بارداً إلى صدره قبل أن يستطرد:

هل كان للكاهن أعداء يا كاي؟



. لا أذكر أني رأيت شخصاً يضمحله حقداً أو حراهيـة.

. هي إذن سرقة عادـية؟

. بل التـرصـد والنـية المـبيـنة، وإلا فـلمـ لمـ يـنتـظرـ خـلوـ الـهـيـكـلـ فيـسـرـقـ؟

. لا أـذـفـيكـ سـيراـ، تـبـهـرنـيـ مـقـدرـتكـ فيـ التـقصـيـ وـالتـقـفـيـ.

. مـوـتـ أـبـيـ لـمـ يـمـهـلـنـيـ أـنـ أـكـمـلـ مـاـ بـدـأـتـ فـيـ تـعـلـمـهـ.

. بل أـنـتـ موـهـوبـ بالـفـطـرـةـ، أـرـىـ ذـلـكـ فـيـ عـيـنـيـ، حـتـىـ إـنـ الشـكـ سـاـورـنـيـ لـلـحـظـاتـ أـنـ تـكـونـ أـنـتـ الـفـاعـلـ.

. أنا!

. لـمـ لـ؟ فـكـرـ مـعـيـ، أـنـتـ قـادـرـ عـلـىـ دـخـولـ قـدـسـ الـأـقـدـاسـ، ذـبـحـ الـكـاهـنـ فـيـ سـرـعـةـ لـمـ تـمـهـلـهـ الصـرـيخـ باـسـمـ قـاتـلـهـ الـذـيـ  
بـالـتـأـكـيدـ تـعـرـفـ وـجـهـهـ، سـرـقـتـ الـخـزانـةـ، ثـمـ فـحـيـتـ بـيـديـكـ آخـرـ ماـ كـتـبـ عـلـىـ الـأـرـضـ قـبـلـ أـنـ يـلـفـظـ أـنـفـاسـهـ، هـلـاـ كـرـرـتـ عـلـيـ ماـ  
كـتـبـ؟

فيـ ذـهـولـ حـدـقـ كـايـ فـيـ عـيـنـيـ رـئـيسـ الـقـصـرـ:

. كـتـبـ ثـلـاثـةـ أـرـقـامـ؛ سـبـعـمـائـةـ وـخـمـسـاـ وـثـلـاثـينـ.

. رـجـلـ مـذـبـوحـ يـكـتـبـ ثـلـاثـةـ أـرـقـامـ بـيـدهـ وـهـوـ يـصـارـعـ الـوقـتـ! قـدـ تـكـونـ الـأـحـرـفـ الثـلـاثـةـ «ـكـ، اـ، يـ»ـ وـاـخـتـلـطـ عـلـيـكـ الـأـمـرـ؟

انـقـبـضـ قـلـبـ كـايـ:

. سـيـديـ، أـنـاـ لـمـ أـقـتـلـ الـكـاهـنـ الـأـعـظـمـ.

. تـبـقـيـ الـأـرـقـامـ مـحاـولةـ جـيـدةـ لـتـشـتـيـتـ الـانتـباـهـ، أـمـاـ تـالـتـ وـنـصـفـ مـنـ الـذـهـبـ فـتـسـتـحـقـ الـمـجاـزـفـةـ.

. أـقـسـمـ باـسـمـ الـمـعـلـمـ الـأـكـبـرـ إـدـرـيـسـ إـنـنـيـ مـاـ مـحـيـتـهـ إـلـاـ خـوـفاـ أـنـ يـكـونـ الـقـاتـلـ مـنـ رـجـالـ الـمـعـبدـ، وـقـدـ أـفـضـيـتـ بـهـاـ إـلـيـكـ



أنقسم أن نسخة متون الجبتانا التي كانت بحوزتك هي النسخة الوحيدة والكاملة بخلاف التي سرقت؟

أقسام بإله الوجود الواحد، خالق نفسه بنفسه أن تلك هي النسخة الوحيدة من متون الجبتانا ولا نسخة بعدها.

نظر إليه مُرَدْخَاي ثم ابتسם قبل أن يضحك:

لقد بلت منك يا كاي.

رفقه كاي في ذهول محاولاً استيعاب الموقف قبل أن تهدأ أنفاسه ويبتسم باضطراب حين أردف مُرَدْخَاي:

لحسن حظك أنني أستطيع تمييز الصادق بين ستين كاذباً.

قالها وأغمد النصل في بطن كاي

تلقي الأذير الطعنة فتقلاصت ملامحه وانثنى قامته في صدمة، بذهول تأمل دماء الساجنة تتدفق حول السكين الغائر في لحمه، السكين الذي ذبح الكاهن الأعظم منذ ليالتين! ثم نظر في وجه مُرَدْخَاي الذي رفقه بهدوء، قبل أن يوكز صدره ليُسقط كاي في مياه المستنقع الخضراء، وأشار لحارسه:

أجهز عليه.

تلقي الحارس الأمر فرفع حرية، وزنها في قبضته وتأمل كاي يضرب المياه المزدحمة بالطحالب محاولاً الطفو، مصارعاً الوهن ورئة تخرق، يراقب قاتله بعينين جاحظتين حتى أيقن التأهب في عينيه فثقل جسده واتخذ طريقه للقاع، كان ذلك حين أرسل الحارس حريته، شقت المياه في سلاسة واخترقت هدفها، لحظات وعلت المياه دماء سودها نور القمر، غاصت الحرية بصاحبها وانتظر مُرَدْخَاي وحارساه دقائق حتى ينسن الموجات وسكنت ثم تحرك كائن جائع من فوق الشجرة، فاعتلو العربات ومشقوا أرداد الخيول بالسياط.



♀

♀

♀

الإسكندرية.

صوت سناياك الخيل على البلاطات المحدبة كان له وقع مريح في أذن فرداي، شد اللجام مند وطأ فحيط حي القصور فابطا فرسه وانتظمت خطواته في تناغم فسمر دعْدَع اعصابه فارضى عينيه انتشاء، فـ بجمنازيوم الأمراء وقصر المحظيات ذي الستائر الحمراء ثم وصل إلى الباب الشرقي للقصر، سـأل عن الملك فعلم أنه يتمشى مع ابنته «برنيكي» قرب البحيرة، اخترق البهو ونزل إلى الحدائق، فمشى بحذاء المياه المغطاة بالزنابق حتى وصل إلى المـنـاهـةـ الـكـبـرىـ، بوابة حجرية هائلة منحوت فيها وجه الإله سيرابيس محاط بجنائن مبسوطين، وراءها مساحات شاسعة من الحـوـائـطـ الشـجـرـيةـ تـصـنـعـ فيما بينها طـرـقاـ مـلـتوـيـةـ تـفـضـيـ فيـ المـنـتـصـفـ إـلـىـ شـجـرـةـ بـلـوـطـ نـادـرـةـ، فـنـ وـصـلـ إـلـىـ يـاـنـيـاـهـ فـيـ الـفـتـيـاتـ والأـمـرـاءـ فـيـ الـاحـتـفـالـاتـ الـمـاجـنـةـ فـأـتـىـ بـورـقةـ مـنـ أـغـصـانـهاـ يـحـطـقـ بـزـيـارـةـ إـلـىـ قـصـرـ الـمـحـظـيـاتـ، يـنـتـقـيـ مـنـ تـرـوـقـهـ مـنـ الـفـتـيـاتـ ليـتـخـذـهاـ جـارـيـةـ لـأـتـرـدـ، هـذـاـ فـيـ حـالـةـ مـاـ خـرـجـ مـنـ التـيـهـ دـوـنـ أـنـ يـبـكـيـ لـسـاعـاتـ أوـ يـصـرـخـ فـيـ جـنـونـ حـتـىـ يـلـتـقـطـ استـغـاثـتـهـ أحدـ الـحـرـاسـ فـيـسـتأـذـنـ الـمـلـكـ فـيـ إـدـرـاجـهـ فـيـوـافـقـ، أـوـ يـتـرـكـهـ لـسـاعـةـ أـوـ سـاعـتـيـنـ اـسـتـهـزـاءـ.

حين اقترب فرداي كان وجه برنيكي عابساً، قطع الملك حديثهما المحمد حين لمحة.

اقرب يا فرداي، ما الأخبار؟

دـنـاـ فـانـحـنـىـ إـجـالـاـ،



. الأخبار تستطيع الانتظار، سأعاود زيارتك جلالتكم قبل الغروب.

. انتظر، أريد مشورتك في مسألة طارئة.

رمت برنيكي أبيها بنظرة نارية فتجاهلها واستطرد:

. جاءني رسول من «أنطيوخوس الثاني» يطلب يد الأميرة برنيكي. مقابل صداق كبير من الأراضي لن يطالع السلوقيون باسترداد ملكيته في أراضي سوريا.

أردفت برنيكي بحده:

. لن أترك جسدي لسفاح السلوقيين من أجل تهليل العامة بانتصاراتك في الإسكندرية.

أردف الملك:

. تلك الزيجة ستكون بداية نهاية الصراع. أرى ذلك في كلمات الرسالة، ما رأيك يا مُرَدْخَاي؟

صاحت برنيكي في غضب:

. ذلك كل ما يعنيك! معركة أقودها أنا في سرير بلد غريب بدلاً من أسطولك.

نظر مُرَدْخَاي للملك والأميرة برنيكي بابتسامه ثم قال في هدوء:

. أنطيوخوس الثاني رجل في العقد الخامس، قوي البنية سليمها، وله ولدان من لاوديس، زوجته الفاتنة ذات الأصل الفارسي المقدوني. ثم نظر للأميرة بابتسامه . هي ليست في جمال أميرتنا برنيكي بالطبع، لكن المقارنة بين فرصة زوجة أولى ممكّنة من وراثة العرش، وزوجة ثانية، ليست عادلة.

حدجت برنيكي أبيها في ظفر:

. هنا هو رئيس قصرك قد حسم الجدال.



عاجلها مُرَدْخَاي

. إلا إذا وضعنا شروطاً تضمن لنا ولادة العهد!

ـ مقتبته باستنكار:

. عن أي شروط تتحدث؟

. أن يتخلّى أنطبيوخوس عن زوجته الأولى، وأن تصير أميرتنا العزيزة هي الزوجة الرسمية، يَصْبِحُ أبناؤك الذكور ورثة شرعيين، تُنكِّلُ العَمَالَاتُ بِصُورَتِكِ، وَتُسَمِّيُّ مَدِينَةً كَبِيرَةً بِاسْمِكِ؛ مَدِينَةً بِرْنِيكِي، وأن يَضَافَ إِلَى الصَّدَاقِ جُزُرُ الشَّمَالِ، نَجْعَلُهَا حَامِيَّةً لَنَا تَضْمِنَ دِفَاعاً فَتَقدِّمَا إِذَا تَجَدَّدَتُ الْحَرَبُ.

ابتسِمْ الْمَلْكُ فَصَاحَتِ الْأَمْبِرَةِ بِغَيْظِهِ

. أنت مثل بروميثيوس، تسرق النار من زيوس لتعطيها للبشر، وستلقى عذاباً أبداً يُعذَّبُهُ.

احتَدَ الْمَلْكُ،

. بِرْنِيكِيَا

ضَحِّكَ مُرَدْخَايِ

. لا بأس يا سيدي، إذا صار التهام كَبِيِّدِي بِمَنْقَارِ بِسْرِ صَبِيَّةِ كُلِّ يَوْمٍ جَزَاءً لَآنِ يَصِّبِحُ مَلْكُ أَمِيرَتِنَا الْأَثِيرَةِ بِرْنِيكِي مُمْتَداً  
مِنْ بَلَادِ سُورِيَّةِ إِلَى قَمَلَكَةِ الْمَأْوَرِيَّينِ فِي الشَّرْقِ، فَأَنَا مُرَحْبٌ.

انحنى مُرَدْخَايِ في احترامٍ فلم تخف بِرْنِيكِي غَضْبَهُ مُمْزُوجاً بِقلة حيلة، قبل أن تقلب شفتَيْهَا غَيْظاً:

. لَنْ أَتَزُوْجَ.

ابتعدت الأميرة فنظر الملك لمُرَدْخَايِ وزفر بابتسمةٍ



. فَنْدَ صُغْرِهَا تَظَنُ أَنَّ الاقْتِنَاعَ ضَعْفٌ، فَطَالَعَ بِرْجَهَا «ثُور» يَحْمِلُ بَيْنَ قَرْبَيْهِ الْعِنَادَ، لَكِنَّهَا فِي النِّهايَةِ دَائِمًا تَوَافَقُ، هَيَّا، لِنَتَمَشَّ.

التقطَ مِنْ فَوْقِ الْمَائِدَةِ كَأسَيْ نَبِيَّدُ ثُمَّ دَلَّفَ الْمَتَاهَةَ، دَارَ الْمَلِكُ بِمَمْرَاتِهَا فِي سَلاَسَةٍ حَتَّى وَقَفَ أَعْمَامُ تَمَثَّلِ نَصْفِي لِأَبِيهِ «بَطْلَمِيوسَ الْأَوَّلِ» فَوْقَ حَوْضِ لَنِبَاتِ الْلَّوْتِسِ، انْحَنَى فَرَدَّخَايِ احْتِرَاماً وَجَلَّسَ الْمَلِكُ عَلَى أَرِيكَةِ مَوَاجِهَةِ

. مَاذَا حَدَثَ فِي مَعْبُودِ الْأَسْوَارِ السَّبْعَةِ؟

. ذَبَحَ الْكَاهِنَ مَانِيَّتُونَ أَعْمَامُ تَمَثَّلِ إِدْرِيسِ الْهِيَكْلِ.

انْتَفَضَ الْمَلِكُ:

. الْلَّعْنَةُ! اِنْتَقامُ أَمْ سُرْقَةٌ؟

. بَلْ طَمْوَحٌ.

. شَخْصٌ مِنْ دَاخِلِ الْمَعْبُودِ؟

. الْكَهْنَةُ الْجِيَبَتِيُّونَ يَأْكُلُونَ بِزَهْدٍ يَجْتَبُ أَبْدَانَهُمُ الْمَرْضُ، يَعْمَرُونَ حَتَّى يَتَخَطَّلُوا الْمَانَةَ فَيَسْدَّدُوا الْأَبْوَابَ خَلْفَهُمْ لِكُلِّ مِنْ أَرَادَ الْأَرْتِقاءَ فِي الْمَكَانَةِ، الْقَاتِلُ يَدْعُى كَايِ؛ كَاهِنًا بِالْمَعْبُودِ، مَسْمُوْهَا لَهُ بِزِيَارَةِ الْهِيَكْلِ، وَيَعْرُفُ مَكَانَ الْخَزِينَةِ، الْطَّمْعُ تَسْرُّبُ إِلَى رُوحِهِ فَذَبَحَ مَعْلَمَهُ وَسَرَقَ تَالِنْتَ وَنَصْفَهُ مِنَ الْذَّهَبِ، وَقَبْلَ أَنْ يَلْفَظَ الْكَاهِنُ أَنْفَاسَهُ كَتَبَ عَلَى الْأَرْضِ ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ مَحَاهَا الْكَاهِنَ، ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ تَمَثَّلُ اسْمَ قَاتِلِهِ: كَايِ.

. يَا لِلْخَسْرَةِ!

. لَا عَجَبٌ، إِنْ شَعْبَ ذَلِكَ الْبَلَدِ لَهُمْ حَفْنَةٌ مِنَ الْقَادِرَاتِ وَالْفَضَّلَاتِ وَأَرْوَاحَهُمُ الدَّاخِلِيَّةِ مَا هِيَ إِلَّا رُسُومٌ مِنْ سَمْوَمِ الْثَّعَابِينَ وَالْتَّمَاسِيقِ الَّتِي تَعْجَبُ بِهَا بِلَادَهُمْ، فَاسْدُوْهُ عَقُولَ لَهُمْ إِلَّا مُضْمَارَ الْخَيْلِ وَالْزَّعْيَقِ فِي الْأَسْوَاقِ.

. هَلْ هُوَ وَحْدَهُ مِنْ أَتَمِ الْجَرِيمَةِ؟



. لم أر في عيني نائب الكاهن قاتلاً أو مُدبرًا. عجوز قنوع يلتمس نهاية سعيدة.

. هل سرق ذلك الفتى برديات خزينة الميك؟

. نعم، والكتاب الأخير للكاهن كان في غرفته.

قدم مُرداخاي للملك إضمامه برديات ملفوفة بالجلد:

. الجيتانا، قصص مسلية عن نشأة مملكة الجيتبيين.

التقطها الملك وفك الحزام وبدأ يطالع الكلمات ثم التفت لمُرداخاي:

. هل الكتاب كامل؟

. أظنه كذلك.

. أين ذلك الكاهن؟

. حاول الهرب أثناء نقله، قتلته حارسي قرب المستنقعات الشمالية.

زفر الملك في هم:

. أشكرك يا مُرداخاي.

انسحب رئيس القصر في دشوش تاركاً الملك، يقرأ كلمات مانيتون، في قلب المتأهة.



♀

♀

♀

بعد حشرجة عنيفة استيقظ كاي، سُعل بوهـن فصرخ ألمـا، قـاوم ضعـفا دـخل كـيانـه لـينـزع العـصـاب الـذـي غـطـى عـينـيه، شـاع الشـمـس يـداعـبه مـن بـيـنـ أـغـصـانـ مـتـشـابـكةـ، وـحـبل يـشـدـه إـلـى جـذـعـ شـجـرـةـ عـرـبـيـشـ اـرـتـفـعـ عـنـ الـأـرـضـ بـعـضـ أـذـرعـ، بـطـنهـ وـكـتفـهـ الـيـسـرىـ مـلـفـوـقـ بـخـيـشـ بـرـزـتـ مـنـ تـحـتـهـ أـورـاقـ جـمـيـزـ، عـلـىـ صـدـرـهـ رـسـمـ لـعـينـ حـوـرسـ الـحـامـيـهـ وـفـيـ فـمـهـ مـرـارـهـ مـسـتـنـقـعـ آـسـنـ، بـصـعـوبـهـ بـالـغـةـ نـظـرـ أـسـفـلـ مـنـهـ، حـشـائـشـ مـمـتـدـهـ فـوـقـ أـرـضـ رـطـبـةـ وـحـطـبـ مـحـترـقـ وـبـقاـيـاـ سـمـكـهـ، حـاـولـهـ اـسـتـرـجـاعـ آـخـرـ مـاـ رـأـيـهـ فـتـدـاعـتـ التـفـاصـيلـ، طـعـنةـ نـافـذـهـ فـيـ مـعـدـتـهـ مـنـ رـئـيـسـ الـقـصـرـ، مـاءـ لـزـجـ يـسـحبـهـ لـأـسـفـلـ، رـئـتـاهـ تـمـتـلـئـانـ، حـارـسـ يـصـوـبـ حـربـةـ، يـقـذـفـهـ، تـخـتـرـقـ الـخـيـفـ فـيـ سـخـونـهـ، قـوـىـ تـخـورـ، يـأسـ يـتوـغلـ، طـحـالـبـ وـأـغـصـانـ تـمـسـحـ صـدـعـهـ وـصـدـرـهـ قـبـلـ أـنـ يـحـضـنـ جـسـدـهـ قـاعـ المـسـتـنـقـعـ، ظـلـامـ.

التقط كـايـ خـطـوـاتـ تـقـرـبـ خـلـفـ الشـجـرـةـ فـتـحـفـزـ أـنـفـاسـهـ، حـاـولـهـ بـجـزـعـ فـكـ الـحـبـلـ الـمـحـيطـ بـخـصـرـهـ فـصـرـخـ جـرـحـهـ، كـانـ ذـلـكـ حـيـنـ بـرـزـ عـجـوزـ أـصـلـعـ نـحـيفـ الـبـنـيـةـ، يـسـتـرـ جـسـدـهـ بـأـلـيـافـ النـخـيـلـ وـيـمـسـكـ فـيـ يـدـهـ سـكـيـنـاـ مـدـيـبـاـ، رـمـقـ كـايـ الـذـيـ بـعـثـرـ أـورـاقـ الشـجـرـ حـوـلـهـ فـتـسلـقـ الشـجـرـةـ فـيـ ذـفـةـ لـاـ تـلـيقـ بـعـمـرـهـ، صـرـخـ كـايـ فـيـ جـزـعـ حـيـنـ رـفـعـ الرـجـلـ سـكـيـنـهـ، قـبـلـ أـنـ يـقـطـعـ الـحـبـلـ وـيـمـدـ كـفـهـ مـسـاعـدةـ، لـمـ يـسـتـجـبـ كـايـ.

جـسـدـ ضـعـيفـ، لـنـ يـتـحـمـلـ سـقـوـطاـ مـنـ فـوـقـ شـجـرـتـيـ.

لـمـ أـوـثـقـتـنـيـ؟



قال العجوز بصوت خافت: كي تسمن فأطعمك لتماسيحي.

نظر إليه كاي في هلع فضحك العجوز بثلاث أسنان متفرقة:

. إنما خشيت عليك دواب الأرض فرفعتك عنها. لو أردت إطعام تماسيحي لانتقيت كاهننا بدينا.

استسلم كاي للكف الخشنة، نزل متكئاً عليها يتأوه في ألم، مقاوماً أسرابَ يعوض تضرب وجهه وعنقه، وضعه العجوز فوق عشب المستنقع الرطب ثم نزع الخيش الملفوف على بطنه وأوراق الجميز فانكشف الشق الذي حفره السكين، فضمومة حافته بخيوط من الأمعاء:

. جرح غائر، سيندمel بعد دورة قمر.

كيف وجدتني؟

. شاهدت ما حدث من فوق شجرتي فنزلت، ظنني قاتلوك زاحفاً يسعى لفريسة فرحلوا مطمئنين، غطست فضولاً فلمست بقايا الحياة فيك، انتسلتك، ضربت صدرك حتى أدرجت نصف مياه المستنقع ثم عالجت جروحك، أن تصيبك حرية بمثل هذا الوزن ولا تمزق إلا كتفك هي معجزة.

تحسس كاي كتفه فاردف العجوز:

. حشوت الجرح عسلاً وكسوته بيرقات ذباب، ستستطيع تحريكه بعد أيام.

امتعض كاي فتناوله العجوز قطعة سمك كانت فوق الخطب: أنا لا آكل السمك.

. لا أطعمك إلا سمكاً منذ ثلاثة أيام.

. أنت ساحر؟

. طبيب.



طبيب في مستنقع!

كائنات هذا المستنقع أرحم منبني الإنسان، اسمى عزيز، كنت أعمل طبيباً بحري راقودة في الإسكندرية، ملكت يوماً منزلًا وزوجة، وابنة، قبل أن أفر إلى هنا.

. ارتكبت جريمة؟

قام عزيز من مكانه، التقط من الشجرة جرة مملوءة بالماء، شرب منها بحرص ثم التفت:  
. قتلت شخصاً.

جحظت علينا كاي قبل أن يُكمل عزيز:

الضرائب المجنحة التي فنينا بها أفقرت أهل راقودة وأحدثت ظهورهم، العلاج بات مكلفاً حتى بعد أن تنازلت عن نصف  
أجري، ولم أستطع يوماً صد وجه يستغيث أو يتالم، حتى حاصرني الخنازير؛ جباه الضرائب، يقطعنون من لحمي الحي  
ضريبة قدرها أربعمائة دراهم سنوياً، ضاقت حالى حتى اضطررت للاقتراض من مرابي حي دلنا بفائدتها قدرها ستة  
وأربعون على كل مائة، عمرتني الفوائد كالرمال المتحركة، كلما حاولت تسديدها ازدادت فيها انغماساً.

. الديون جنون.

بل الجنون أن تعيش في الإسكندرية وأنت من أبناء حي راقودة، نحن الجيبيين لا ثمن لنا هناك، ويد المزابي  
الممدودة إلى العنق أحد من أسنان التماسيح.

. وجريمتك؟

أتي الوعد إلى بيتي يوماً يطالبني بما له، قبل أن يساومني على ابنتي، أرادها أن تعمَّل عاهرة تحت إمرته تسديداً  
لديوني، لم أدر بنفسي إلا وأنا أدير سكينها في صدره، سقط كخنزير يخور ثم خمدت أنفاسه، أُسقط في يدي وهلاعت  
صغيرتي، لما تمالكت نفسي حملت جثته وألقيتها في ناصية مظلمة فالحقني أشخاص لا أعرفهم، قفزت في مركب  
عبرت به البحيرة الجنوبية وسلكت طريقي إلى هنا، منذ عشر سنوات.



قالها ثم صمت فزاغت عيناه في الفراغ:

و تلك كانت آخر مرّة أرى فيها ابنتي.

لحظات وأفاق فاستطرد:

هيا أكمل طعامك، أنت لا تعرف متى ستأتي لك مرة أخرى.

مدّ كاي يده والتقم السُّمْكة، اعتاد طعمها ثم استساغها، تابعه العجوز حتى ظن فيه الشبع قبل أن يسأله عمّا أتى به إلى المستنقع.

أثهمت في جرم قتل أنا بريء منه.

كل من ابتلعتهم المستنقعات قالوا ذلك قبل مصرعهم.

أنا لا أكذب، أنا كاهن بمعبد الأسوار السبعة.

ادركت ذلك من إزارك الكتانى، رغم أن صدرك عريض وبنائك عضلية جافة لا توحى بذلك، أنت من تلاميذ مانيتون؟

أطرق كاي برأسه إلى الأرض:

وهو من زُمِيت بقتله؟

في وجوم قام العجوز من مكانه، غرس قدميه اليابستين في طين المستنقع فغمضا عينيه في ألم، ثم تكلم:

لذلك طعنك مُرْدَخَى؟

أترعرفه؟

من في الإسكندرية لا يعرف رئيس قصر الملك، أقصص على ما حدث.

قصّ كاي أحاديثاليومين السابقين، استمع إليه عزيز حتى ساد الظلام وزمجرت الضباب، أردف:



قتل الكاهن الأعظم أمر لا يقدر عليه إلا قلب لا ينبض.

سأعود إلى معبدك، أقصص ما حَدث فأبرئ ساحتني وأحتمي بالأسوار.

أنت ميت لا محالة.

ثم لمس عزيز في وجهه التشبث والعناد فاستطرد:

لتنتظر حتى تندمل جروحك ثم قرر مصيرك.





في الأيام التالية تابع كاي يرقات الذباب تتحرك في جرحه، فرزت هلاماً نرجاً دغدغ الجلد لكنه ساعد على الالتفات، أكل سمكة وأربينا وبومة، ورفض أكل خنزير صاده الطبيب عزيز بفخ، طال شعره ونبت ذقنه لأول مرة منذ عقد، كثيفه تحركت ببطء وكفت معدته عن النبض المؤلم، تولت الشمس تجفيف الخربشات التي تركتها طحالب وأشواك المستنقع على جلده، واستعاد وجهه شيئاً من النضارة بعد شحوب، غسله الطبيب بماء فالح ودهن جلده بزيت استخرجه من لحاء شجرة وقرأ عليه كلمات سارعت في شفائه، ثم بدد نقيق البووم وقباع الخنازير في الليالي المظلمة بحكايات عن الإسكندرية: المدينة التي لم يزورها كاي يوماً، عن زرقة البحر وروعة الفنار، الشوارع المقسمة كرقطة الشطرنج، الرخام الأبيض الذي يكسو المباني والستائر الخضراء الموحدة التي يحركها الهواء، الجمنازيوم الفخم والمكتبة العملاقة وضريح الإسكندر المبهر وكفنه الذهبي، طريق الهيبتاستadiوم الذي يربط الفنار بالثلغر، مكاتب المربين التي تملأ الأسواق ومضمaries الخيـل، عن حـي راقودة المـخصص للجيـبيـبيـن، وعن الثورة التي تضطـرـمـ في الصدور بسبـبـ الضـرـائبـ الـباـهـظـةـ التي يـجـبـيـهاـ يـهـودـ حـيـ «ـدـلـتـاـ»ـ نـيـابةـ عنـ الـمـلـكـ حـكـوـ بـحـمـاسـ تـبـدـلـ أـسـىـ عنـ مـدـيـنـةـ عـاـشـ فـيـهاـ طـفـولـتـهـ ليـغـادـرـهاـ مـجـبـراـ رـغـمـ عـشـقـهـ، وـعـنـ فـلـذـةـ كـيدـ اـنـقـطـعـتـ بـيـنـعـمـاـ الـأـسـبـابـ، تـحـشـرـ صـوـتـهـ شـيـلـاـ فـيـشـيـلـاـ حـتـىـ قـامـ يـرـتـعـشـ، التقطـ منـ الطـيـنـ ضـفـادـعـ وـحـشـرـاتـ وـأـورـاقـ شـجـرـ دـسـهـاـ فـيـ مـلـابـسـهـ، ثـمـ هـدـأـ، خـمـدـ، كـنـارـ اـخـتنـقـتـ بـلاـ هـوـاءـ.

بعد أيام لم يُصدقها قرر كاي العودة إلى المعبد، رغم تحذير عزيز الذي يئس من إقناعه بالعدول، لمس العناد فزوده بطعام يكفيه رحلة العودة ويسكين مشحونة تقيه شر الضواري من الإنس والحيوان، ووصية أعلاها إليه حالة العدول



عن وجهته.

خرج كاي من المستنقع إلى الخلاء متخدلاً طريقة نحو سمنود، متذرراً بثوب من الخيش وممسكاً بعصا كانت جذعاً حففت عنه وطأة خطواته على الجروح. لما بلغ بلدته تحاشى الناس حتى وصل بيته، كمم فم أنه حتى لا تصرخ انفعالاً فيكت في صدره ثم حكت عن زيارة نائب الكاهن ورئيس الشرطة إلى بيتها وإجبارها على الكتمان، حذره من الظهور فوعدها أن يبرئ ساحتة واسم أبيه، قبل أن يقبل يدها ويرحل.

لما حادى كاي سور المعبد، غطى رأسه وطاطأه ثم دلف من البوابة الكبيرة، وقف في طابور زوار يحملون بين أيديهم الإوز والببا وذيرات مما تنبت الأرض، يقدمونها للكهنة القائمين على المذبح قرباناً وعرفاناً، يرفعونها فوق المذبح ويترملون الصلوات ثم توضع فوق مائدة الرب عطيّة للفقراء والكهنة.

تحرك الطابور ببطء حتى لمح كاي نائب الكاهن يخرج من باب قدس الأقداس ويجهو في تضرع أمام متون القدرة الإلهية بالجدار الشرقي، لم يعرفه زملاؤه من الكهنة حين خرج عن الطابور متوجهًا للكاهن، جلس على ركبتيه في دشوش ثم همس:

مثلت أمامك أيها الواحد العظيم بعد أن ظهرت نفسى، أنا كاهن هذا المعبد وخادمه، وكل ما أحمل من شر ألقى به إلى الأرض.

التفت نائب الكاهن فاضطررت أطرافه، همس كاي:

سيدي، لا تفرز، أنا كاي.

قام الكاهن من رکوعه والروع في ملامحه حين أردف كاي:

لقد حاول رئيس القصر قتلي، القاني في المستنقع بعد طعني، بقيت هناك حتى التحمت جروحي فرجعت.

ابتعد الكاهن خطوتين وعيناه لا تفارقان كاي الذي قام مستندًا إلى عصاته:

لقد اتهمني رئيس القصر بقتل الكاهن الأعظم، وأنت تعلم يا سيدي أنني ما كنت لأجرؤ على النظر فيه، عينيه.



بَتَرْ كَايْ كَلامِه لَمَّا اصْطَدَمْ ظَاهِرُ الْكَاهِنْ بِالْجَدَارِ، اسْتَشَعَرُ الْكَاهِنْ أَمْرًا مَرِيبًا فَاقْتَرَبُوا يَتَأْمِلُونَ الزَّائِرَ الْغَرِيبَ:

أَرِي الْاقْتِنَاعَ فِي قَلْبِكَ يَا سَيِّدِي!

نَظَرَ نَائِبُ الْكَاهِنِ فِي عَيْنَيْ كَايِ لِلْحَظَاتِ ثُمَّ صَاحَ فِي الْكَاهِنَةِ:

هَا هُوَ قَاتِلُ مَعْلَمَكُمْ، هَا هُوَ الْمَلْعُونُ.

بَوَغَتْ كَايِ حِينَ تَكَثَّلَ الْكَاهِنَةُ فِي دَائِرَةِ حَوْلَهِ، كَشَفَ غُطَاءَ رَاسِهِ فَعَلَّتِ الْهَمَمَاتُ، أَذْهَلَتْهُمْ هَيَّنَتِهِ الْمَزَرِيَّةُ وَالشَّعْرُ  
النَّابِتُ عَلَى رَاسِهِ، أَرْدَفَ كَايِ:

بِحَقِّ مَنْ يَرْعَانَا فِي سَمَائِهِ لَمْ تَمْسِ يَدَاهِي مَعْلَمَنَا بِسَوْءَ.

صَرَخَ الْكَاهِنُ:

لَا تَذَكُّرُ الرَّبِّ فِي فَمِكَ فَأَلْتَ لَعْنَةَ تَمْشِي عَلَى سَاقَيْنِي، لَقَدْ أَرْسَلَ رَئِيسَ الْقَصْرِ بَرِدِيَّةً بِخَبْرِ هَرِبَكَ لَمَّا اكْتَشَفَ أَمْرَكَ.

أَنَا لَمْ أَهْرُبُ.

قَالَ كَاهِنُ:

كُنْتَ نَظِنُّكَ أَخَا لَنَا.

وَقَالَ آخَرُ:

كَيْفَ جَرَؤُتَ أَنْ تَعُودَ بِقَدْمِيكَ إِلَى هَنَا؟

صَرَخَ نَائِبُ الْكَاهِنِ:

لَمْ تَطْوَعْتَ لِدُخُولِ قَدْسِ الْأَقْدَاسِ وَهَذَا؟ وَلَمْ مَحْوَتْ اسْمَكَ الْمَكْتُوبَ بِالدَّمِ؟

الْكَاهِنُ لَمْ يَكْتُبْ اسْمِي.



كاذب، أمسكوا به.

صَاحَ بِهَا الْكَاهِنُ فَرَمَقَ كَائِي وَجْهَهُ زَمَانَهُ تَنَوَّعَدُ. أَحاطُوا بِهِ كَلْبٌ تَسْلُلٌ إِلَى مِحْرَابٍ فَوْجَبَ قَتْلَهُ.

مَاًذَا أَنْتُمْ فَاعْلُونَ!

جَزَعَ فَرَجَعَ لِلْوَرَاءِ حَطَّوَاتٍ. نَادَى الْمُقْرِبِينَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّاْ فِي الْأَعْيُنِ عَمْيٌ وَعَلَى الْقُلُوبِ أَقْفَالٌ، نَسَوا يَوْمَ استقبلهم ولقائهم المبادئ عن رب في السماوات العلى. نسوا يوم غسل رءوسهم في البحيرة المقدسة خلف المعبد وردد أسفار التطهير. ويوم حرق البخور من أجل أرواحهم في صلوات الرحمة.

فجأة اقترب منه كاهن كان يوماً أقرب الأصدقاء. ناداه كاي باسمه استعطافاً وتذكيراً فهو على وجهه بعضاً شجت خده. لم يسع كاي سوى استلال سكين عزيز المخفي تحت لباسه. رجع الكهنة خطوة فصاحت «منري» الذي تقهره خلفه:

أرأيتم، ها هي روح «سيت» تتجسد أمامكم في جسد صاحبكم، يرفع سكين الغدر في المعبد. ويتسلل لموضع فعلته كضيع خسيس يكمل جريمته.

أنتم فضللون، أنصتوا إلى عقولكم.

صَاحَ كَائِي فَلَمَسَ آذَانَهُ مَسْدُودَةً. لَوْحٌ بِسَكِينِهِ فِي الْوَجْهِ قَبْلَ أَنْ يَرْكِضَ قَدْرَ طَاقَتِهِ تَحْوِي قَدْسَ الْأَقْدَاسِ. رَكضُوا خلفه فطوح سكينه فيهم مبطنًا تقدمهم. دفع الباب بقبضته ودخل فأغلق الملاج. تكفل الكهنة خلف الباب ثم ساد صمت يعرفه جيداً. صمت انتظار الإذن. رجع بظهره حتى تمثال إدريس الكبير. لمس حجره في دشوش حين التقط صوت الكاهن من الخارج

اكسرموا الباب، مأذون لكم دخول قدس الأقداس.

التقط كاي الكلمة قبل أن يسمع أول ضربة على الباب. لم يكن الملاج ليتحمل عشرين كتفاً. توقف عقل كاي عن التفكير واستشعر ناراً تسري في كتفه. انفتح الجرح ونضج دمها. نظر لوجه إدريس يسأل: أ تكون ميتتي بين قدميك



كما قُتل الكاهن الأعظم؟ ثم نظر لفتحة السقف التي عبر منها ضياء الراعي فابتلعه أن تضيء الحقيقة وجده أمام الناس في اللحظة التي تشقيق فيها مزلاج الباب وتخلخلت دعامتها، أغمس كاي عينيه واستغفر، ثم تسلق في سرعة التمثال الكبير، لوث بالعرق والدم أحجاره واستمسك بالتاح حين أوشك على السقوط، نظر في عيني إدريس الحجريتين للحظة قطعها صرخ مصراعي الباب يندزان بانهيار تحت وطأة الضربات، الصريخات ازدادت حدةً وتوحشًا، وقف كاي بقدميه على كتفي إدريس، خرقت الأيدي من فرجة الباب تطلب طرف المزلاج، وعنق المارق لتدفقه، تحامل كاي على عضلات بطنه فنزف جرحه على كتف إدريس، قفز ليطول فتحة السقف فصرخ ألمًا قبل أن تقبض أصابعه على الأطراف، في اللحظة التي طال أحدهم فيها المزلاج، أراحه فانفتح الباب بعنة ليسقط الكهنة فوق بعضهم متدافعين، كان ذلك حين اعتلى كاي سطح قدس الأقداس، نظر يمينه ويساره قبل أن يلحظ حبلًا مشبوكاً بخطاف يتدلّى إلى السور وراء قدس الأقداس، وأثار كف مداماه، رمّقها لثوانٍ كانت كافية ليميز أصابع غليظة قصيرة تشير لأصل بدوي، أصحابها شديد البأس غليظ الملامح، تسلل من فتحة السقف هرباً بعدما ترك باب الهيكل موارباً ليوحى بأن القاتل من أبناء المعبد.

تزاحمت الاستنتاجات في رأسه قبل أن يركض بكل ما أوتي من قوة ليقفز في مياه البحيرة المقدسة، في اللحظة التي أشار أحد الكهنة إلى الدماء التي لطخت تمثال إدريس وتركت البصمات قرب فتحة السقف، انتشروا حول ضفاف البحيرة، وهناك، لم يجدوا لكاي أثراً.



♀

♀

♀

بعد خمسة أيام.

قاعة الباليسترا، الجمنازيوم الملكي، الإسكندرية.

رغم حرارة الجو لم يرفع نائب الكاهن فرو الفهد عن كتفه. جلس ساكناً يتعرّق فوق أريكة تطل على ساحة المصارعة، يتأنّف فصارعين عاريين وسط دائرة من المشجعين. أحدهما أورجيبيس ابن الملك والأخر شاب مفتول في نفس سنّه، شبّها الأيدي وضغطها الأكتاف بقبضات صلبة وعضلات متحفّزة. الضربات أدمنت أنف ابن الملك قبل أن يظفر بورك الشاب في حركة مفاجئة ليرفعه عن الأرض فيختل توازنه ليهوي فوقه مجهاً. ضرب المعلم ذو الرداء القاني عصاه على الأرض فانفك الاشتباك ليقوما ويتصلحا. مردحٌ كان يتبع المبارزة عن قرب، دنا من الحلبة فأفسح المتابعون المجال، ربت على كتف الملك الصغير وهمس في أذنه بكلمات ضحك على أثرها قبل أن ينتبه لنائب الكاهن فاستاذنه أن يكمل المصارعة وصعد الدرجات:

هل استمتعت بالمصارعة؟

سأل مردحٌ نائب الكاهن.

. عيناي لا تهوى ان الدماء.



جلس فرداً

إذا اختبرت شعور الوقوف عارياً أمام خصم ستغيّر رأيك، لا يشعرك جلد الفهد بالحرارة؟

الحفظ على مظهر الكاهن له أعباء.

ابتسم فرداً للفتى الذي يصارع الملك الصغير ورفع يده بتحية تشجيع قبل بدء جولة جديدة، ثم التفت إلى ضيفه

هامساً:

أرى في وجهك مزاجاً مضطرباً.

جئت بخبر فزعج، الكاهن، زار المعبد أول أمس.

اعتدل رئيس القصر في جلسته،

أعد ما قلته.

حكي له نائب الكاهن ما كان من أمر كاهي وظهوره الجريء في المعبد. أنصت فرداً دون مقاطعة حتى انتهى:

لم لم تبعث بالحمام الراجل؟

خشيت أن تقع الرسالة في يد العامة فيظنوا بالكهنة الظنون.

هل اقتفيتم خطواته؟

الفتى يملك من العلم ما لا يملكه الكهنة، اختفت خطواته عند البحيرة.

هل له عائلة؟

قال أهل بيته والجيران إنه لم يظهر منذ الحادث.

رفع فرداً عينيه إلى القبة الزجاجية الملوّنة فوق القاعة ثم زفر بصوت مسموع:



. أعتقد أن الفتى ينوي انتقاماً، منك.

اضطربت ملامح الكاهن:

. لا أظن أن كاي مصدر تهديد. فتيان المعبد ينشئون على الخضوع والطاعة.

. ألم تكن من فتيان المعبد يوماً يا نائب الكاهن؟

. كنت... حتى عاند مانيتون الآلهة.

. سأرسِل مَعَكَ حارسَا شخصياً، حتى إذا عاد الكاهن قتله.

هذا القلق في عيني الكاهن فهمّسْ فرداً:

. لقد أقنعت الملك برسِمِكَ كاهناً أكبر بعُدَّ أن نواري جسد مانيتون. لا تنشر الخبر حتى لا تحدث جلبة. دعُنا نخلق أبواباً تأتيها بريح مغبرة.

. هذا كرم بالغ.

استطرد فرداً:

. هناك أمر آخر، لقد أسرَّ لي الملك أن متون الجيتانا ناقصة. هل كان كاي هو الوحيد القائم على كتابتها أم أن هناك من ساعدَه؟

. لم يكن مانيتون ليأمن إلا للكاي.

. البرديات مبتورة، ينقصها سفر أشار إليه مانيتون وسط الأسفار، ربما أحفاه في خبيثة خارج المعبد؟

. كاي لم يخرج من المعبد منذ بدأ الكاهن الأعظم إملاءه المتنون. إن كان هناك أسفار ناقصة فيما هي بحوزتك أو كتبها مانيتون بنفسه ولم يطلع عليها أحداً. لقد فتشنا غرفته وحجارات المعبد ولم نعثر على أي برديات.



شردت عيناً مُرْدَحَاي في تفكير قطعه نائب الكاهن:

. جَلَّ ما أَخْشَاهُ أَنْ يَنْتَشِرَ الْخَبَرُ فِي هَذِهِ إِيمَانِ النَّاسِ بِكَاهِنَةِ الْمَعْبُودِ.

. إِنَّ الشَّعْبَ لَا يَصِدِّقُ، وَإِذَا صَدِقَ فَإِنَّهُ يَنْسَى، مُثْلِ طَفْلٍ يَبْكِي بِحَرْقَةٍ وَيَصْرَخُ، ثُمَّ يَضْحَكُ بَعْدَ لَحْظَةٍ، كَأَنْ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ.

. لَكِنْ، إِذَا اتَّضَحَ أَنَّ الْمَتَوْنَ الْمَفْقُودَةَ فِي سَمْنَوْدَ فَسِيَكُونُ غَضَبُ الْمَلِكِ غَيْرَ مُحَمَّدٍ، عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَسْرِهَا.

. بِالِّي لَنْ يَهُدَّأْ حَتَّى أَجْدَهَا.

. كَمْ تَبْلُغُ مَسَاحَةُ الْأَرَاضِيِّ الْمَمْلُوكَةِ لِلْمَعْبُودِ الْآنَ؟

. ضَرَبَ الْقَلْقَ مَلَائِحَ الْكَاهِنِ ثَانِيَةً، فَاقْتَطَاعَ أَرَاضِيَ الْمَعْبُودِ أَمْرٌ يَنْتَهِجُهُ الْمَلِكُ تَحْجِيمًا لِسُطُوهَةِ الْكَاهِنَةِ فِي نَفْوسِ الْعَامَةِ،

. حَوَالِيْ فَانَةٍ وَعِشْرِينَ أَرْوَاهَا مِنَ الْأَرَاضِيِّ.

. يَا لَهَا مِنْ مَسَاحَاتٍ، أَجْمِيعُهَا مَزْرُوعَةٌ؟

. أَجَابَ الْكَاهِنُ فِي وَجْهِهِ:

. مَعْظُمُهَا.

. قَامَ مُرْدَحَايَ مُنْهِيَا الْمَقَابِلَةَ،

. قَبْلَ أَنْ أَنْسَى، لَقِدْ ذَكَرْتَ أَثْنَاءَ حَدِيثِكَ فَقْدَانَ تَالِنْتَ وَنَصْفَ مِنَ الْذَّهَبِ مِنْ خَبِيْثَةِ الْهَيْكِلِ، أَثْقَ أَنْكَ لَنْ تَنْسَاهَا حِينَ

. تَزُورُ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ فِي الْمَرْأَةِ الْقَادِمَةِ، عَوْدَةٌ سَالِمَةٌ لِسَمْنَوْدَ، سَنَلْتَقِي بَعْدَ دُورَتِيِّ قَمَرٍ، يَوْمَ الْجَنَازَةِ.

. رَحِلَّ نَائِبُ الْكَاهِنِ وَفِي صَدْرِهِ خَوْفٌ يَخْمِشُ صَدْرَهُ غَطَّاهُ فَرُوْ فَهَدُ، وَوَعْدٌ، خَوْفٌ مِنْ غَدَرِ رَئِيسِ الْقَصْرِ إِذَا أَوْعَزَ إِلَى الْمَلِكِ

. اقْتَطَاعُ أَرَاضِيِّ مُمْتَلَكَاتِ الْمَعْبُودِ، ذَلِكَ السُّوتُ الْمُسْلَطُ عَلَى رَقَابِ الْكَاهِنَةِ مِنْذَ رَسَتْ مَرَاكِبُ الْإِغْرِيقِ عَلَى شَوَاطِئِ

. الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَأَدْرَكَ الإِسْكَنْدَرَ يَوْمَهَا أَنَّ شَعْبَ الْجَيْبَتَيْنِ هُمْ أَكْثَرُ شَعُوبِ الْأَرْضِ تَوْقِيرًا لِلَّدِينِ، أَمَّا الْوَعْدُ فَلَقْبُ طَالِ

. انتِظَارِهِ، «الْكَاهِنُ الْأَعْظَمُ»، مَكَانَةُ مَا كَانَ لِيَتَمَنَّى نِيلُهَا بِتَسْلِيمِ رَقْبَةِ مَعْلِمَهُ، لَكِنْ، الْعَقْدُ السَّابِعُ أَوْشَكَ عَلَى الْانْقِضَاءِ،



ومقبرته انتهى نقشها ورسمها واستقر التابوت المزين فيها. إنها سنة الحياة القاسية، حين تتأثر الطبيعة، على الإنسان أن يتحرك، أما أكبر المخاوف فكان وقع الخبر في نفوس العامة إذا علموا أن خادماً للرب قتل معلمه. سيهتز الإيمان وي فقد زعي الكهانة هيبيته فتشن الذور وتتقوض أركان المعبد. ارتعد من الفكرة لكنه ردد في نفسه: «إن الشعب لا يصدق، وإذا صدق فإنه ينسى، مثل طفل يبكي بحرقة ويصرخ، ثم يضحك بعد لحظة، لأن شيئاً لم يكن».

أما مُرَدْخَاي فنزل الدرجات وأشار لحارسه الذي قدف حربته منذ أيام في صدر كاهي، اقترب وانحنى بالقرب من فم سيده:

. فقدت القدرة على التصويب أم ضعفت ذراعك؟

. ماذا حدث يا سيد؟

. فأر المستنقع هي يمشي على قدمين، عاد إلى المعبد وهدد الكهنة.

اضطربت معالم الحارس،

. لكن الضربة كانت...

قاطعه مُرَدْخَاي،

. ليس الآن وقت حساب، أرسل مع الكاهن من يقوم على حراسته، لا أريد أن يطوله انتقام، وأرسل إلى رئيس الشرطة بأوصاف الكاهن الذي أفلت من حربتك الخائبة. ليطلق عيونه في كل مكان حتى يأتينا بخبر عنه.

انسحب الحارس ليتابع مُرَدْخَاي الأمير والفتى الذي يصارعه.





المدخل الجنوبي للإسكندرية.

ضَرَبَ يُودُ الْبَحْرُ أَلْوَافَ الْقَادِمِينَ تجاه بُوَابَةِ الْمَدِينَةِ، فَزَارِعِينَ يَسْوَقُونَ حَمِيرًا وَبِغَاوَاتٍ تَحْمِلُ الْغَلَاتِ، عَمَّالُ الصِّيَانَةِ وَبَحَارَةُ السَّفَنِ، وَوَافِدِينَ جَدِيدًا يَحْلِمُونَ بِمَكَانٍ فِي جَنَّةِ الإِسْكَنْدَرِ تَحْتَ رِعَايَةِ الرَّبِّ الْإِغْرِيقِيِّ، أَمَّا الْمَيْسُورُونَ فَيَرْكِبُونَ عَرَبَاتٍ مَرِيَّةٍ تَجْرِهَا الأَحْصَنَةُ فِي طَابُورٍ طَوِيلٍ يَضْبِقُ بِهِمْ عَنْقَ الْبُوَابَةِ، يَمْرُونَ أَمَامَ أَعْيُنِ الْحَرَاسِ وَعَصِيَّهُمُ التِّي يَخْرُزُونَ بِهَا الْبَضَائِعَ الْمَرِبُوطَةَ فَوقَ الدَّوَابِ كَيْ لَا يَخْتَرِقَ الْمَدِينَةُ غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيهِ، ثُمَّ تَقْدُرُ الضَّرِبَةُ عَلَى أَصْحَابِ الْغَلَاتِ بِخَسْبِ نَوْعِهَا وَوَزْنِهَا، وَهُوَيَّةٌ مِنْ سِيَاحِهَا إِلَى «أَجُورَا»: سَوْقِ الْمَدِينَةِ الْمَطْلَلِ عَلَى الْمَرْفَأِ الْغَرَبِيِّ، مَسَاحَةً شَاسِعَةً مِنَ الْأَرْضِ تَفْصِلُ حَيَّ راقِودَةِ الْخَاصِ بِالْجَيْبِتَيْنِ عَنِ الْبَحْرِ، يَحْرِي فِيهِ الشَّيَالُونُ كَالْفَتَرَانِ بَيْنَ النَّاسِ، يَرْفَعُونَ السَّلْعَ إِلَى بَطْوَنَ السَّفَنِ الْمَغَادِرَةِ إِلَى الْبَحْرِ، وَيَنْقُلُونَهَا بَيْنَ الْبَاعَةِ الَّذِينَ يَرْصُونَهَا فِي تَشْكِيلٍ فَبَهْرٍ لِلْأَعْيُنِ.

عِنْدَ الْبُوَابَةِ اقْتَرَبَ رَجُلٌ غَطَّى وَجْهَهُ بِقَمَاشَةٍ، أَوْقَفَهُ الْحَارِسُ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِهِ:

مَنْ أَنْتَ؟

أَجَابَ دُونَ أَنْ يَرْفَعَ الْقَمَاشَةَ عَنْ وَجْهِهِ:

. مِنْنَا بَانِيَاسُ، شَارِعُ الْسْتَادِيوُمِ الْمَنْزَلِ التَّاسِعِ، راقِودَةِ .



نظر الرجل في سجل معلق بجانب البوابة، مشت عيناه في سرعة بين السطور والأرقام حتى عثرت على رقم تسعة، تأكد أن شخصاً بنفس الاسم يعيش في نفس المنزل ثم سأله:

. اذكر اسم جار لك في البيت.

أجابه الرجل:

. طبيب يدعى عزيز.

راجع حارس البوابة البردية حتى عثر على اسم الجار فأشار للرجل بالمرور قبل أن يستوقفه:

. لم تخطي وجهك؟

كشف كاي القماشة عن وجهه فظهر شج عميق في الخد:

. قاطع طريق حاول سرقتي.

تركه الحارس يمر فخطي وجهه ثم ذاب في الزحام، كلما توغل في المدينة ارتفع إيقاع الطبول وصخب الناس، اليوم كان عيد «باست» قطة مدينة «بوباستيس» الشهيرة بالوجه البحري ورمزاها، تقدس عرفاناً بجميلها في بث المرح والأنس في البيوت، ولشراستها في اصطياد الفئران من الصوامع، يمثلونها على هيئة امرأة ممشوقة القوام لها رأس قطة، تمسك في يدها شخصية ذهبية، يضعون تمثالها المزين بالذهب والأحجار على رأس موكب مبهراً يلف الشوارع والناس من ورائه سائرون في جماعات، يحتسون الجمعة في مرح ويرش بعضهم بعضاً بها، واضعين وجه قطة مصبوعاً بالنيلة الزرقاء فوق وجوههم ويهزون الشخاشخ وهم يرقصون.

مشي كاي بينهم يتأمل وجوه قطط على أجسام بشر، تخبطه السكارى ونفخوا المزامير في أذنيه حتى صاحت فيه امرأة منتشرة عارية الصدر: لم لا ترتدي وجه باستت أيها الوسيم؟ قبل أن تلتصق وجه قطة بوجهه وتقبل خده بعنف، صار واحداً من المحتفلين فمشي يلتمس بالسؤال طريقاً إلى منزل طبيب المستنقع عزيز الذي أعطاه عنوان بيته واسم جار يساعدته في المرور من البوابة، وأوصاه أن يأتيه بخبر عن «ناديها»، ابنته التي تركها يوماً لينجو بحياته، في آخر



مكان يختر ببال كاي أن يطرق أبوابه: الإسكندرية.

قبل أيام، وحين عبر كاي بحيرة المعبد المقدسة بخد مشقوق من كاهن زميل وجروح تفتقّت، كان يدرك أن رئيس القصر لن يخفى عليه أمر بقائه على قيد الحياة. سينقلب البلاد رأساً على عقب حتى يجده، فنائب الكاهن لن يحتاج نصيحة ليبلغ أمر زيارة القاتل للمعبد، كما كان يدرك أن التمساح الذي يقطن البحيرة لن يطول صبره حتى يظفر به رغم العشرة. خرج من الماء فالصلق سعفتي نخيل بباطن قدميه لإخفاء آثاره عن زملائه السابقين من الكهنة، ثم ركب حتو طوته الأحراش، استقر في ظل شجرة داوي تحتها جرحه بورق الجميز ثم غلبه النعاس للحظات رأى فيها الكاهن الأعظم في قدس الأقداس، أمام تمثال الرسول إدريس، اقترب منه ثم جثا على الأرض:

سيدي، أنت حي.

التفت الكاهن إليه بوجه يملؤه القلق ثم لامس بيده شرداً في قدم التمثال:

انظرا إن تمثال الرسول يتشقّق.

نظر كاي للشريح الذي يتسع فارداً:

سيدي، ابتعد، ستتسقط الأحجار.

الوقت ينفد، اذهب إلى الإسكندرية، ستجد هناك ما تصلح به التمثال.

وانتفض كاي فجأة، لمح قوس الشمس ينحدر والطيور في جماعات تحط على الأغصان، التقطرت أذناه أصواتاً تقترب فأدرك أنه متبع من كهنة المعبد، زملاء الأمس، وأعداء اليوم، تسلق شجرة تخفي في أغصانها حتى عبر زملاؤه، قبل أن يتقدّمُوا في خيبة من إدراكه، لبث ليلته بعينين لم ترمضا حتى أدرك أول ضوء فاتخذ طريقه بودي من كلمات معلمه، نحو الإسكندرية.



♀

♀

♀

حين وصل كاي أمام بيت عزيز خلع وجه القطة وطرق الباب، التقط صوت خطوات تقترب قبل أن ينفتح الباب عن عجوز

ضيقـت عينـيها حتى تـراهـ

. من أنت؟

اضطربـت كلمـات كـايـ

. كان هناك طبيب يعيش هنا، يدعى ...

عيـث وجـه المـرأـةـ

. يـدعـى اللـعـينـ، مـاـذا تـريـدـ؟ أـنتـ منـ أـقـرـبـانـهـ؟

تـدارـكـ كـايـ

. بلـ أـقـرـضـتهـ المـالـ يـوـمـاـ وـلـمـ يـرـدـهـ.

اغـرـبـ، لاـ أـمـوـالـ لـكـ عـنـديـ، هـذـاـ اللـعـينـ قـتـلـ زـوـجـيـ مـنـ أـجـلـ دـيـنـهـ.

أغلـقـتـ المـرأـةـ بـابـهاـ فـأـعـاقـهـ كـايـ بـقـدـمـهـ، نـظـرـتـ إـلـيـهـ شـذـرـاـ فـاسـتـدـرـكـهـ:



أمهليني يا سيدتي، أليس للرجل أبناء أقتص منهم؟

قالت المرأة بصبر نافذ وعينين لمعتا من الفكرة:

كانت له ابنة، ابحث عنها في حواري إليوسيس.

قالتها وأغلقت الباب في وجهه. تلقت حوله فسالاً عابراً عن حي إليوسيس أين يقع. ابتسם الرجل ثم أشار للشرق:

اعبر الحي الملكي إلى الشرق ثم انحدر جنوباً، لكن افهم، إن ساكنات هذا الحي لا يستيقظن صباحاً.

لم؟

لأنهن العاهرات.

قالها الرجل وابتعد فأسدل كاي القماشة فوق شج حده ثم ابتعد، غرباً.





في الأيام التالية توارى كاي في ظلال المدينة الكبيرة، متربقاً خائفًا وسط أمواج الصخب والجحون، يعيش تحت سيف من القوانين الصارمة، الجيبيتي فيها هو الأقل حظاً، لا مكان لعاطل أو مشاغب في الإسكندرية، لا مكان لغريب ضعيف لا يقدر على الحياة، حتى العميان والخسيان وأصحاب العاهات يعملون، وإلا تتخبطهم المدينة الكبيرة الثائرة وتدير رءوسهم، ثم تلفظهم كما يلفظ البحر جثث الغرقى.

بعد يومين من المبيت على شاطئ البحر تحاشى كاي دلالهما الغرباء وعيون القصر بقلنسوة أخذت نصف ملامحة ويلسان شحيم الكلمات، وجد كاي مأوى للمشردين يقع وسط حواري السوق المزدحم في شمال راقودة، ينطُّ المكان ويشترك في توزيع الطعام، ويتساعد العجائز في قضاء حوائجهم نظير وجبة ومبيت، ثم يقضي ليته فحملها في السماء بحثاً عن طريق الأيام القادمة، الكاهن الأعظم قال له يوماً إن النجوم تحوي الإجابات، كما قال في الرؤية التي أتته حين خرج من البَحْيرَة إنه في الإسكندرية سِيَّجَد ما يصلاح به تمثال الرسول إدريس! لم يكن ذلك كافياً ليهتدى به، وخارج المعبد حياة شائكة لا يقدر عليها كاهن لم يغادر الأسوار منذ وَعَوْ، كمون الجُعران في الرمال انتظاراً لإشارة حياة كان أمراً لا مناص منه، حتى يُضيء راعي السماوات والأرض مساراً يسترشد به، أو يقضي عليه الموت كما قضى على أبيه يوماً، يقاوم يأساً يسحبه إلى بنر مظلمة، كلما أخذته سينة من النوم شاهد الرسول إدريس يرمقه في صمت، عيناه الصامتتان تستغيثان وشفتها تنفتحان ببطء كأنه ينوي قول شيء، لا يخرج صوته، ثم يرى نقوش الحوائط تتبدل وأعمدة المعبد تتداعى، ويبدأ تمتد لتجز عنق الكاهن بسُكُّين!



ترتعد أطراف كاي فيبكي وهو يرثل متن الرّحمات فتهدا هواجسه ويصبغه الصبر، ثم يذكر أباه حين كان يهبي روحه وجسده قبل اقتقاء آثار المُجرمين. يجثو على الرمال ويغمض عينيه، يفرغ الأفكار من رأسه حتى يستمع لأنفاسه فقط، يتلاشى العالم من حوله إلى ظلام قبل أن يرى بقعة نور تكبر وتكبر، حتى تخمر كيانه، ثم تظهر فكرة واحدة، تكون هي بداية الطريق.

أو ربما رقم؟

.٥٨٤

تنبهت حواس كاي دفعة واحدة كأنما لسعته نحلة، كيف نسي الرقم الدموي في جضم العرب من الموت؟

ما الذي قد يكتبه كاهن تخطئ العقد الثامن من العمر والدم ينزف من رقبته؟

إن لم يضيئ لحظاته الأخيرة في كتابة اسم القاتل فما كتبه هو أقيم من حياته.

أفكاره؟ بردياته؟

لكن أي برديات يقصد وكلها منسوبة ومتحدة؟

سفر لم يملئ على أحد؟

بردية لم تظهر للنور بعد؟

?٥٨٤ برقم

«الوقت ينفد، اذهب إلى الإسكندرية، ستجد هناك ما تصلح به التمثال».

انتفض كاي قائماً، سأل زميلاً في الملجأ عن المكتبة الكبيرة فأرشده، سار في شوارع المدينة الصاحبة قبل أن يقف مشدوهاً أمام الأبنية البيضاء الهائلة والعمود الضخم الذي يعلوه تمثال ليطلميروس الأول مزين بالأحجار، صعد كاي على السلالم اللانهائية حتى قابله حارس سأله عن هويته فأجاب: «محب للقراءة وأبغى الاطلاع». مسح الحارس هيئته



ثم ضيق عينيه: «المكتبة لا تستقبل المشردين». رجاه لا يسرع في الحكم عليه وأسرّ له بأنه حافظ لمتون الأقدمين فأجابه: «لا ينال شرف الدخول إلا عالم أو متبرع بكتاب، هيا ابتعد». رجع كاي خطوات قبل أن يتخذ طريقه مبتعداً، سار محادياً الشاطئ فتأمل مشهدأ لم يعهده. المياه الخضراء وأمواجها تضرب الأحجار بهدير هزّ روحه، توقف شارداً متربساً قبل أن تحدثه نفسه: «أنت لم تنج لتسسلم أو تموت، لقد نجوت لحكمة لا يعلمه إلا راعي السماء، لا تخذل معلمك الأكبر، لا تخذل الرسول».

لا يعرف كم من الوقت مرّ قبل أن ينسحب راجعاً، في طريقه مرّ بالترسانة الحربية ثم الميناء الغربي المزدحم، تأمل حركة الشياليين في الإفراج والتحمبل قبل أن تلتقط عيناه ريانا فوق سفينته، يخرج إضمامة برديات من صندوق كبير ويرص بعضها فوق بعض، لم يتخذ التفكير منه لحظات، نزل دركاً أوصله إلى رصيف السفن، في غفلة من رئيس العمال اندهج في تفريغ جوالات من باطن المركب قبل أن يصعد سلماً أوصله إلى سطح المركب، تصنع الانشغال بتنظيف السطح حتى ابتعد الريان عن البرديات، التقط إضمامة مربوطة بحزام جلدي سميك واتجه للسلم فلمح زي ريان معلق في باب الغرفة، لفه حول إضمامة البرديات وانتعل حذاء ثم قفز السلم، دسَ سرقته في جوال وخرج وسط الشياليين، ابتعد حتى اطمأن فسلت إضمامة البرديات المخفية وادتفى.

في اليوم التالي اتجه كريان سفيننة إلى مكتبة الإسكندرية، التمس باباً وقف عليه حارس غير حارس أمس، وأشار للبرديات قائلاً:

جئت لأسلم هذا الكتاب نيابة عن صاحبه.

نظر الحارس في وجهه ثم أفسح الطريق فعبر كاي البوابة إلى بهو أعمدة مستديرة مليء بالحركة، طلبة يمشون خلف معلميهم وموظفون يشرفون على النظام، اقترب من أحدهم فسأله أين يطلع على الكتب للقراءة فأشار إلى مبني يقع بعد حديقة واسعة، نزل إلى طريق مبلط مشق فيه، كل عشرين ذراعاً يرى معلمًا يجلس على حجر وأمامه عدد من التلاميذ في نصف دائرة يتلقون العلوم المختلفة، قبل أن يمر بأقسام ضخمة تحوي حيوانات وطيوراً لم ير لها مثيلاً في حياته، ثم وصل إلى مبني الكتب، دلف من الباب إلى بهو دائري مرفوع سقفه بأعمدة زينتها تيجان ملونة، يفضي إلى ثمانية قاعات ضخمة، حيث أنها مكسوة بخزانات خشبية تصل للسقف ولكل منها مصraعان، تحوي برديات ملفوفة



ومرْقمة بنظام دقيق، اقترب منه موظف:

أستطيع أن أساعدك.

معي إضمامات برديةات لكتاب أوصى صاحبه بإبداعه رفوف المكتبة.

قالها كاي ووضع البرديات بين يدي الموظف الذي تأمل عنوانها ثم أردف:

سأسجل بياناتها وستعرض على سيد «ديميتریوس فالیروس» أمين المكتبة، إن وافق عليها، ولا أعدك، ستوضع في الرفوف.

لا بأس، أود أن أعرف نظام الاطلاع.

يمكنك طلب اسم كتاب بعينه أو موضوع تبحث فيه فأساعدك.

ماذا إن كنت أملك رقم؟

رقم الرف سيختصر وقتك.

ثلاثمائة وخمسة وسبعون.

التقط الموظف لوحًا ذُوّلت فيه بيانات الرفوف، نظر فيه للحظات ثم رفع رأسه بابتسامة:

اتبعني.

في القاعة الثالثة مُشى الموظف بعينيه على الخزانات المرقمة، حتى وصل أمام واحدة فوقها لوحة نحاسية نقش عليها الرقم، وضع سلماً صغيراً وفحص أرقام البرديات ثم التفت لكاي الذي وقف متربقاً:

هناك من استعار تلك البرديات، دعني أراجع الوادي.

أسرّغت عيناه على الألواح حتى استقرتا:



البرديات التي سألت عنها استعارها رئيس الخاصية الملكية.

انقبض قلب کاں

مُرِدَّهَايِ!

نعم، رجل واسع الاطلاع. للأسف لا أملك ميعاد استرجاع. هل أستطيع مساعدتك بشيء آخر؟

تمالک کا نفسم

أشكرك، سأتجول في الأروقة لعلى أحد ما يفيدني.

هناك قاعات مفروشة بالأبسطة والوسائل الفارسية، ستتجد راحتك هناك.

**سٰيٰدِي، انتظر، ما عنوان البردية التي كانت في الكوٰه؟**

رفع الموظف الواحه قبل أن تحيط

. إضافة بردية كتاب «أبيقور» عن السعادة.

قالها قبل أن تلتقط أذناه جلبة وهممات فاستأنده بابتسامة ودودة ورجل، تطلب الأمر من كاي لحظات ليستوعب المستنقع الذي ظن أنه خرج منه، الطحالب التي التفت حول ساقيه والتمساح الذي فغر فاه واقترب «إن كان معلمي قد ترك خيطاً قبل أن يرحل فقد انقطع، سينزل جسده إلى القبر ومعه سره». وخذلان ساراه في عينيه حين يزور أحلامي، لكن! أبيقورا! لماذا كتب المعلم إشارة لبرديات أبيقور عن السعادة لحظة خروج روحه؟ ولماذا يخفيها؟ أكان يعني ما كتب؟ سكرات الموت أذهبت عقله أم أن الظلام أعمانى فلم أقرأ جيداً؟ أم أن الأرقام...؟

فكتوبه كما نكتب أرقامنا نحن الحبيتين، لا بطريقة الاغريق، من اليمين لليسار.



رفع كاي عينيه للوحة نحاسية تعلو باب القاعة، مكتوب فوقها القاعة الثالثة. مر بعينيه على أرقام الخزانات فوجدها تبدأ بتترقيم ثلاثة، علت الجلبة فتحرك مبتعداً إلى القاعة الرابعة ثم دلف إلى الخامسة بعينين تمسحان أرقام الخزانات في الحيطان، حتى وقعت عيناه على خزانة تحمل مقلوب الأرقام: خمسماة وثلاث وسبعون. وضع السلم وصعد، ارتفعت الجلبة مفتربة، فتح مصراعي الخزانة حين التقط وقع أقدامه تركض، ثم سمع صوتاً يصرخ في الدرس: «حاصروه، أريده حياً». سقط قلب كاي بين قدميه، إنه مُرْدَخَاي! التقط إضمامة البرديات قبل أن يدخل حارس من الباب رافعاً خنجراً متحفزاً: «لا تتحرك»، صرخ بها فركض كاي بأقصى سرعته، خرج إلى القاعة السادسة ثم السابعة والحراس يزدادون صرامة وحصاراً. أقيمت عليه الخناجر قبل أن يدخل إلى القاعة الأخيرة ليجد رئيس القصر في انتظاره بين حارسين:

.توقف ولن يمسك سوء.

اندفع الحراس من وراءه محاصرين فلوح كاي بسكينه في توتر:

.لم أقتل الكاهن الأعظم.

.كاي، أنت في الإسكندرية، تحمل سكيناً في وجه رئيس القصر، ساعد نفسك، أعطني البرديات ودعنا نتحدث.

.أي حديث بعد أن طعنوني وألقيتني في مستنقع؟

.نائب الكاهن أكدى ارتكابك الجريمة.

ضرب الذهول وجهه:

.لماذا يفعل ذلك؟

.أعطني البرديات وأعدك أن نذهب إلى المعبد فنعيid البحث عن القاتل الحقيقي.

نظر كاي في عيني مُرْدَخَاي، قرأ الغدر فانطلق فجأة نحو أحد الحراس. تحفز الأخير في رعب قبل أن يحتضنه كاي ليقفز به من نافذة خلفه، سقط فوقه على عشب الحديقة وقفز وراءه الحراس، اقترب مُرْدَخَاي من النافذة بتتابع، تعثر رجاله



في أسلحتهم الثقيلة وكأي أمامهم بجسد خفيف يحتضن إضمامة البرديات ويطلق ساقيه فوق العشب حتى التحم  
بالأشجار فدخلوا خلفه.

كان على مُرَدْخَاي أن ينتظر ساعة قبل أن يعود حارس من الثلاثة ليقص عليه ما جرى ومن ورائه رئيس الشرطة  
ومساعدوه:

انطلقنا وراءه حتى قفز سور المكتبة، اتجه إلى الميناء الغربي ثم جنوباً إلى سوق الأجورا قبل أن يذوب في زحام الباعة،  
لكن أحد المواطنين تعرّفه، قال إنه فَشِرْد يعيش في ملجاً خلف السوق، اتجهنا إلى هناك فأكَدَ المُشرِف أنه يأوي  
شخصاً بتلك الأوصاف منذ أيام، فتشننا الملجاً ولم نجده فتركت زميلي هناك وجئت لأنبيك سيدى.

سحب مُرَدْخَاي نفسها إلى صدره ثم حَكَ ذقنه قبل أن يُومِنَ إلى رئيس الشرطة بإشارة، دُرِجَ وراءه، مشياً في صمت عبر  
القاعات قبل أن يضع مُرَدْخَاي يده على كتفه،

لا أخفيك سراً، لو علم الملك بما حدث فسيكون عَظِيمًا، إن الذي اقتسم المكتبة هو كاهن سمنود الذي ذبح  
الكافن الأعظم،

اضطربت معالم رئيس الشرطة:

ألم يقتله حُرَاسُك في المستنقع؟

كُهنة إيجيبت لهم في السحر باع قديم، يبدو أنه نجا بطريقه ما، لا تنس أنه من تلاميذ ماينتون قبل أن ينقلب عليه،  
كمَا أنه قاصٌ أثر يُجَدِّد إخفاء خطواته،

سأزيد عدد رجالى في الموانئ وعند بوابات المدينة، لن يستطع الخروج براً أو بحراً ولن يطبق الحصار.

أخشى أن يُخْفِيه أهل راقودة بينهم، الجيبتيون شعب يقدس رجال الإله ويجلونهم، سيحييك لهم قصة يبدو فيها  
مظلوماً، وسيُبَهِّرُهم بسحر يتقنونه في المعابد.

أهل راقودة مَنْهَكُون ولا يأملون إلا العيش بعيداً عن أيدينا، ولنا فيهم أعين مستيقظة تتمنم الرضا.



أريده حيًّا، أمَّا البرديات التي بحوزته فالملك حريصٌ عليها أشدُّ الحرص.

كل اليقظة والتدبیر يا سیدی.

قالها رئيس الشرطة ثم انسحب تاركًا فرداً خالياً في القاعة الخامسة أمام خزانة فوقها لوحة نحاسية تحمل رقم مقلوبًا، قرأها من اليمين لليسار، مثل الجيبيتين، بضرورٍ تطحن نفسها، قبل أن ينسحب بغضب.





حين هدأت أنفاسه وعادت ضربات القلب لإيقاعها التقليدي كف عن الالتفات وراءه اتقاء لحرس رئيس القصر، طوى البرديات بحرص ودستها في ردائها مسرعا خطاه دون وجهة يقصدها، هائم على وجهه مضطرب النفس يتلفت ذعرا مع بدأه باع أو طقطقة حوافر ذيل على الأرض، انزوى لساعات لم يحصلها في ظل معبد، تناول سمكة أسكنت معدته ولم يجرؤ على النظر في البرديات من وخذ نظرات الكهنة إليه، رثى متون الاستغاثة بصوت خفيض حتى انحسرت الشمس فاستأنف طريقه شرقا، عبر حي دلتا وتوغل في أرقة إليوسيس، حي محمي بقانون سن لمنع الشباب من إغواء الزوجات المهملات بعدما تفشى حب الغلمان في قلوب الرجال، تتناثر البغایا من كل الألوان فيه، يفترشن عتبات معلقا على أبوابها منحوتات لأعضاء ذكورة مصبوغة بالأحمر، حاسرات الصدور والأوراك يبغين رزقا بنداءات مفعولة تأسر الرجال بسحر حوريات البحر، يطلقون عليهم فتيات «الدكترياديس»: ماجنات مائعات يجذن الرقص المثير والمعاشرة، يخدمن البحارة المقيمين مؤقتا في موانئ المدينة، تعلوهن بدرجة فئة تسمى «الأولترايدس»: عازفات الناي، فتيات رقيقات مغطيات يحضرن الاحتفالات الخاصة عاريات أو متدرثات بالديافانوس الشفاف، يعزفن ويفغين بصوت يسلب العقول ويلهون بالنيران في وجوه الضيوف الذين أثقلهم النبيذ، يتتسابقن على أفضل عجيبة وأجمل استداراة صدر حتى يفقد الحاضرون رزانتهم ويأخذوا في القفز على الأرائك وراءهن كالأطفال، ثم يعقد المزاد، مزاد على أسعار الفتيات في الليلة، أو شرائهن لاتخاذهن محظيات، لسنوات تمتد أو تقصر، حسب قدرة الفتاة على الاحتفاظ برقبة سيدها، بين ساقيهما.



ثم تأتي طبقة «هتيرا»، أو المضيقات، وهنْ غالية تصبو إليها كل فتاة مسحت ببطنها حاتات إليوسيس، نساء على قدر من الذكاء والنفوذ والجمال فيما يعطين الحق في فتح منازل خاصة لعشاق يختارونهن بعينية ليعاشروهن باختيارهن، يهيمنن على المسارح والنوادي الخاصة، ويُدرن سهرات شباب الجمنازيوم وأدباء المكتبة ورجال القصر والحاشية، على رأسهم الملك الذي اتخذ من بينهن «بلسيتيس» محظيته المفضلة.

في أزقة إليوسيس أجواء مسحورة وحكايات لا حدود لشططها، رواج مختلطة وأبدان ملونة تتراحم كمخلوقات المستنقع، مع فارق كبير، إليوسيس أشد خطرًا من المستنقعات.

على قلوب الرجال!

حين انسدل الليل بدأ كاي البحث عن مأوى، غريب يخفى رداوه قلبا منهكا وبرديات ملطخة بدماء كاهن، استدعي ظهره الرث ضحكات النساء والمختنفين، استبعد معبدا يحوم رجال الشرطة من حوله، وملجا مكتظا بأعين لفظته دون حوار، حتى اقترب من ناصية وقفت عليها سيدة لها ثديان كريمان وشعر أحمر هائم، تأملت ظهره فابتسمت بصف ابتسامة ثم حررت لسانها غنجا فاقترب.

هلا تدلينني على مبيت ليلى؟

دعني أذيك مضاجعة لن تنساها.

أبحث عن فتاة بعينها.

أستطيع أن أكون لك ذيرا منها.

لا، أنا...

قطّت شفتيها:

مم، عاشق يعاني حرقة الهوى؟



. بل قريب لها، قادم من سفر.

. ما اسمها؟

. ناديا.

بصقت المرأة شيئاً كانت تمضغه ثم أردقت:

. حواري إليوسيس تشبه فتاهه الحديقة الملكية.

ثم أشارت إلى الوادي المحفور بين ثدييها وابتسمت:

. لكنني أحفظها هنا، ما كنيتها؟ بكل فتاة ترك اسمها على عتبات إليوسيس قبل أن تدخل.

. ناديا، بنت عزيز.

امتعق وجه السيدة وغاب الغنج في صوتها:

. حانة «ليلوس» بجانب الحمام الكبير.

شكراً كاي وابعد حين صاحت مسمعة فالتفت:

. احترس من الكلب أيها الوسيم.

بلغ كاي الحانة فمرّ بين ذيول وحمير مربوطة، دلف مستطلاعاً، شاهد نسوة يرقصن ورجالاً، سقاة يطوفون بكليس

البلح والعنب يسكنون الجنون في الحلوق، وفتيات في ركن يعزن الناي بحرفه تميل الحيطان، اقترب كاي من الساقى

العجز:

. التمس قبيت ليلة أعمل بأجرها، أجيد التنظيف.

نظر إليه الساقى بلا تعbir:



.ليس لديَّ مَكان شاغر، أغسل الكُنوس واقض لي ليلتك على مقعد.

.أتعرف فتاة تدعى ناديا؟ ناديا عزيز.

نظر إليه الساقِي بلا تعبير:

.أنت غريب عن إليوسيس أليس كذلك؟

أجاب كاي بعد تردد:

.نعم.

.هل هي أخت لك؟

.لا، إنها...

قاطعه الساقِي:

.إذن انس أمرها ولا تذكر اسمها هنا. دلو الغسيل وراء براميل النبيذ، نظف الكُنوس واقض لي ليلتك في سلام.

قالها الساقِي وانشغل مع رؤاد الحانة فدَسَّ كَأي البرديات بين براميل النبيذ والجعة والتقط الكُنوس، دَسَّها في الدلو فمستدعيًا لحظات كان يغسل فيها كُنوس وأواني قدس الأقداس في مياه البَحيرة المقدسة خلف المعبد، لا يصدق أن كاهن الأمس يختبئ اليوم في حيّ عاهرات لينجو بفعلة لم يقتربها، احتقن أنفه وتهجدت أنفاسه قبل أن يدخل الحانة شابٌ غَزير الشَّعر قوي البنية مكتحل العينين، يقبض بيده على عنق كلب مولوسي ضخم، حيّا الرجال وتهامست الفتيات، أمر كلبه المُزمبر بالجلوس فخضع في ركن ثم توسط الحانة مستعرضاً قوّة ذراعه في الربت على أكتاف أصدقائه، لحظات وتصاعد صوت الناي، حزينٌ كثواح في بنر، اتسعت الدائرة وسكنت الحركة، أغمض الشاب عينيه تاركًا الموسيقى تناسب إلى رأسه، ثم صاح صيحة كالعواء فلمس الساقِي سؤالاً في قلب كاي، أجابه:

.هذا آرام، تاجر الكلاب المولوسيّة، يقولون إن فراة الفنان ستتسقط في البحر إذا خرجت من إليوسيس فتاة لم يطأها



ذلك الفتى، وهو بالمناسبة عشيق ناديا.

النفت كاي للفتى الذي صاح نشوة ثم رجع للساقى:

عشيقها؟ أهي عاهرة من عاهرات إليوسيس؟

ـ بل عازفة ناي، وراقصة، وطأت أرض إليوسيس صغيرة وتنقلت بين عشيقين أنضجا ثمرها، ثم شاهدها آرام ترقص، وله بها وذهب عقله، اشتراها من سيدة يهودية باعتها لتسديد دين عليها، باع نصف كلابه ومقتبرته حتى يظفر بها، مزق من أجلها رجالاً وخاض معارك حتى خلصت له وعرف سكان إليوسيس أنها بصفة الآخر.

ابتلع كاي ريقه وهو يتبعه ثم سأله:

ـ وأين هي، ناديا؟

ـ ها هي، تعزف الناي.

نظر كاي إلى حيث أومأ الساقى فرأها، تجلس إلى كرسى قصير في رداء عسلى شفاف كشف عن فخذين قويتين، لم يتبيّن ملامحها المخفية بين الخصلات المموجة الثائرة حول رأسها، خصلات تخيف الليل من سوادها، وضع الكثوس المتسبخة ومسح يديه المبللتين في طرف ردائها واقترب، تابع أصابعها المتممة تترافق على فتحات الناي، تصدر نغمة ساحرة تتوجّل في الروح، على ضوء السراج المرتعش تمثّلت عيناه على جلدتها الخمري وزغب الذهب الذي يجري عليه، اقترب خطوات حتى وضحت ملامحها، فم واسع يفتر عن أسنان بيضاء، وشiquان غائران في وجنتين عاليتين أضفيما عليها سحراً لم يخف شجاناً، رموشها طويلة ظللت رواد الحانة، وعيناها شديدة السوداد، التقت بعينيه للحظة أرجعته للوراء خطوة فاصطدم بالساقى:

ـ إن لم تكون لك بها حاجة فابتعد، فعاشقها كلب لا يستأنس.

ـ ثم قامت ناديا، رفعت ذراعيها وضمت أناملها الرقيقة وبدأت ترقص، وقف كاي على أطراف أصابعه ليتابعها من بين الرؤوس، أغمضت عينيها وضمت شفتين تنزه من شفهما، رفعت ساقيها المتناسقتين، نضح منها عرق زادها لمعة،



تهافت شعرها في توحش حولها، تمايلت حتى دارت رءوس الحاضرين في نشوة، رقصت على قلوبهم وصدورهم قبل أن تنتهي وقد قتلت العشرات. جاهد كاي في إغلاق فمه وتصارعت الحناجر في الثناء عليها والعيون في نعشها، ثم اقترب آرام، التقط يدها فقبلها ثم اتخاذ ركناً فأجلسها على ساقيه رامقاً البحارة بنظرة أرجعتهم إلى كراسיהם، طلب كأس نبيذ وداعب عنق كلبه. تابع كاي «ناديا» تلتفت أنفاسهما، ترخي ذراعيها بجانبها وشعرها فوق وجهها، مسح العشيق عرقها ولعقه، ابتسمت فقبل كتفها، انتظر كاي حتى هدأت أنفاسهما فاقترب بابتسمة ودودة كان يستقبل بها زوار المعبد يوماً:

. أحمل رسالة.

رمقه آرام بلا تعبير:

. رسالة؟ ممن؟

. رسالة للسيدة.

رفعت ناديا عينيها إليه في فضول، فيما احتقن وجه آرام فازاح ناديا من فوق ساقيه برفق وقام مقترناً من كاي.

. رسالة للسيدة هي رسالة لي.

اضطربت ملامح كاي:

. من الأفضل أن نتحدث بعيداً عن الأعين.



♀

♀

♀

خارج الحانة كان الليل قد تمكّن، حمل الهواء أصوات الموسيقى من كل اتجاه وتناثرت العاهرات بين المارة ينافسون باعة السمك والحلوى الجائلين في ترويج بضاعتهن. خرج كاي بشعر متلبّد وقلب غائر في صدره، زعج الكلب فرّجع خطوتين وشدّ آرام قبضته على جنزير العنق، أما ناديا فوقفت دلف عاشقها الذي مسح كاي بعينيه:

. هيّا، تحديّ.

. أحمل رسالة من والد ناديا.

حقق قلب ناديا:

. ماذا تقول؟

. قابلت أباك، الطبيب عزيز، أرادك أن تعرّفي أنه على قيد الحياة.

: زعج آرام

. لتشهد معي أنا، أين وجدته؟

يعيش في المستنقعات.



ذهلت ناديا:

. يا إلهي.

. ويطلب منك أن تنهيني للقائه، خارج الإسكندرية.

قبض آرام على تلابيب كاي:

. لولا هيأتك الرثة لتركت كلبي سيربروس ينهشك، أي تخاريف تحكي أيها الأبرص؟

أمسكت ناديا برسغ آرام تستمهله:

. انتظر، ثم نظرت لكاي.

. صف وجه أبي.

. تحيل، له لونك، حكى لي عن عشقك للرقص فند وكت وعزف الناي، وعن فرض شديد ألم بك وكاد يهلكك وأنت صغيرة، وعن والدتك التي هجرت البيت وراء رجل آخر.

التفتت ناديا إلى آرام:

. إنه يتحدث عن أبي.

أفلت كاي بعد لحظات طالت والتفت لناديا:

. أبوك القاتل؟ أبوك الذي ترك صغيرة حتى باعتك امرأة المزابي لتسديد ديونه؟

ترقرقت عينا ناديا بهدوء فأكملا:

. تخليه عنك بعد أمك العاهرة اضطرك إلى فتح ساقيك.

ساد الصمت فتابع كاي ناديا التي تحجر وجهها، شحصت في نقطة بعيدة خلف كتفه والدفع الساخن ينساب فوق



خديها العاليين، تحدث كاي بصوت خفيض:

إن أباك يتألم في مكان يعج بالتماسيح، أيامه الباقية قليلة، ولقاوئك هو كل ما تبقى له منأمل.

التفت إليه آرام:

قد أبلغت رسالتك أيها الأشعث، الآن اغرب عن وجهنا.

انسحب كاي في هدوء، بصرته ناديا حتى دخل الحانة قبل أن يسحبها آرام مع كلبه ويبعدا.



♀

♀

♀

نفس الليلة.

حي دلنا، الإسكندرية.

رائحة لحم العنزة ملأت هواء الباحة الخلفية للبيت الكبير، محملة بنكهات الفلفل والثوم وقطع البندورة المقشّرة، أشعّل شاءول شمعدانًا فوق المائدة ثم رص الأطباق حين التقطت أذناه طرقًا بالباب، هش الأفراح والماعز بعضًا ثم اقترب وفتح ثلمة تعرّف منها وجهًا مالوفًا ففتح:

سيدي.

دلل مُرداً ياضعاً يديه خلف ظهره مبتسمًا في ود:

كيف حال مصارع الأمير؟

حرير على ما علمتني، النهايات السعيدة لصالحه مهما بلغت قسوة القتال.

هذا هو تلميذِي، أين جدتك؟

لديها مريض، سأخبرها بحضورك.



دخل الشاب من الباب فدلل فرداخاً وراءه، يتأمل البيت الذي قضى الطفولة بين أركانه، والجدارية التي طالما أجبرته على الوقوف أمامها لساعات، جدارية مرسوم فيها سفينه خشبية ضخمة تمخر وسط الأمواج العاتية. على جوانبها فتحات خرجت منها رؤوس حيوانات مختلفة، وعلى متنها وقف النبي «نوح» بلحية بيضاء طويلة، رافعاً يديه للسماء تضرعاً والمطر ينهر، لم ينس يوماً تعبير الوجه المرسوم، قم مفتوح على صرحة خوف وأمل، دائمًا ما تسأله عن المغزى من الحدث الجليل، أن يُعرق الرب الأرض بمن فيها حتى يقضي على حفنة من البشر ودائماً كان يتلقى نفس الجواب من سيدة الدار: «حين غضب الرب على عوام الخلق بسبب أفعالهم، قرر أن يغتصبهم كي تتطهّر الأرض وتنهي استقبال نسل من أبناء المقربين، نسل سيقود البشرية ويتمكن فيها». فكان سام بن نوح ومن بعده إبراهيم وإسحاق، ثم يعقوب الذي لقب بإسرائيل، لترضخ الأمم لهم وتذعن». طالما كان هذا الجواب يثير بداخله شعورين متضاربين: فخراً بالنسبة، ومسئوليّة فادحة أمامبني جنسه المكرّبين من بين الخلق، فمنذ أخضع بطلميوس الأول بلدته أورشليم في حربه ضد السلوقيين بعد حصار لم يطل، هاجر فرداخاً إلى الإسكندرية بين جموع الفارين، استوطن هي دلتا الذي خصّه الملك لليهود قبل أن يشق طريقه بمعرفة الكتابة وقوه البلاغة وبمساعدة أبناء عمومته الذين أرادوا أن يكون لهم مندوب دائم يمثلهم في بلاط الملك المنتصر، الملك الذي قال إليه بدوره وقربيه ليضمن من اليهود حلفاء مدربين وأصحاب خبرة في إدارة الأموال وجيابتها، يقفون في صفة أبناء البلد المشاغبين، جداراً عازلاً يقيه التعامل المباشر معهم ويوفّر عليه غصّبهم المكبّوت في الصدور، ليترقى فرداخاً في المكانة حتى يملك مفاتيح القصر وأسراره بعدما أثبت جنكة وأمانة، وأدار الخاصة الملكية باقتدار ظهرت آثاره.

ثم توّفي الملك المحارب، ليأتي من بعده فيلادلفيوس: ملك ركبته شياطين الموسيقى والفن، والنساء. استقبله فرداخاً بعنایة فدعم ارتقاء جسده حتى أسلم إليه مقاليد القصر وتفرّغ للأمور الخبرى من صراعات خارجية وتجدد وبناء لعاصمه الأثيرة، الإسكندرية.

أفاق فرداخاً من لوحة نوح على صوت أنين واهن أتى من الغرفة الكبيرة التي خرج منها شاعر:

جَدَّى سُتُّونَهِي بعْدَ دِقَائِقٍ قَلِيلَةٍ، سَارَفَ اللَّحْمَ مِنْ فَوْقِ النَّارِ.

قالها وخرج فاقترب فرداخاً بهدوء من الغرفة التي يصدر منها الأنين، نظر من فرجّة الباب فرأى عودها المحنّى



وشعرها الأبيض والتجاعيد التي تفترش جلدتها، واقفة أمام رجل مسن راقد، وبين أصابعها المرتعشة مُبْضَع مسنون شقت به منذ لحظات خرآجاً في مؤخرته، ضغطت على جوانب الجرح حتى طردت القيح، ثم تفجر الدم فلامسته بأناملها وقربتها إلى أنفها، اشتتمته وفركته ثم أخرجت ببطءاً صغيراً من حزامها العريض، دسّت فيه سبّابتها وغرفت فرهاً داكناً أغفلت به الجرح ثم ضمّنته وربتت على مؤخرة المريض الذي قام بمسح عرقه:

. لا تأكل الدهون حتى آذن لك.

هزَ المُسْنَن رأسه في ألم ثم ستر مؤخرته وقبل يد السيدة:

. ليباركك يهوه يا أمّنا.

. أرسل تحياتي لزوجتك الثرثارة.

تلك كانت «راعوث»: طبيبة الحي الذي يذكر أغلب معمريه أنها لاعتبرهم يوماً صغاراً، بيتها مفتوح لأبناء الجالية في كل وقت، عدا السبت المقدس. تجبر الكسور وتشقّ الخراريج وتضع المراهم على التقيّحات، تحكي أحداثاً تجاوزت الألف عام كانوا عاشتها بالأمس، وتملك عقل رجل ناضج، ودهاء مِرَابٍ عتيق.

توارى مُرْدَخَاي حتى رحل المريض ثم تابعها وهي تنظف المبضع بخصوص الليمون وتغسل يديها اليابستين في إناء قبل أن تلتقط عصاها الخشبية وتخرج بخطوات لا صوت لها من حفة العظام فيها، وقف احتراماً يتأمل الظل الضئيل الذي يقترب بنطء حتى رأته:

. مُرْدَخَاي.

. أمي.

. أقابلت السيد يورام؟

.رأيتكم تربتين على مؤخرته.



دماؤه فملوءة بالدهون كالخنزير.

ابتسم فرداً ونقط بدها الياسة ثم خرجا للباحة الخلفية، أجلسها الى المائدة وجلس بجانبها:

## ڇاڳ ڦدرڪ ٻڌينما پا ڦرڊخائی

قیل بدها

سامحينو، يا أمي، إدارة أمور القصر تُشَهِّد تنظيم حلبة تحا

الشجرة التي تعصر حذوها بسها، قطاعها

لن أذيب ظنك ما حبست

ثم اقترب شاء ول ووضع الصحن الساخن على المائدة وقطع اللحم حتى أعفاه مُرداً على من التحديم بنظرة فانسحب،  
لتقوى جزء طريراً ليضعه في قم أمّه العجوز ببساطاً راحته في حنو تحت ذقونها المشعر لاكتها قبل أن ترفع يدها اكتفاءً  
حيث أراد أن يزيد، ابتلعت ثم تكلمت:

وَالكَثِيرُ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَمِيْرِ.

البنائيات تحدى الغناء، ولهم بشرة ملساء شفافة.

نهانا يهوه عن لحم الأنجلوس، ذلك مذكور في الكتب التي سترتها الأترية. لا أخشى على الأحفاد بعد موتي إلا مخبأ التيه الجديد، أن يموتوا بين تدبيّخات لهم من أن يندمّحوا فيه، الأعمى بن.

الآن نسخة ليبن مع السفن العاجلة الموجهة

Séminaire



. في الترجمة قرصة لِمواكبة تغييرات الزَّمن.

. نعم، لا يأتي كُل يوم ملك يَعني اسمَ جَده بـلَغتنا أَربَّا.

. لأجل الزهر نسقي حشائش العَلْيق.

. وماذا عن الكاهن؟

. انتهى أمره، لكن اللعين أطلق من الجحيم سَهْمَا أَحاول جاهداً تفاديه.

: تسلق القلق ملامحها

. أترك أوراقاً غير قوائم أسماء ملوكهم؟

. قوائم الجِبْتِيَّا يمكن التعامل معها، فهي أسماء وتاريخ لأسرات حاكمة يُسْهَل الطعن فيها، لكن آخر ما كتبه  
كان شيئاً مختلفاً، شيئاً مخيفاً.

تنبَّهت حواس العجوز فجحظت عينها رغم الضعف، أكمل فردخاً:

. الجِبْتانا، سيرة البلاد فيما قبل الأسرات الحاكمة، نشأة الخلق وتكوين مملكة الجِبْتِيَّين، قصة نبيهم إدريس ومتون  
الحكماء الأقدمين، فروراً بقصص رُسَّل السَّمَاء، زمن الجنود.

. موسى؟

. ذلك الجزء الأخير مفقود من الجِبْتانا، كتبه بنفسه ولم يُمْلِه على أحد، ثم أودعه خزينة من خزائن المكتبة الكبيرة.

. كيف عرفت أنه كتب ما كتب؟

برديات الجِبْتانا بدت مبتورة الترقيم، وبين الكلمات إشارة لسفر يُسمى «التصحيح»، لم أجده بعد الفحص، كما أن لي  
في المعبد أعينا مترصدَة أخبرتني أنَّ مانيتون كان يسافر ليودع بعض كتاباته رفوف المكتبة.



. قُل إِنَّكَ عَثْرَتْ عَلَى تِلْكَ الْبَرْدِيَّاتِ.

. الْبَرْدِيَّاتِ لَمْ تَعْدْ فِي الْمَكْتَبَةِ.

امْتَقَعَ وَجْهٌ رَاعُوتْ فَأَعْطَى مَرْدَخَائِيَ الْفَرَصَةَ لِأَنْفَاسِهَا أَنْ تَنْتَظِمْ؛

. هُنَاكَ كَااهِنْ بِمَعْبَدِ الْأَسْوَارِ السَّبْعَةِ، اقْتَحَمَ الْمَكْتَبَةَ وَسَرَقَ الْبَرْدِيَّاتِ.

زَاغَتْ عَيْنَاهَا فَاسْتَطَرَدَ مَطْمَئِنَّاً:

. أَغْلَقَتْ مَنَافِذَ الْمَدِينَةِ جَمِيعَهَا، لَنْ يَسْتَطِعَ مَنِيْ هَرَبَاً.

. هَلْ عَرَفَ الْمَلِكُ بِأَمْرِ الْجَزَءِ الْمَفْقُودِ مِنْ تِلْكَ الْجِبَانَ؟

. لَا تَصْلِي بَرْدِيَّةً إِلَى يَدِ الْمَلِكِ قَبْلَ أَنْ تَمْرِبَنِيْ يَدِيْ.

. أَهْلُ الْبِلَادِ إِذَا امْتَلَكُوا نَسْخَةً مِنْ أَحْقَادِ مَانِيَّوْنَ فَسِيَّتْدَالُونَهَا وَسِينَشِرُونَهَا كَالنَّارِ فِي الْهَشِيمِ.

. مَنْ يَتَقَنُ الْقِرَاءَةَ مِنْهُمْ قَلِيلُونَ، وَالْخُطُّ هِيرَاطِيقِيَّ. وَلَنْ يَعْبَثُوا بِحَكَائِيَّاتِ بَائِدَةٍ عَنْ نَبِيِّ لَا يَعْرُفُونَهُ؟

تحَامَلَتِ الْعَجُوزُ وَقَامَتْ، مَدَ يَدَهُ إِلَيْهَا مَسَاعِدَةَ فَأَعْفَتَهُ، اقْتَرَبَتْ مِنْ مَاعِزٍ صَغِيرٍ يَرْقُدُ فِي ضَعْفٍ، فَحَصَّتْهُ بِحَثَّا عَنْ عَلَّتِهِ.

. الْكَهْنَةُ يَحْمِلُونَ لَنَا مِنَ الْخَرَاهِيَّةِ أَضْعَافَ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَلَدِ.

. سَادِرُكَ الْفَأْرُ وَلَوْ فِي الْقَبْرِ.

. آه.. هَا هِيِ...

وَجَدَتِ الْعَجُوزُ شُوكَةَ صَغِيرَةَ فِي الْقَائِمَةِ الْخَلْفِيَّةِ لِلْمَاعِزِ فَأَخْرَجَتْهَا بِأَظَافِرِهَا ثُمَّ دَفَعَتْهُ فَقَامَ، أَرْدَفَتْ:

. إِذَا عَرَفَ ذَلِكَ الْكَااهِنَ الْقِرَاءَةَ وَالْحِكَابَةَ، وَاقْتَحَمَ الْمَكْتَبَةَ، فَلَيْسَ بِكَااهِنَ عَادِيَ.



حرامي يسعون خلفه في...

قاطعته:

. كما لم يكن مانبيتون كاهننا عادياً، لم أر في حياتي المديدة من هو أكثر جرأة، لن أنسى يوم قرع هذا الباب ووقف أمامي بكل تكبر يصرخ بأنني أحمل روح «سبت» في جوفي، وأنني أنفث سموسي في بلده المزعوم، أوشك شاءول أن يطعنه لولا وجود شهود من أهل البلد، منذ تلك اللحظة وأنا أعلم أن ثعبان المعبد يريد أن يستبق ضربة يجهر بها تاريخنا وملاحمنا التي تكبّدنا العرق والدم من أجل تدوينها.

. ما أمره إلا كناسة عهد ولئ.

. ليُنِيش قبره ويُدَسْ جسده ولينكح امرأته حمار من بعده.

هز رأسه مؤمناً ثم دس الشوكة في اللحم وأردف،

. ستدفن أفكاره في إناء أمعائه، هياً تناولي طعامك.

أشاحت بوجهها:

. اللحم نيء.

ابتسم مرداخاً ثم أجلسها:

. استريخي، سأذهب لأخبر شاءول.

في المطبخ انهمك شاءول في تنظيف الأواني حين دلف مرداخاً، التفت فمسح يديه في ملابسه تجفيفاً وأحنى رأسه احتراماً.

. اللحم نيء، كان بحاجة لدقائق إضافية فوق النار يا ابن شقيقتي.



اغفر لي يا سيدِي، سأشوّي قطعة أخرى.

خرج مُرَدْخَاي فرجع الفتى لأوانيه، لحظات واندفع ناحيته كـسهم فارق قوسه، كـمم فـم شـاءـول بـيسـارـه وـرـشـقـ الشـوـكـةـ في يـمـينـهـ، صـرـخـ الفتـىـ فـجـثـمـ مـرـدـخـايـ فوقـ ظـهـرـهـ بـعـدـمـ أـسـقـطـهـ أـرـضـاـ، اـقـرـبـ منـ أـذـنـهـ وـهـمـسـ:

أتعلـمـ يـاـ شـاءـولـ، لـحـمـ الـكـهـنـةـ لـاـ يـخـتـلـفـ عـنـ لـحـمـ الـمـاعـزـ، يـحـتـاجـ وـقـتـاـ كـافـيـاـ لـكـيـ يـنـضـجـ

مـنـ بـيـنـ الـأـصـابـعـ حـاـوـلـ شـاءـولـ أـنـ يـصـرـخـ، أـرـدـفـ مـرـدـخـايـ:

تـنـتـرـكـ ذـبـيـحـاـ يـخـطـ بـدـعـائـهـ الـكـلـمـاتـ عـلـىـ الـأـرـضـ كـطـفـلـ يـلـهـوـ، ثـمـ تـأـتـيـنـيـ بـبـرـديـاتـ نـاقـصـةـ؟ـ الـآنـ عـلـيـ مـطـارـدـةـ فـأـرـجـحـ فـيـ قـرـاءـةـ مـاـ كـتـبـهـ الـكـاهـنـ وـلـمـ تـلـاحـظـهـ، أـيـ إـحـفـاقـ أـرـىـ فـيـ حـفـيـدـ سـيـدـةـ الـحـيـاـ اـصـطـفـيـتـكـ عـلـىـ شـبـابـ الـإـسـكـنـدـرـيـةـ لـتـصـارـعـ الـمـلـكـ الـقـادـمـ، أـرـدـتـ أـنـ يـكـوـنـ لـكـ شـأنـ يـاـ أـحـمـقـ، لـوـ عـلـمـتـ جـدـتـكـ بـتـقـصـيرـكـ لـقـتـلـتـكـ بـيـدـيـهاـ، الـزـمـ الـبـيـتـ وـلـاـ تـتـحدـثـ لـمـخـلـوقـ حـتـىـ أـقـرـرـ أـمـرـكـ.

قالـهـاـ مـرـدـخـايـ ثـمـ أـدـارـ الشـوـكـةـ بـيـنـ الـعـظـامـ،



♀

♀

♀

قرب الفجر هدا الصُّبُّ في حانة نيلوس، ترتجح البخاراء مخادرين وتلاشت الفتنيات بعد أن تركن وراءهن عرقاً وعطرواً وبقايا ضحكات، لم لم الساقى كنوسه ليضعها أمام كاي، غسلها بهمة ثم انزوى في ركن، استلقى للحظات حتى سكنت أطراقه وانتظمت ضربات قلبه، أشعل شمعة ثم سحب البرديات من وراء البرميل وفضها، تعرّف خط سيده مع أول كلمة، له صفة مميزة في لي أطراف الحروف كانها ذيول القردة، استخدم عوداً رفيعاً من الغاب وحبراً أسود، «سفر التصحيح»، ذلك كان العنوان، مكتوب بالهيراطيقية، وليس باليونانية كبقية الجيتانا، اللغة المهنوتية القديمة التي لا يحفظها إلا كتبة المعبد ويتوارثونها، آخر ما تبقى من العهود البايدة.

ابتلع كاي ريقه وقرب الشمعة حتى لمع الجبر في الصفحة قبل أن يبدأ في فك الخط:

«عشت أنا مانيتون في معبد سمنود ذي الأسوار السبعة، تعلمت وعلمت وأتقنت لغات كثيرة، صرت كاهناً أكبر وأنا ابن ثمان وعشرين، ولم أذق سماً في حياتي ولا لحم خنزير، تعلمت وعلمت في معابد الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها، أتقنت الخطوط الجيتانية، كما أتقنت الإغريقية والفينيقية والآرامية والعبرية، وظفت على معابد الإغريق والأدوميين، ومعابد فينيقيا وببلوس وهاران، اطلعت على كتابات وألواح الكثير من الشعوب وعلى كافة المتون التي أرسلها الإله فدونت على الأحجار المقدسة والجدران والبرديات.

هأنذا أعيش أيامي الأخيرة ما بين الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها ومعبدها، وبين سمنود ومعبدها الهادى



ذى الأسوار السبعة، أكتب الجبتانا ملتزماً بتوجيهات إدريس الذىأتاني فى رؤيا وأمرني بتسجیل أسفار التکوین والخلق الجبیتیة من قبل توحید المملکة.

أنا فانیتون أقر بأن الجبتانا هي التاريخ الحقيقی للساللة الجبیتیة، كما أقر أن ذلك السفر الذى أسمیته بـ «التصحیح» ربما يكون آخر الأسفار التي ساکتبها، وأشدّها خطراً على حیاتي».

سررت رعدة في جلد کای ونشع العرق في جبينه فاعتدل، لقد تنبأ الكاهن الأعظم بنهاية حیاته! قام من مكانه وتفقد الحانة، وجدها نائمة فعاد إلى الرُّكْن مكملاً القراءة على ضوء الشماعة:

اليوم أدركت أ Fowler نجم إيجيبت، إلى وقت غير معلوم، فقد ظلت روح «سيت» الشريرة عرش الملك، متمثلاً في جسد مردھاي اليهودي؛ رئيس الخاصة الملكية. استطاع سليل الأفاعي بدهائه ودعم شیوخ حی «دلتا» إقناع الملك بترجمة أسفار التوراة من العبرية إلى اليونانية، التوراة التي تناولت تاريخنا نحن الجبیتیین بالتمزق والتشویه المتعمد، بغرض تحويل إيجيبت ذنبًا شنیعًا لم تقرفه، ناشرين المرض في أرضنا ليهلكوا ما تبقى من مجدها فتسقط بأحقادهم أعمدتنا العتیقة وتطمس آثارنا تحت الرمال، لذا، وبعد أن تلقيت إنداً بالقتل في رسالة مليئة بعظام الفتنان، قررت أن أكتب الحقيقة لأفند الإفك الذي سينتشر من بعد تلك الترجمة، معتمدًا على البردية التي عثرت عليها بمعبد الملك «أحمدس»، المنسوبة من البردية الأصلية التي دفنت في مقبرة الملك الصغير بالوادي الغربي، عن حقيقة الأرض التي أرست قواعد الحياة وأقامت دعائمها، الأرض التي صارت جسداً بلا روح، معبداً كبيراً بلا إله، فرتعوا لخسود أسرى من الرعاة الشرقيين لا ملأ لهم إلا نسخ الأمم ونهب أفكارها، أتوا إلينا في ذلة ومسكنة، حاملين على ظهورهم ذكرى بطش مزعوم في بابل، وحكایات ملفةً جمعواها من أساطير الأمم البائدة التي توغلوا في أرضها، تلونوا باللوان الناس فيها حتى تمکنوا، ثم انغرسوا في الجسد المنكك كدود المستنقعات، امتصوا الذهب والعقول واصطبغوا بهيئة من آواهم ليکرسوا لفكرة ملعونة تهدم العقول وتخل بکفتی ميزان العدالة في سماء الراعي، فكرة استولوا فيها على بركات السماء دون غيرهم، فكرة تقول إنهم «شعب الإله المختار»، وإن من دونهم أغيار، لا روح فيهم، ولا حیاة يستحقونها، إلا عبيداً في أراضيهم وتابعين.



لقد اطّلعت على كتب أخبارهم الخمسة في معبد لهم بسوريا. ثم علمت بنية ترجمتها إلى اليونانية السائدة، وإنني لأنشئ الجيبتيين. إذا كتب لسفرى هذا أن يظهر إلى حيز الوجود. أنبني إسرائيل فرزوا سير رسّل السماء الأقدمين واستحوذوا على نسل آدم، أول من ملك اللغة من ساللة البشر، ثم نسل نوح، استأثروا به واستبعدوا كل من عدّاهم من البشر، سفهوا أصولهم ولطخوا سيرتهم واستولوا على بركة إلههم المزعوم يهوه الذي أدعوا أنه أغرق الأرض كلها في حين لم يطل الغرق سوى قوم نوح. فكيف يغرق الراعي الأرض بمن عليها من أجل حفنة من العصاة؟ وما ذنب الذين لم تأتهم الرسالة؟ وما ذنب الجيبتيين الذين اتبعوا إدريس؟ لم لم يغرقوا وتغرق أرضهم ومعابدهم القائمة؟ وكيف لمركب ما صنع قبلها مركب. أن يحمل دواب الأرض كافة؟

ولم يكتفوا بذلك، بل استأثروا بنسل «سام» من بين أبناء نوح وادعوا نسبه، ولعنوا أباه «حام». واستبعدوا سالاته فأورثوها الذري والعار، وسود رיהם يهوه بشرة بعضهم وهم ساكنو جنوب الأرض المعמורה ليُسهَّل استعبادهم وتسخيرهم دون ندم، ثم استبعدوا إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم وهاجر، طمسوا ذكره رغم بكوريته ومجدوا اسم أخيه إسحاق، ثم باركوا ابنه يعقوب الذي دعوه زوراً في قصصهم بإسرائيل لينسبوا أنفسهم إلى نسل رسّل السماء.

إن التوراة لم يكتبها نبيهم موسى، إنما كتبها «عزرا» حاخام عاش بعد موسى بثمانمائة عام، كتبها أثناء غزو البابليين الذي اجتاح المشرق قبل أن يحررهم الملك الفارسي «قورش الأكبر». روى خلالها أخبار الأمم البائدة فأسْهَبَ في الحكى عن ممالك صغيرة لم يَعْدْ لها وجود، أو لم توجد من الأصل، بينما أنت أخباره ضحالة ضئيلة حين حكى عن بلد عريق مثل إيجييت الذي لم يدخله يوماً، فلا يسعه التفرقة بين رعمسيس وتحتمس، أو الملكة حتشبسوت وملكة سبا، يروج الافتراضات لابتداع تاريخ مزيف عريق لقومه الهائمين بحثاً عن وطن، بألاوح تحوي عبارات لا يمكن أن تصدر عن نبيهم موسى، ففي الآية السادسة من الإصلاح الرابع سفر «الثنانية» يتحدث موسى عن نفسه قائلاً: «لَا يَعْرِفُ شَخْصٌ قَبْرَهُ حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا». وفي الآية العاشرة من نفس الإصلاح قال أيضاً: «وَلَمْ يَقُمْ بَعْدَ نَبِيٍّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلَ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ «يَهُوهُ» وَجْهًا لِوَجْهِهِ». وفي الآية الثالثة من الإصلاح الثاني عشر من سفر «العدد» قال: «فَأَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جَدًّا أَكْثَرُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».



إنني فانيتون السمنودي، في السنة الخامسة والثلاثين من حكم ثاني الملوك بعد الإسكندر بن فيليب، أشهد الأجيال الآتية أن اليهود قد نقلوا إلى توراتهم حكم و تعاليم المَتَّون المقدّسة التي نزلت على المعظّم ثلاثة «إدريس» بإيجيبت، بعدهما أنكروا أصلها ونسبوها لأنفسهم، ثم أضافوا وحذفوا منها ما شاءوا، غير مستحيين الخلط بين دين الله وبين أحقاد صدورهم، بين التاريخ الحقيقي وبين ملاحِم منهوبة من الأمم البائدة، يلوون عنق الأخبار لتنماشى مع ما يقولون، ثم يتحاكونها فيما بينهم ليرفعوا من همم شعبهم بعد هزائم متلاحقة بسبب ضعف إيمانهم وخياناتهم المتتالية للأمم الحاضنة لهم ولراعي في السماء، وليغزوا إيجيبت ثانية، كما غزوها من قبل مع غزاة الشرق من الرعاة.

وقد نويت بعد تدبر وتفكير أن أسرد في سفر «التصحيح» القصّة الأصلية التي لم يدونوها في توراتهم، القصّة التي تُشين شيوخهم وتفنّد قبح ماضيهم، القصّة التي حفظها الملك «أحمدس» في معبد أبيدوس قبل وفاته، وأمر بدمنها في مقابر الملوك من بعده، قصّة رجل ولد في أرض إيجيبت المحتلة من الرعاة.

رجل اسمه موسى.

انتهت أول بردية شخص كاي بنصره في السقف القريب، لم يكن قد زار الإسكندرية يوماً، إلا أنه يعرف جيداً حظوظ اليهود فيها، يعرف أنهم الثعابين تحت عرش الملك، ديدان الربى التي تمتص الذهب والفضة، ويعرف أن قتل كل نفس عدّاهم هو حجر في طريقهم مشروع إزالته، أو تحطيمه إذا لزم الأمر، لقد ذبح معلمه في قدس الأقدس قرياناً لإلههم، ما كتبه عنهم يحوي حقيقة استلزمت أن تدفن في بئر سحرية، الغريب أنه لم يسمع من قبل عن ذلك الرجل المدعو موسى، لم يقرأ بردية عن قصته أو رأى نقشاً بجدار في معبد يحكى عنه، أما الرعاة فما هم إلا بدو غزوا إيجيبت محتلين، استقروا في الشمال لمائة سنة أو يزيد قبل أن يحاربهم الملك «أحمدس» فيطردهم، لم يهتم الكاهن الأعظم بنسخ تلك القصّة؟

تعرف القراءة؟

بَلْ الصَّوتُ تَدْقُقُ أَفْكَارِهِ فَانْتَفَضَ، نَادِيَا كَانَتْ تَقْفَ خَلْفَ بَرَامِيلِ النَّبِيِّدِ، طَوَى إِضْمَامَةِ الْبَرَدِيَّاتِ بِالْحَزَامِ فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ خَطْوَةً، أَجَابَ:



.أعرف القراءة والكتابة.

ابتسمت:

.وتخشى الكلاب.

.في بلدي نعرف لغة التماسيح، أما الكلاب الإغريقية فتتحدث لساناً آخر.

ابتسمت:

.أتعمل في أملاك أحد الأثرياء؟

سكت لحظات قبل أن يجيب:

.بل كنت يوماً كاهناً في معبد.

.هيئتك لا توحى بناهنا!

.غائب عن معبدِي منذ وقت طويـل.

.ماذا تفعل في إليوسيس؟ أرض العسل واللبـن والقـادورـات.

.أبحث عنك.

ضيقت عينيها:

.ناهـن يخوض أرقة إليوسـيس ليـبحث عن فـتـاة لا يـعـرـفـها؟

.عاـهدـتـ أـبـاكـ أـنـ أـفـعـلـ بـعـدـمـاـ أـنـقـذـ حـيـاتـيـ.

.في المـسـتـنقـعـ؟



.إنها الحقيقة.

.لم أكن أعرف أن الكهنة يكذبون!

.أنا لا أكذب؟

.أنت هارب من شيء ما.

.ربما أبغض عزلة.

انحنت ففتحت صنبور برميل النبيذ فتدفق السائل القاني إلى فمها، رشقت رشفة ثم تأملت البردية المدسosa

وأردفت:

.ماذا عن تلك البرديات؟

.ابتهاالت للرب.

.لم تخفيها؟

.إنها النسخة الوحيدة المتبقية من أوراق كاهن غادر عالمنا.

تأمل وجهها في زرقة الفجر التي تسربت إلى المكان ثم استطرد:

.تشبهين أمك كثيراً.

.كيف تقول ذلك ولم تعرفها؟

.ليس في أبيك وجنتك العاليتان وشفتك الممتلئتان. سيمات لا تورثها إلا أنثى لأنثى.

دار الألم في قسماتها:

.شيء طيب فعلته قبل أن ترحل عنِّي. لكن منذ متى يُعرف الكهنة أسرار الوجوه، والشفاه؟



كاد كاي أن يتلعثم:

أبي كان قاصاً للأثر وعالماً بفراسة الوجوه والأجساد، يستطيع معرفة نصف حياتك من خطوط كفيك ومن عينيك.

لن يسعده النظر فيها، سيرى ما لا يسره.

. حزن دفين!

. لا تدقق النظر فإنه معد، فما اقترفته أمي لا تقتربه الخنازير.

. تركت أباك من أجل رجل آخر؟

. تركت أبي من أجل كل الرجال.

أغمض كاي عينيه في الم:

. هل تنوين لقاء أبيك؟

. هل حكى لك لماذا تركني؟ وكم كان عمري؟

. لقد ارتكب فعلته من أجلك، إن عاد لكان مصيره الموت لا محالة.

. أن يموت من أجلي خير لي من أن أعيش عمري لا أعرف ما حل به، لم يفكّر في لحظة.

. بل يفكّر فيك كل لحظة.

. وببسهولة يطلب لقائي؟

. ما تبقى من عمره يشفع له.

غمّرها الصمت للحظات:



. خروجي ليس بالأمر العيّن.

. ليصحبك آرام إن أراد.

. لن يترك مَكْلِبَتِهُ الأثيرة في الأرض الشرقية، ولا حَانَاتِ إلْيُوسِيس التي قضى فيها عمره.

. أَهُو يَمْلَكُكَ؟

. عشقي فيه ضارب للجذور، يَخافُ على أوراق الشجر وأمواج البحر، وأعين الرجال، لولا آرام لصرت عاهرة من عاهرات الدكتور ياديس حتى أملك قوت يومي.

. تتكلمين عن عشقه ولم تذكرني حَبُّكَ له.

. أنا أَحُبُّ آرام.

. لِمَ لَمْ يَتَزَوَّجُكَ؟

. تقاليد صارمة؛ فاليهود لا يتزوجون الجبيتنيات.

. لكن مضاجعتهن مباحة؟

. نظرت إليه في غضب،

. أنت وقح.

. لم أقصد إساءة.

. وماذا يعرف كاهن خصي عن حب النساء؟

. عشق إله لا يقل عن عشق النساء.

. تعزل الناس خلف أسوار عالية، تزهد وتتعبد حتى تناجيك النجوم، ثم تدعّي معرفة عشق النساء أليها الكاهن.



إلهك لا يعرف عِشقا، إلهك ظالم.

ابتسم كاي.

. تبدين غاضبة منه.

. سيد فوق السحاب يتسلى برأية عبيده يتغذّبون.

. إنه اختبار القلوب.

. ولم لم يختبرك كما اختبرني؟

فللت من كاي صدكة.

. أنت لا تعرفين قصتي، بل ولا تعرفين اسمي.

اهتزت قدمها في عصبية.

. أنت أذكي من أن تكون كاهنا بمعبده، وأضعف من أن تفهم قسوة الحياة.

. تحملين ضغينة نحو الرب، وتنسين أنك واحدة من أبنائه.

. لست ابنة أحد، أنا ناديا، أشرع راقصة وعارفة ناي في إليوسيس، الرجال كالطيوور تتتساقط أمامي، وأجمل نساء

الإسكندرية يحسدنني.

. وأنا كاي، كاهن بمعبده.

نظرت إليه للحظات قبل أن تضيق عينيها:

. قد أفكّر في لقاء أبي، بشرط، عليك أن تقنع آرام.

رفع كاي حاجبيه:



. ولكن...

: قاطعته

. تختلف؟

. قلبي لا يعرف الخوف إلا من الآلام.

. حسناً، تستطيع رد جميل أبي ببعض المجهود.

: سحب كاي نفسها إلى صدره ثم هز رأسه

. موافق، ولكن على شرط

? ...

. أريد، برديات، ومحبرة وبوصة للكتابة.

. ما تطلبه أسهل بكثير من إقناع آرام.

. للخهنوة سحر بؤثر.

. حسناً أيها المتحذلق، أمر آخر، لتحتفظ بأمر زيارتي لك سيراً، فآرام يغار من كلابه علي.

قالتها ثم رحلت، بغضبها وغرورها وشعرها العائم حولها. وقد مكانه يحْكُ جبهته وفروة رأسه التي لم يعتد طول الشعر فيها، يجتر حديث ناديا وانفعالات وجهها. روح نارية مضطربة، ثائرة كعاصفة تحرق الوجه وتسلخ الصدر، مغروبة، ولها كُل الحق، فعيناه لا تتذكران أن لفحها يوماً لون في لون جلدتها، أو شفتان كشفتنيها، أو قوام نحت الرقص انحناءاته وأبدع، كقوامها.

مهلاً.



قالها لنفسه ثم ابتهل استغفاراً وهي تتمايل مبتعدة، تذكر أنه لأول مرة لا يخفي عينيه عن جسد أثني، ثم باغته وجه عشيقها وهو يزور فيه تهديداً ومن ورائه كلبه، تصارعت الشفقة والحب مع اشمئizar من الرضوخ والإذعان الذي يكنه صدرها ناحية هذا العشيق الغاشم، لم يكن ينقصه الاحتياك بمثل تلك الأرواح المضطربة لتزيد عقله تخبطاً وإرهقاً، فتسارع الأحداث يكاد يعصي به رغم ضبط نفس مارسه لسبعين أمام شموع المعبد، لأول مرة يشعر بعتمة الساعات المقبلة، بعد أن كانت أحداث أيامه تكاد تدرون على جدران المعبد من فرط التكرار، كابوس هو التحرر من استيقاظه المبكر، السقاية، التنظيف واستقبال حاملي القرابين، الصلاة من أجلهم، ثم نسخ المتون المقدسة حتى هبوط الليل، قبل أن يخلو بنفسه لساعة التأمل، تلك الساعة التي يلتقط فيها همس الملائكة: رع وأمون وتحوت وبتاح، ساعة يتددن فيها جسده مع الحصى تحت قدميه، وأبعد نجم تراه عيناه، ساعة لم يعد يملك ترف العودة إليها، علا صوت أفكاره حتى كاد يوقظ ساقي الحانة، فانحرط في صالة طويلة نظم فيها أنفاسه وكنس هواجسه حتى هدأت روحه واستسلمت جفونه لإغفاءة إجبارية احتضن فيها البرديات.





ترُنَح شاطئ الإسكندرية ابتعاداً حتى تلاشت القصور البيضاء والفنار، يوم ونصف يوم في عرض البحر قبل أن تلوح «بيبلوس» في الأفق، مدينة ساحلية تناثرت فوق تلالها أشجار الأرز وعلى مياها مراكب الصيادين، بأمر الربان رفع البحارة الأشرعة وألقوا مرساة علامة طمأنة السفينة فوق المياه. في الغرفة العليا جلس مُرْدَخَى فوق أريكة مُرِيحة بجانب النافذة، ساكنا يُراقب شاطئ المدينة التي تؤمن بـيجيبت الأخشاب لبناء السفن والمعابد، مقابل الأواني والخلي الذهبيه ولفائف البردي ونسج الكتان.

بعد دقائق بَرَزَت في الأفق سفينة تحمل شارة بطلميوس الثاني، ضربت بمجاديفها الموج حتى أصبحت على بعد أذرع فمَدَ البحارة جسراً خشبياً من فوقه «إليعارز» رئيس كهنة أورشليم، رجل تخطى العقد السابع، على رأسه شال مخطط وفي يده عصا عاجية المقبض، استقبله مُرْدَخَى بحفاوة وإجلال ثم أجلسه إلى مقنه، تناولاً غداءهما قبل أن يصرف الخدم، ثم أشار مُرْدَخَى إلى خزانة خشبية كبيرة بجانب قدميه وهمس:

. في هذه الخزانة عشرون تالنت من الفضة وتالنت ونصف من الذهب، جمعتها جالية الإسكندرية.

. كل تقدير لأهلنا في حي دلتا ولابن أورشليم البار.

. سفينة المترجمين ستصل مرفأ بيبلوس غداً، تلقى كل مترجم خمسة آلاف دراخماً وهدية، أرجو أن يكون ذلك كافياً كي لا تتناثر الحكايات حول فترة إقامتهم بالإسكندرية لترجمة كتابنا، لا أخفيك خبراً فإن كرش رأوبين لا تبدو من النوع



الذي يمتلئ، أنا لا أثق في رجل نهم.

ضحك إليعازر:

رأوبين تمساح وديع، عاشق للطعام، لكنه صموم.

ساد الصمت لحظات فاستطرد إليعازر:

لقد وردني خبر مقتل الكاهن الجيبيتي في المعبد.

. حادث مؤلم.

. كيف استقبله الجيبيتيون؟

. ستكون جنازة حارة ثم ينسون أمره. الجيبيتيون مشغولون باللهاث وراء حلم المواطنة بالإسكندرية؛ مدينة الأحلام.

. الجيبيتيون قلوبهم سوداء، لا أظنهم سيتقربون يوماً قريباً من العرش.

. الشيوخ فيهم ينسوا، أما شبابهم الذين لا يزورون حي العاهرات فإنهم يسعون إلى حتف محتم بآيديهم الغشيمية.

أقصد... ثورة؟

ابتسم مردحاني:

. حين تصطاد السمك ضع الطعم في الخطاف واقذفه إلى المياه، دقائق وتنجذب السمكة إلى الرائحة والحركة، تبتلع الطعم وينغرس الخطاف في حلتها فتستشعر مقاومة في الخيط، اجذبه برفق، تقاوم السمكة وتبتعد، اترك لها الخيط حتى تظن أنها أفللت، ثم اجذب الخيط برفق فتعود للمقاومة، ثم اترك الخيط، ثم اجذبه واستمسك بالمسافة، فع كل حركة مقاومة منها ينغرس الخطاف في حلتها أكثر فأكثر، حتى تصبح على بعد أذرع منك وقد خارت قواها، في تلك اللحظة الفارقة، تقبضها إليك.



. تترك الجيبيتين ينشدون حرية لن ينالوها.

. بل سيختنقون أنفسهم بها خنقا، هؤلاء الراعع لن يردعهم عن سوي طموح غشيم يسلبهم كل أمل، طموح يسمى الحرية الكاملة.

. الحرية الكاملة هي الفوضى العارمة.

. الآن فهمت.

ثم ازداد همس مُرذخاي همساً:

. منذ سنوات ورجال حي دلتا لا ينامون، يعيشون بين الجيبيتين في الحانات والشوارع كأنهم منهم، يُذكرون فيهم المساواة والعدالة، ويُعظمون أحالمهم في الاستقلال. مع الوقت تأجّلت بداخلهم الخصومة مع الإغريق، وما إن يستنشق الراعع بصيص الحرية...

أردف إليعاير مكملاً:

. حتى يمسخوها فوضى.

. سيصبحون كحيوانات مخمورة تترنح في شوارع المدينة، قبل أن تستتعل بينهم وبين إحدى الجاليات حرب.

. لكن الحرب قد تكون مع جاليتنا!

. إذا أردنا أن تكون لنا قدم في العالم الجديد فإن علينا أن نبذل الأنفس.

. والملك...؟

. لن يملك وقتها إلا التنكيل بهم كي لا تتقوض دعائم العرش، هم في النهاية العدو بلا مراء، وهو لن يخسر يهود الإمبراطورية.



. لكن الجيبيتين ذوو بأس وعدد.

. كلاب تنبح بين قدمي فيل، سيسحقهم ولن تقوم لهم قومة بعدها، سيدخلون جحورهم في راقودة ويشكرن  
ربهم على ترف الحياة.

. بعدها نحصل على المواطنـة الكاملـة؟

. بعدها ستحكم تالنتـات الذهـب المـكـدـسـة فيـ حـي دـلـتـا، وسيـحـكـمـ الملـكـ منـ سـفـيـنةـ سنـكـونـ نـحنـ بـحـارـتهاـ الـوحـيدـينـ،  
ستـخـضـعـ إـبـجـيـبـتـ، وـتـرـكـعـ سـوـرـيـةـ، وـتـسـجـدـ بـأـبـلـ.

قام مـرـدـخـايـ والـنـقـطـ منـ فـوـقـ مـنـضـدـةـ قـرـبـةـ إـضـمـامـةـ بـرـدـيـ، وـضـعـهـ بـيـنـ يـدـيـ إـلـيـعـازـرـ:

. تلك توراتـناـ الجـديـدةـ، مـتـرـجـمـةـ إـلـىـ الـيـونـانـيـةـ، اـهـرـصـ عـلـىـ نـسـخـهـ وـنـشـرـهـ بـيـنـ الـأـمـمـ، وـلـاـ تـلـتـفـتـ لـمـاـ فـيـهـاـ مـنـ إـصـلـاحـاتـ،  
فـلـكـ عـصـرـ قـوـاعـدـهـ، وـهـيـ السـبـيلـ إـلـىـ اـسـتـمـرـارـ قـدـمـيـ يـعـوـهـ فـوـقـ هـذـهـ الـأـرـضـ.

ابتسمـ الحـادـامـ وـرـبـتـ عـلـىـ كـتـفـ مـرـدـخـايـ،

. كلـماـ نـظـرـتـ فـيـ عـيـنـيـكـ رـأـيـتـ وـجـهـ أـبـيـكـ، لـوـ كـانـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ لـأـصـبـحـ فـخـورـاـ بـاـبـنـهـ.

. يـكـفـيـنـيـ فـخـراـ خـدـمـةـ أـبـنـاءـ عـمـومـتـيـ.

ودـعـ مـرـدـخـايـ كـاهـنـ أـورـشـلـيمـ قـبـلـ أـنـ يـلـمـحـ شـاءـوـلـ اـبـنـ أـخـتـهـ، جـالـسـاـ الـقـرـفـصـاءـ فـيـ رـكـنـ السـفـيـنـةـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ فـيـ رـجـاءـ، رـفـقـهـ  
لـلـحـظـاتـ ثـمـ أـشـارـ إـلـيـهـ أـنـ يـتـبعـهـ. فـيـ الـغـرـفـةـ أـمـرـهـ بـالـجـلوـسـ بـعـدـ عـلـقـ الـبـابـ، نـظـرـ إـلـىـ يـدـهـ المـضـمـدـةـ ثـمـ تـكـلمـ:

كيفـ حـالـ أـفـنـاـ؟

. بـخـيرـ حـالـ.

صـبـ مـرـدـخـايـ لـنـفـسـهـ كـأـسـ نـبـيـذـ، تـجـرـعـهـ ثـمـ تـكـلـمـ:



. فَنْدِ أَيَّامٍ سَرَقَ كَاهِنٌ مِنْ مَعْبُودٍ سَمْنُودَ بِرْدِيَةَ مِنْ رَفُوفَ الْمَكْتَبَةِ، رَئِيسَ الشُّرْطَةِ أَغْلَقَ مَنَافِذَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَيَمْسِحُ الْآنَ حِيًّا رَاقِوْدَةً، بَيْتًا بَيْتًا، يَظْنُنُهَا أَيَّامًا حَتَّى يَخْطُوَ الْفَتَنَى وَيَتَّخِذَ طَرِيقَهُ فِي الْبَرِّ أَوَ الْبَحْرِ هَرَبًا، إِلَّا أَنِّي لَا أَعْتَدُ ذَلِكَ، وَلَا أَظْنُنَهُ سِيَحاً مُوْلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَالْفَتَنَى قَاصٌ أَثْرَ، ذُو فَرَاسَةٍ، وَكَاهِنٌ مُقْطَعُ الْعِبَادَةِ، فَنَذُورُ لِخَدْمَةِ رَبِّ الْبَرِّ، لَا أَظْنُنَهُ سِيَحَّتَبِي في رَاقِوْدَةِ وَسْطِ الْجَيْبَتَيْنِ، أَوْ يَلْجَأُ لِمَعْبُودٍ يَسْكُنُ إِلَيْهِ، أَظْنُنَهُ سِيَّجَهُ شَرْقًا إِلَى حِيَّثُ لَنْ نَفْكَرُ، إِلَيْوَسِيس؟

. أَرْضَ فَرْدَحَمَةَ تَنْتَهِي بِالْمَسْتَنْقَعَاتِ، مَلْجَأٌ يَحْلُوُ لِكُلِّ هَارِبٍ يَنْشُدُ الْاِخْتِفَاءَ.

. لِمَ اخْتَرْتَنِي لِمَهْمَةِ أُخْرَى بَعْدَ أَنْ أَخْفَقْتُ؟

. عَلَيْكَ أَنْ تَنْظُفَ فَوْضَاكَ فِي مَعْبُودِ الْأَسْوَارِ السَّبْعَةِ، وَاحْذَرْ، فَصَدْرِي لَا يَتَسْعُ لِخَطْأِ ثَانٍ، حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ أَبْنَ شَقِيقَتِي.

. سَحْبَ شَاءُولَ نَفْسَأَ لِمَ يَخْرُجُهُ، فَأَرْدَفَ فَرْدَحَمَيِّ بَعْدَ صَمْتٍ:

. كَايِ اسْمَهُ، فِي كَتْفِهِ جَرَحٌ مِنْ نَصْلِ حَرِبَةِ، وَآذْرَ فِي مَعْدَتِهِ مِنْ سِكِينِكَ الْخَابِ الَّذِي تَرَكَهُ فِي الْمَعْبُودِ، أَحْضَرَ لِي الْبَرْدِيَاتِ، وَرَأْسَهُ، أَمَامَكَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَاحْذَرْ، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ كَاهِنًا لَا يَقْوِيُ عَلَى الْمُصَارِعَةِ، إِلَّا أَنَّهُ سَرِيعُ الْحَرْكَةِ شَدِيدُ الذَّكَاءِ، هَذُّ شَاءُولَ رَأْسَهُ فِي تَصْمِيمٍ وَافْتَرَشَتِ الْجَدِيدَةَ مَلَامِحَهُ فَانْسَحَبَ تَارِكًا فَرْدَحَمَيِّ يَرْنُو بِبَصَرِهِ إِلَى بَحْرِ لَا نَهَايَةَ لَهُ.



♀

♀

♀

«استيقظ».

سمعها كاي بصوت الكاهن الأعظم فانتفض واقفاً وسط براميل النبيذ. تلفت حوله، اتخد دقيقه حتى تذكر ما الذي أتي به لذلك القبو، ودقيقه أخرى ليسترجع ما حدث في الأيام الماضية. اطمأن على البرديات في مكانها ثم قام يتفقد الحالة التي اقتحمتها الشمس من كل اتجاه. الساقي كان مشغولاً بمسح المناضد تحضيراً لليوم صاحب، دون أن ينظر إلى كاي تكلم:

. يقولون إن النوم وسط براميل النبيذ يجلب أحلاقاً ورديه.

اسمح لي بمساعدتك.

لم ينتظر كاي جواباً. التقط ممسحة ودلواً وانحنى ليمسح الأرضية. تأمله الساقي للحظات:

ما قصتك؟

لا قصة لي.

آخره أصحاب الأسرار.



رجل فقير ضاق به الحال في بلده فجاء إلى دُرَّة التاج يتبعي رزقاً.

الهوا من تقترب من النار ظننا منها أنها جسد الإله، حتى تحترق.

لا أنسد إلا الكفاف.

فمك يتكلم كالكهنة.

ابتسِمْ كاي في أَسْنَى:

يا ليتنبي.

كلهم يقولون ذلك في البداية، حتى تتحمّم بطونهم بالشراب وصدورهم بالعشق فتنطلق الأماني ويرتفع سقف الأحلام.

لا وقت عندي لعشق أو خمر.

أما الخمر فهناك من الناس من لا يألفه، لكن العشق لا يستاذن في الولوج إلى الصدور، إنه يقتضيها.

إنه لعار أن يمتلك الصدر بشيء غير العلم.

أردف الساقِي ساخراً:

وأين ستتبعي العلم أيها الجبّيري؟

ربما في «أون»؟

ضحك الساقِي:

أون؟ لم لا؟ طموح يَحمد بالنظر إلى هينتك المزرية.

تململ كاي في مكانه:



ألا أعمل عندك فتاجرني وجبتي وبيات الليل في غرفة؟

أوافق، إن وعدتنى بتجنب فتیات الحانة؟

أعدك باسم الإله، أين سأبیت؟

في غرفة الخزین بالدور العلوي.

ثم ابتسم الساقی:

لا تبدو لي من محبّي الرجال.

لا رجال ولا نساء.

وماذا عن نادیا؟

كنت أحمل رسالة لها وانتهى الأمر.

ابتسم الساقی فعَقبَ کای.

وهي ليست من النوع الذي يرُوق لـي بأي حال من الأحوال.

لم لا تقول له السبب الحقيقي لثقتك في وعدك؟ أيها الكاهن!

التفت کای فوجد نادیا وراءه، اقتربت والتحدي في عينيها، وضفت دواة حبر في راحته وقلماً من البوص وأوراق بردي

قبل أن تبتعد.

الانتظري.

قالها کای فتوقفت، اقترب منها هامساً:

لم أكن أعني...



لم تمهله:

. أيا كان ما تفعله احرص على لا يعطلك عن وعدك الذي وعدتني، فالرب ورجاله هم أكثر من خذلوا ابتهالاتي.

غمزته بعينها ثم رفته برمش اخترق صدره.

استغرق كاي في التنظيف ساعة، وساعات حتى ينسى عينيها وابتسمة السخرية في جوانب فمها. انهمك في حمل براميل النبيذ والبييرة وتحضير الفطائر الخفيفة حتى هبط المساء وبدأت الفتيات يتواجدن ألوانًا، تناثرن في الأركان واعتلت بعضهن منصة نفحن فوقها النباتات في نغمات آسرة نادت البحارة من كل صوب، اقتحموا الحانة في وفود حتى صحب المكان، انهمك كاي في الخدمة بأعين لا تواجه ولا تصطدم، نهره البعض في فورة سكر وجازاه البعض بدرامات معدودات دسها في ملابسه وعيناه تترددان على باب الحانة في انتظار، متمنياً سؤال نفسه عن سبب الترقب، وتلك السخونة التي حلقتها ناديا في صدره، حتى ثلت القاعة وهذا الصحب فاقرب من الساقى، أخرج ما جمعه من نقود ووضعها أمامه، نظر إليه مندهشًا:

أنت مقبول، أو كما قالت ناديا، كاهن!

. هذا حق الحانة، وقد اتفقنا على المبيت والطعام فقط ولم نتفق على الإكراميات.

هز الساقى رأسه ثم سحب النقود، ابتعد كاي قبل أن يرجع:

ألن تأتي ناديا اليوم؟

. إن لم تر آرام فلن ترى ناديا، سمعت أنك تعرف أبيها.

. بلـى، تقابلنا.

. في المستنقعات؟

نظر إليه كاي بدھشة فأردف:



عند الساقى تنصبُ الهموم والحكايات. أتنوى أن تتيح لناديا رؤيتها؟

هذا وعدته.

اتسم الساقى

أيها الغريب، روحك تشبه الكحول: سريعة التبخر، أتصدك بالنزول على الأرض، فآرام طفل طيب رغم المظاهر، له نصف عقل، وأمه محبولة، عقلها بين أصابع الرب، يحبسها في بيتها كي لا تتعرى أمام الناس، ليس له في الحياة إلا الكلاب وتلك الفتاة، إن بلغت رسالتك فلتচمت، أو ترحل، فالجيبيتون لا دية لهم في تلك المدينة.

نظر الیه کای ولم یعقوب.



♀

♀

♀

أيتها الكتب المقدسة التي كتبتها يداي، فلتبقى محفوظة من آثار الزمن ومن عبث العابثين، ولتبقي ذفية عن أعين من لا يستحقك، ولتبقي بعيدة المنال، إلى أن يأتي الوقت الذي تظهر فيه أجيال حديرة بهذا العلم.

من كلمات المعظّم ثلاث مرات

«إدريس»





في غرفة الخزين بالدور العلوي للحانة دلع كاي نעה نعده فتدفق النبض، اغتسل من إماء ثم أشعل شمعة جثا أمامها، تأمل فتيلتها حتى تلاشى الكون حوله، ثم رتل متون الخلاص وسبح بأسماء الرب السبعة والخمسين فصفا ذهنه واستقرت عيناه ورعشة أصابعه قبل أن يستخرج الدواة والبوصلة، بسط برديات معلمته وشرع في ترجمة ما قرأ ليلة أمس من الهيراطيقية إلى الخط الجيبي المتداول، بدقة، إذا أراد لكلمات معلمته أن تصمد للزمن وللأعداء؛ فإن عليه أن يترجمها ويستنسخها بلغة مقروءة، فاللغة وعاء العلم، إن نخرتها الثقوب تساقط منها تاريخ الأمم وأحلامها، دسْ كاي البوصلة في الحبر وأنهى أول صفحة من الترجمة قبل أن يبدأ في فك أحرف الصفحة الثانية.

«منذ ما يزيد على ألف سنة، وفي عهد الملك السابع والثلاثين من ملوك الأسرة الثالثة عشرة «توتيمابوس»، دبت في الشرق مجاعة كبيرة، تصرخت الأرض بسببها ونفقت البهائم فتسدل أصحابها إلينا في جماعات صغيرة، أقوام من البدو يطلقون على أنفسهم «العمالق»، «عامو» وتعني البدو، و«ليق» وتعني الجند، أي جنود البدو بلغتهم، قوم شرقيون يرفعون فوق عناناتهم إلهًا يدعونه رب الجنود، وهم نسل قبيلة من العرب البائدة تدعى «تمود»، عاشوا بمدينة تدعى «الصخر» بوادي «فاران»؛ قبائل متفرقة تهيم بحثًا عن المياه وترعى الماشية، توغلت بمسكنة في جماعات قليلة العدد على مر السنين إلى أرض إيجيبت التي لا ترفض ضعيفاً، أكلوا من خيرها وشربوا من نهرها الكريم وامتلأت بطونهم فاستقروا، ثم قويت شوكتهم بسبب ضعف يد حكام المدن الشمالية وتصارعهم على النفوذ، لتنهمر جيوش البدو أحلافاً عبر أرضنا، استولوا على مناجم الفيروز



والحاميات حتى بلغوا «يم سوف»، خليج واسع ضحل تجتمع فيه المياه المالحة الآتية من بحر البوص جنوباً، والمياه العذبة الآتية من فرع النيل البيلوزي الذي يمتد لأرض الفيروز. حصلوا مدينة دعوها «هوارة» أو «هواريس»، بالإضافة الياء والسين اليونانيتين، وتعني بلغتهم «المدينة».

ما إن استقر الأمر بالقبائل البدوية حتى نصبوا «ساليتيس» ملكاً عليهم، أقام الحاميات العسكرية وحصن مدینته بحصن عالية عجيبة البنيان من الطين المحروق، قبل أن يعبر غرباً مشعل المدن وهادئاً للمعادن الجيبتنية ترويعاً وبطشأ. ساق الرجال إلى المذايا وقاد النساء والأطفال إلى الأسواق، نعمة من الإله أصابتنا وملك جيبيتي ضعيف ما لبث أن قُتل في أول نزال معهم، فأقواس الهكسوس ترمي بأسمهم أبعد من أسمينا وأحصنتهم رقيقة البطن سريعة العدو، تمرق بين صفوفنا جارة وراءها عربات شيطانية مزقت جندنا وشتتتكم، لتنهار القلاع والتحصينات تباعاً في قبضتهم الخشنة، مدوا سلطانهم حتى شمال «واست» ، ثم فرضاً جزية على الأقاليم من سبايك وغلات، وخضعوا في نسل الملوك الجيبتنيين الذين كفوا عن القتال لضعف قوتهم وخوار عزيمتهم، ثم بدأ جيران هؤلاء الرعاة يتواجدون حين اطمئنوا، قبائل تجمعوا اللغة الكنعانية ذات اللكنة الآرامية، توغلوا شمالاً تحت إمرة «ساليتيس» الذي توفي ليخلفه «خيان»، في عهد هذا الملك ضرب العزاز فرع النهر الواسل لمدينة هوارة، كادت القبائل أن تموت جوعاً لولا صوامع القمح التي أقامها ثاني أهم رجل في هوارة من بعد الملك، وزير الخزانة، يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم النبي، متبوع الملة الحنيفية الإدريسية. كدّس يوسف القمح لسبعين سنة قبل الجدب ليخرج ما ذكره وقت الشدة، حاز يوسف ثقة الملك فجلب قبيلة أبيه من الشرق، سبعون رجلاً استوطنوا «جasan»، أرض خصبة قريبة من هوارة، بعدما أكرمههم الملك وأعدق عليهم من الخبرات كرامته ليوسف.

عاش بنو يعقوب في تلك الأرض الخصبة أعوام رغد ورخاء، تجاورهم فيها قبيلةبني إسرائيل، الرعاة الذين احترفوا تجارة الحلبي، يتقررون منهم ويصاهرونهم حتى اختلطت الأنساب والأسماء، متبركين بنسل الأنبياء وحظوظهم في القصر، حتى اعتلى عرش المدينة السادس الملوك الرعاة وقاد أحلاف قبائل البدو، رجل غليظ القلب يدعى «فرعون»، أتى من برية «فاران»، منبت العماليق وما لبث أن تصادم ببني «إسرائيل» دوناً عن القبائل التي يحكمها بسبب نفوذهم وحظوظهم لدى الملوك السابقين، وكثرة عددهم واستئثارهم بمقاييس التجارة.



ثم زاد الطين بلة حين أتته رؤيا في المنام، فقال العرافون من حوله: «إن مولوداً منبني إسرائيل قد أطلق زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك ويبدل دينك». ففزع الملك فرعون وأمر بسجن ذوي الشأن منبني إسرائيل ليُبقي على أبنائهم ونسائهم عبيداً يباعون في الأسواق، ثم قرر قتل كل رضيع ولد في ليلة الحلم المشئوم بالمدينة، لينزل حَرَّاسه ومعهم قابلتا «هوارة» إلى الشوارع، اقتحموا كل منزل ولد فيه طفل، نزعوه من حضن أمه وألقوا به إلى تماسيخ النهر، في ذلك اليوم ولد لعمران حفيد يوسف، وحاجب مجلس الملك «فرعون»، ولد له طفل ذكر خمري اللون واسع العينين، أخفى عمran الخبر برسوة القابلة التي جذبته من بطن أمه، ثم سقاوه منقوع اليانسون فخضع الوليد لسبات عميق حتى قطلع الفجر، في الأيام التالية تحايلت أم الوليد في إخفاء ولدها الذي لم تسمه بعد عن الجيران والعابرين، مستعينة بالأعشاب المهدئة وثيماً محكمة، تسجيه فيها داخل الغرفة التي تطل على فرع النهر، مستعينة بصوت المياه وساقية قريبة تطغى على صراخه حين يتضور جوعاً، أما الأب: حاجب باب فرعون وصاحب الثقة، فيسترق السمع حين يجتمع الملاً من رءوس القبائل، عليه يلتقط خبر عفو عن مواليد ليلة الحلم المشئوم، أو يستقرئ خطراً يتلافي وقوعه، محاولاً السيطرة على خوفه بايتسامة ودود وطاعة ظاهرة.

مرت ثلاثة أشهر كبيرة فيها الربيع حتى اشتدت حنجرته وعلّ صوته، ولم يطلق عليه أبواه اسمها بعد، تشاواماً من أن يجده الجنود فيقتلوه، لكن كتمان أمره بات مستحيلاً وسط بيوت القلائل الذين يعيشون داخل أسوار قصر «فرعون» وينعمون بخدمته، ضاق صدر أبيه قلقاً وبيس جسده، أما أمه فتقضي أيامها شاردة ذاهلة ينقبض صدرها مع كل صيحة في الجوar، يحدوها الأمل أن يصدر من الملك عفو تنتهي به اللعنة التي نزلت ببني إسرائيل وطالت مواليد باقي المستضعفين تحسباً، أو يذوب الوليد بين أقرانه من الصبية فلا يعرف له مولد.

حتى أتى يوم وبوغت الحاجب عمran بثورة سيدة، أطاح بكل ما أمامه من أثاث وتماثيل وخدم، ثم أرسل في طلب قارون، صاحب مناجم أرض الفيروز ورئيس قبيلةبني إسرائيل، وجليسه المعين، هاج وماج وقص عليه أن الحلم المشئوم قد تكرر، طفل من قبيلةبني إسرائيل سيكون سبباً في نهايةه، طمأنه قارون بكلمات ثم أرسل في طلب الجنود، أمرهم بتمشيط بيوتبني إسرائيل بيته بيته وقتل كل رضيع يجدونه، سمع عمran الأمر فضرب الدوار رأسه، قاوم رعبه وهو يتبع الجنود من شرفة القصر يتبعدون، تجاه بيته.



في أطراف أراضي القصر، عند بيوت العمال والخدم لمحت أم الوليد القابلة التي ولدتها من خصاص الشباك،  
تجري مضطربة بين أيدي الجنود، يسوقونها أمامهم لتدلهم على موضع من خرجنوا للحياة بين يديها،  
فسللت أم الوليد ثديها من فم الرضيع في هلع ونظرت حولها جزعة لا تدري ما تفعل، حتى وقع النداء في  
صدرها، ذلك الصوت الذي بات يغشى قلبها منذ ولد طفلها: «أرضعي صغيرك حتى الشبع وترقبي، أمر ما  
سيحدث». الآن نفس الصوت يأمرها «ضعيه في السبت». وقع الأقدام العنيف على الأرض لم يمهلها التفكير،  
وضخت رضيعها في السبت وعطاها حين سمعت طرقاً بالباب، سقط قلبها فدخلت الغرفة التي تطل على  
النهر، «أقيه في اليم». صرخ الصوت ففتحت الثلمة التي يستسقي منها أهل البيت، قبلت رضيعها بأنفاس  
تحترق ثم أسلمته للمياه الجاربة وتركت عقلها وقلبها معه.

السبت مصنوع من البردي ومطلي بالزفت، عليه أن يطفو مثل السفن، لكنه لن يصمد أمام فكوك التماسيح  
كادت تولول لو لا أنفتح الباب، دخل الجنود ومن خلفهم عمران الحاجب يلهث، وقف أمامهم بأسطواناته:

ماذا أنتم فاعلون؟

بأمر من الملك نبحث عن رضيع عمره ثلاثة أقمار.

هذا بيتي وأنا حاجب الملك.

لا يستثنى بيت من بيوتبني إسرائيل.

.لسنا من بني إسرائيل، إنما نحن من بيت يعقوب، عشيرة يوسف.

قارون هو سيد عشيرة يوسف الآن، وهو من أمر بتمشيط البيوت دون استثناء، أهؤلاء هم كل أبنائك؟

أشار عمران لطفل لم يبلغ الرابعة وقتها ناهدة:

هذا هارون وتلك مريم.

.سنفتش الغرف.



جاس الجنود خلال الدار بحثاً، نظر عمران لزوجته التي زاغت عينها وابتعدت أن تكون ميتة رضيغه سريعة رحيمه، لحظات ورجل الجنود فهرع إلى غرفة الرضيع، قلب الخيمة ولم يجدوه.

أين الولد؟

سأل أمّه.

بأنفاس تقطعت وقلب انفطر أشارت للثلمة التي يستسقون منها:

وضعته في سبت، وأقيمت في النهر.

نظر إليها عمران غير مستوعب قبل أن يلقي بجسده على الأرض ويفتح الثلمة لينظر، النهر كان يجري ولا أثر للسبت فوقه.

ماذا فعلت؟ أي جنون أصابك يا امرأة؟

قالها عمران وهو يضربيها قبل أن ينطلق بوق القصر يستنفر العاملين للحضور، انطفأ كشمعة طالها اليأس ثم قام بحزن يجر ساقيه وخرج يمسح دموعه فخرجت الأم ومن ورائها مريم، أبصرتا السبت الصغير من ضفة النهر يمر خلف أكواخ البوص، تتبعاته يتمايل فوق المياه راجيتها رب أن تتجنبه التماسيح قبل أن تحبس الأنفاس في صدريهما حين سحبه التيار تجاه البحر، مشو بحداء الساحل حتى اقترب من المرفأ الملكي، كاد يمر من أمامه لولا اصطدامه بحزمة بوص بدلت اتجاهه ليدخل من البوابة، اقترب السبت ببطء من المرسى فلحظه حارس، مد عصا طويلة فال نقطه، سقطت أم الرضيع على ركبتيها حين رفع الحارس صغيرها من قدميه كصغير حيوان رأسه للأسفل، نحب المسكين فنادي الحارس زميلا له، حاوره فكتمت أم الرضيع صرختها بأصابعها، لحظات وهز الحارس رأسه طاعة، ثم غمس رأس الرضيع في المياه فغضت أم موسى أناملها حتى أدمتها، قبل أن تخفي عيني مريم الملتعتين في صدرها حتى لا ترى المياه المالحة تسلب روح أخيها، انكمست صرخات الرضيع ووهنت ضربات يديه في الهواء حين التفت الحارس فجأة إثر نداء أتاه من خلفه، رفع الرضيع من الماء ووقف في إجلال، دققت أم الرضيع النظر فلمحت زوجة الملك تقترب، ومن ورائها ابنتها البرصاء «راحيل»



تحت الكتان الأبيض، تخفي جلدها عن الأعين، تحدثت الملكة مع الحارس بكلمات احنى الحارس بعدها على الأرض باسطا راحتية بالطفل الخمري، التقطته المرأة وربت على ظهره حتى بصفت رئاه المياه فانخرط في بكاء وارتجاف، نظرت لفتاتها مهقاء البشرة، حدثتها بكلمات، ثم عادتا به إلى القصر فسرعتين.

انكفت أم موسى على العشب بكاءً وكادت من الفرح أن تصرخ، لو لا أن تداركتها ابنتها فكتمت صاحتها:

مريم، اذهبني إلى القصر فتقصصي خبر أخيك.

ثم نظرت للقصر وأردفت:

لعل من نجاك من الماء أن يحييك يا ابن بطني.

دلفت مريم إلى القصر واحتقرت الأبواب التي تعبرها يومياً، محاولة الحفاظ على هدوئها المعتاد، وإخفاء أثر الطين الرطب الذي لو ث ساقيها أثناء الركض قرب الساحل مع أهلاها. صعدت إلى جناح الملكة واقتربت من الباب الكبير، لم تجرأ على استراق السمع لكنها ميّزت نحيب أخيها، ذهبت وجاءت مرات ومرات متتصنة تنظيف الأثاث حتى انفتح الباب وخرجت سيدتها الصغيرة، اقتربت ببشرتها المهقاء التي تشوبها بقايا بشرة داكنة كانت يوماً لونها الأصلي:

مريم! أجلبي مناشف ووعاء فيه ماء فاتر.

ركضت مريم فأتت بما طلب منها قبل أن تدلف إلى جناح الملكة، بصرت أخاهما منفطرًا قلبه من البكاء، أمرتها الملكة بتنظيفه ثم دسست سباتها في فمه محاولة تهدئته بترنيمة، غسلت مريم جسد أخيها قبل أن يدخل الملك من الباب، بشعره الطويل المجد ولحيته المُصفرة بحلقات النحاس وذلك العقد الذي ينتهي بنابي خزير بري كبيرين، انتصب شعر مريم وانحبست أنفاسها لكنها لم تملك ترف النظر إليه، فآخر خادمة نظرت في عينيه غرس الأوتاد في يديها ورجليها وتركها معلقة لثلاثة أيام تنكيلاً، اقترب فرعون بهدوء، تأمل الرضيع للحظات ثم نظر لابنته ولزوجته التي اضطربت ملامحها:



أهذا هو الرضيع الذي جلبه البحر إلى مرسى القصر؟

ربما ماتت أمه أو أثقلتها معيشته.

نظر الملك إلى الرضيع ثم التقطه ورَقْعَه في الهواء يتأمل ملامحه العَابِسَة ثم ابتسم:

حقيق على الأسماك أن تأبى التهامه.

اقترن الملكة من زوجها:

جميل أليس كذلك؟

ابتسم الملك:

ماذا ستسميئه؟

نهَلَل وجه الملكة:

سأسميه... موسى.

موسى، اسم جميل، لولا أن البحر لا يطرح إلا السمك الفاسد.

لاخ الاضطراب في وجه الملكة:

غنى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً.

حين أريد الإنجاب فلن يكون وجه ولادي كوجوه العَبَيد، انظري، إنه يشبه تلك الأمة الساجدة.

وأشار لمريم التي تقاوم رعشتها ثم أردف:

أراهنك أنه ابن بطن زانية من خرائب الإسرائيليين.



واتجه إلى النافذة ينوي إلقاءه فاستمسكت الملكة برسغه وحفرت مريم الأرض بجدهتها متضرعة حين صرخت

راحيل:

أبي... .

ثم قالت مقاومة أنفاسها المتهدجة:

. أتوسل إليك أن لا تفعل، ليلة أمس رأيت في المنام أن شفاء بشرتي سيكون في لعاب رضيع،وها هو النهر  
يقدّسه بين أيدينا، إنها علامة من السماء.

السماء لا تنفكين تتبعين النجوم!

تضُرَّعت الملكة:

أسترحمك أن تتركه حياً.

نظر فرعون في عيني ابنته ثم للرضيع الذي سأله لعابه بكاء:

. حسناً، ليجي طريح البحر يوماً آخر، لكن لا تبكيه حين أقتله إذا مرض مثل حصانك الذي بكنته شهوراً.

ثم تركه فرعون بين يدي زوجته وخرج، زفت راحيل وقامت مريم من سجدها بوجه هربت الدماء منه فنظرت  
الملكة إلى الرضيع:

. لا أعرف يا صغيري إن كان رب قد ابتعاك لك عمرًا جديداً، أم كتب عليك العذاب بين يدي قاتل الأطفال مفرق  
القبائل. على أي حال ستعيش في كنفني، أرعاك ما امتد بي العمر، ولبيتوك الرب من بعدي.

ثم التفتت لراحيل:

موسى يبغى ثدياً.



بأمر الملك جيء بثلاث مرضعات إلى القصر للفحص الرضيع أثداءهن، اشتد صراؤه حتى خشيت أن يتملك الجنون من الملك ثانية فيقتله، كان ذلك حين تجرأت مریم وقالت:

د. قد كان لدى أخي، هات يوم ولد، وثدي ألمى منتفخ، لا آتني بها فترض عنه؟

وافقت الملكة فألت أم موسى في وجل ترتجف، التقطت رضيعها بيد مرتعشة محاولة إخفاء فرحتها، سُكِّنَ بين يديها حين رأها، رضع حتى شبع ثم نام في يَسْرٍ.

۱۰

بصوت عالٍ نادى صاحب الحانة، فبحارة الفجر الذين يشتهون الجمعة اشتهر النساء بدعوا في التهافت. رفع كاي بوصته وسدّ فم المحبرة ثم أخفق بردياته ونزل إلى الحانة. حمل البراميل وغسل الأكواب ثم جلس في ركن يرى منه الواردين، مخفياً ملائمه في الظل. شارداً في قصة موسى: رجل الرعاة المنتشر من الماء، قصة من تراث يرجع لالف وثلاثمائة عام مضت، «قصة لا تستحق أن يقتل معلمي بسبها، لا تستحق أن أطمرد من جنة الله بسبها، أي لعنة تحوي تلك البرديات؟ وأي مصير ينتظري؟». سأله نفسه فتلقي إجابة بعثت في نفسه القشعريرة، أغمض عينيه محاولاً الهرب إلى عالمه المفضل، بين أعمدة المعبد، ظالها التي تبث فيه الطمأنينة بضماتها، وأسواره العالية التي تحجب عنه الضوضاء والريح، لا يقطعه عن تخيلها سوى هواجسه تجاه كل غريب يدخل الحانة، وطيف ابنة الطبيب الهارب التي أشغلت في أسفل رئتيه كومة قيش طالما حرص عمره على عدم اقترابها من النار، يبتليها كل يوم بذكر الراعي والتسبيح باسمه الذي نسي من أجله اسمه، فالجسد زاهد، والقلب خاشع، واللسان ساكن لا يحركه إلا ترتيل كلمات الله، لا أميس، لا غد، لا كاهن، ولا كاي.

لستهل الكاهن الأعظم في برازخه حتى أحد ما أصلح به تمثال ادريس

أو يلعنني، فيبتلعني، البحر

هـ، ترددت الكلمات عن رحاب من الاعاة ولو ذكرته هيبة معظم ثالثاً ادريس؟



أو تأتي بقاتل الكاهن؟

وماذا بعد الترجمة؟

ذلك الفعل اللاإرادي، ذلك العجز واليأس.

تكلم أيها القتيل، زر أحلامي، أرشدني إلى معنى لمقتلك، معنى لخروجي مذموماً مذحوراً من معبدى الأنيرا

أو مغزى للقائي تلك الأنثى في ذلك الوقت!

ما الذي تحرك بداخلي؟

لمن تخترق صدري بلا مقاومة كرم حاد يُعرف طريقه؟

بحة صوتها أم رموش عينيها؟

أم رائحة تتطاير عن جلدتها لتأسر عقلني فتسليه التعقل؟

نار لا أستطيع العيش بجانبها، إما أطفئها، وإما أحترق بها.

لأقنعن صاحبها بالخروج معنا، من أجل فضل أبيها.

ومن أجل يوم آخر بجوارها.

أو لتدهب إلى الجحيم وراءه.

فهي امرأة كاملة لا تنتظر من يهدّيها.

فللت منه آخر الكلمات فالتفتت بعض الرءوس، قام فاتجه إلى الساقى:

كيف أجد آرام؟



ابتسم الرجل:

. لا أنسنك الاقتراب من الكلاب، فصدره ضيق حرج كالابه المجننة.

. سأقول له قوّاً ليننا لن يكرره.

.اليوم يوم المصارعة، ستتجده في ساحة ديونيسيوس قرب البحر.

---

(ا) بحر البوص: هو البحر الأحمر حالياً. وقد حدث الخطأ في الترجمة حين ترجمت كلمة «Reed» وتعني البوص إلى

«Red»

(ب) «واست»: الاسم القديم لمدينة «طيبة» التي أصبحت الأقصر.





لم تكن ساحة «ديونيسيوس» بعيدة عن شاطئ البحر، ميدان يتسع لعشرين حلبات مسؤولة بألواح الخشب ومغطاة بالشبك، تقام فيها مصارعات الكلاب كل يوم أحد، يكتظ المكان بمربيها وسماسرة الرهونات، والمراقبين الذين يتبعون القروض نظير نسبة عالية من الربح، يطوف بينهم الطبلانون والزمارون، عازفين نغمات صاخبة تلهب حماس المتنافسين وتحفيج كلابهم التي تقام المزادات لبيعها وتبادل الفائز منها، أما التي تنفق فتباع رءوسها للمحتذبين وتصنف من جلودها الأحذية والملابس.

خاض كاي في الجموع بحثاً عن آرام، فتمنى من قلبه لا يجده، معها، فسح بعينيه الحلبات المشتعلة بالنباح والتمزيق وصراخ المتشجعين حتى لمحها في رداء كثاني، واقفة خلف عاشق فتيم يتحدث إلى رجل، وفي قبضته كلبه الشرس يقاوم جنيراً يحيط عنقه، تسمُّر كاي في مكانه يتأملها، كعباً يضرب الأرض على نغمات الطبلول، خصراً ينثنى في ميوعة، وكفاً رقيقة تربت على شعر فموج تحجيناً لنورته، أما عيناهما فتحملان نظرة شاهدها في أول لقاء بينهما، سحراً وشروعداً، وغضباً مكبوتاً، ثم لمحته، التقت الأعين للحظات لم تطل قبل أن تشيح بوجهها متصنة الانشغال، وازداد كعبها ضرباً على الأرض، اقترب كاي خطوات فلم تعره اهتماماً، ثم نفخ البوق إذاناً ببدء مباراة، سحب آرام كلبه وسط تهليل المتشجعين والمراهنيين، أدخله الحلبة ثم انफأ على عنقه يدلكه وبهمس في أذنه بكلمات زمرة الكلب، ثم دخل منافس من نفس الفصيلة، فكَ الطوق عنهما وبدأت المباراة الدموية، صرخ آرام: «سيريبروس، سيريبروس». فردد المراهنون وراءه الاسم ورفعوا عِمالاتهم يزايدون فلمعت أعين المراقبين وبدعوا ينادون بالقروض، أما



ناديا فوقفت على بعد أذرع، مُشبكة يديها تشب على أطراف أصابعها لترى، كان ذلك حين اقترب كاي، وقف بجانبها لحظات تعمدت فيها ألا تنتبه إلى وجوده حتى تكلم:

. يقولون إنَّ الإنسان إذا التفت لإرادياً ناحيةٍ من يرمقه؛ فهو يملك حالةً نورانيةً من حالات الرب.

أجابت دون أن تنظر إليه:

. محاولةً جيدةً لإصلاح ما أفسدت.

. صاحب الحانة رجل لا يكتم سرراً، وعاشقك غبور يقتل الرجال من أجلك.

. لا تقلق، فأنت لست من النوع الذي يرودني، كما أنَّ كل من أحبوني غاروا مثله.

. رأسك يستمتع بالتفكير!

. لم لا؟ الرجال يعشقون الصراع على الأنثى.

. لم تعشقي أحدهم؟

. ما قيلت تتكلم عن العشق أيها الكاهن!

. أنكِلِمْ عما لا تعرفيه.

التفت إليه:

. ماذا تقول؟

. أقول أنَّ لا أحد قد شغف قلبك، إنْ كنتِ عشتَ لتعلمت الرحمة.

. وهذا ما تفعله في المعبد؟ تُوهم الناس بأنَّ الرب قد كشف لأجلك أسرار النفوس فيصدقون كل ما تقول.

. الرب لا يكشف سر عبد، إنما هي فراسة الجسد والملامح والأكف.



. فراسة!

أشاحت بوجهها وهزت ساقها على نغمات الطبول، تريده أن يكمل دون أن تبدي اهتماماً، فأذناها تهوى حديث العشق وإن جاء مع انتقاد، ثم نفذ صبرها، بغتة:

. أكمل أيها الكاهن.

. عدبني ألا تغضبي.

: زلت شفتيها

. أعدك.

. وأن تعترفي إن أصبت.

زفرت في نفاد صبر فم راحته فأرخت يمناها، تأملها لدقائق طالت حتى هزت ساقيها استعجالاً، ثم تكلم:

. لديك قلب ضعيف.

حاولت ناديا كتمان دهشتها:

. حفغان اعتدته، يداهمني كلما تعكررت مياهي.

. أحذري الإجهاد.

. إن مت فأفضل الموت وأنا أرقص.

ثم لاحظ في التل الأوسط بين السباية والوسطى خطيبين متقطعين في شكل صليب، كتم انزعاجه فلاحظت:

. ماذا رأيت؟

. رأيت هواجس تمليك أفكاراً ظالمة.



. الرجال ينفرون من الأنثى التي تفكـر.

ابتسـم كـاي وـهـو يـقـلـبـ كـفـهاـ:

. رـوحـكـ تحـمـلـ السـكـينـةـ والـجـنـونـ مـعـاـ، نـارـيـةـ المـزـاجـ يـسـوقـكـ الجـمـوحـ وـالـعـنـادـ، أـمـاـ عـنـ خـطـ القـلـبـ فـيـنـتـهـيـ عـنـدـ السـبـابـةـ، عـاطـفـتـكـ جـامـحةـ لـاـ يـحـدـهـاـ عـقـلـ.

. هـرـاءـ، لـمـ يـذـبـنـيـ العـشـقـ يـوـمـاـ.

ضـغـطـ عـلـىـ أـوـلـ عـقـلـةـ فـيـ إـبـهـاـمـهـاـ وـكـانـتـ كـبـيرـةـ، لـكـنـهـاـ اـنـثـنـتـ فـيـ لـيـوـنـةـ، أـرـدـفـ:

. لـكـ إـرـادـةـ لـاـ يـسـتـهـانـ بـهـاـ، لـكـنـهـاـ تـدارـيـ لـلـعـجـبـ هـشـاشـةـ وـضـعـفـاـ.

تـبـيـسـتـ حـدـقـتـاـهـاـ وـانـفـرـجـتـ شـفـتـاـهـاـ قـلـيلـاـ ثـمـ اـنـتـبـهـتـ لـنـفـسـهـاـ فـسـحـبـتـ كـفـهاـ وـنـظـرـتـ فـيـ عـيـنـيـهـ مـتـحـديـهـ:

. تـعـنـدـ بـنـفـسـكـ وـتـخـتـالـ، وـبـيـنـكـ وـبـيـنـ الـحـقـيقـةـ جـبـالـ.

أـرـدـفـ كـايـ:

. سـاحـكيـ لـكـ قـصـةـ خـطـواـنـكـ فـيـ قـلـوبـ الرـجـالـ، عـاشـقـكـ بـرـىـ فـيـ عـيـنـيـكـ عـدـمـ الرـضاـ أوـ الـاـكـتـفـاءـ، فـيـسـأـلـ: مـاـ بـالـ تـلـكـ الـفـتـاةـ تـنـفـرـ رـغـمـ عـنـيـاتـيـ وـتـدـلـيـلـيـ؟ـ لـاـ يـعـرـفـ أـنـهـ يـعـشـقـ جـمـيـلـةـ مـلـوـلـةـ لـاـ تـكـادـ تـنـظـرـ لـلـشـيـءـ مـرـتـبـينـ، تـزـدـادـ نـفـسـهـ اـضـطـرـابـاـ فـيـسـعـىـ جـاهـدـاـ لـإـرـضـائـكـ، حـتـىـ لـاـ يـتـحـولـ الشـكـ فـيـ قـدـرـاتـهـ إـلـىـ يـقـيـنـ، يـقـرـبـ فـتـبـتـعـدـيـنـ، يـزـدـادـ إـقـبـالـاـ وـتـكـالـبـاـ عـلـيـكـ فـتـنـقـرـيـنـ، يـرـتـوـيـ غـرـورـكـ وـيـسـبـغـ عـلـيـكـ ثـوـبـاـ مـنـ الـقـسـوةـ، يـتوـهـمـ عـاشـقـكـ أـنـ جـدـوـهـ قـلـبـكـ قدـ خـبـتـ فـتـشـتـعـلـ الغـيـرـةـ فـيـ صـدـرـهـ وـيـضـطـرـمـ الشـكـ، كـنـارـ فـوـقـهاـ زـيـتـ، لـعـلـهـاـ قـاـبـلـتـ مـنـ أـعـجـبـهاـ، مـنـ هـوـ أـوـسـمـ منـيـ وـأـقـوـيـ، لـيـسـتـحـبـلـ كـلـ رـجـلـ فـيـ مـحـيـطـكـ مـنـافـسـاـ لـهـ، يـثـيرـ الـعـاصـفـةـ السـاخـنـةـ فـيـ صـدـرـهـ، وـأـنـتـ سـيـدةـ كـرـيمـةـ، لـاـ تـرـدـيـنـ اـبـتـسـامـةـ وـلـاـ تـلـفـظـيـنـ عـاـشـقـاـ، كـاـلـزـهـرـةـ الـفـواـحةـ، لـاـ تـتـوـقـفـ عـنـ جـذـبـ النـحـلـ إـلـيـهاـ وـالـاسـتـمـتـاعـ بـطـوـافـهـ حـولـهـاـ.

بـاـنـتـ هـزـةـ سـاقـهـاـ أـكـثـرـ عـنـقـاـ:



ثم؟

ثم تحولين إلى عبدة مملوكة بعد أن كنت أميرة متوجة، طائر ملوّن حبس قفص، لا تقدرين على استنشاق الهواء إلا بإذنه، يقضي لك ما تأمرين طالما لا تنظري إلا تجاهه، يمنحك الحياة، ويسلّبها في آن واحد، بدون قصد، أو بقصد، كشفت ضعفه.

بطوّت هزة ساقها:

. وبعد...؟

ستنفررين منه وتصدّين، لكنك لن تملكي منه فراراً بعد أن بات أنت كوابيسه... أن تخيلك في أحضان رجل غيره: إنه حب التملك.

توقفت هزة ساقها وانتفخت فتحتا أنفها في شهيق بطيء، نظرت في عينيه لحظات ثم ابتسمت:

لا أشد قتل أحلامك لكن لك أن تعرف، فالسنوات التي عشتها في إليوسيس علمتني قراءة الرجال، فأنتم لا تختلفون كثيراً عن الأطفال، لولوح أنثى تفعلون الأفاعيل، إما تندفعون كالثيران في رغبة محمومة بلا عقل، وإما كالشعراء، تبئون السحر في الآذان حتى تسقط الأنثى في حبان لكم، تلك الطائفة يظلون فهمنا، وتجاربهم، حتى يستمتعوا بشهوة الصيد، وهم الضيّد.

نظر في عينيها ثم شفتيها ومنع نفسه عن الكلام، لاحظت فابتسمت:

. هل لفراستك المزعومة قول في شفتني؟

أجابها بعد صمت:

. امتلأوها ذكاء وكره، وشهوتها متدفقة.

احمر وجهها:



.ليس سيئاً بالنسبة لكاهن.

.لا أغازلك، إنما سئلت فأجبت.

كُرِّت على أسنانها غيظاً حين انطلق بوق فصاخ آرام وأغلب المراهنيين فرحاً بالفوز، دَخَلَ الحلبة وجرَ كلبه الجاثم فوق منافسه، وضع الطوق في العنق وخرج بعينين تبحثان عن ناديا حتى وجدها، بجانب كاي، انقلبت سعادته غضباً فاقترب:

.ماذا يريد؟

سؤال ناديا.

أجاب كاي:

.صفقة رابحة.

لوي آرام شفتيه وهو يتأمل هيئة كاي.

.ما يتناوله كلبي على العشاء يفوق ما تأكله أنت في شهر.

.أحدّثك عن الذهب.

ضاقت عينا آرام:

.ومن أين لك به؟

.أن تلتقي ناديا بأبيها هو ثمن المعرفة.

ابتسم آرام ثم نظر لناديا التي انحبست أنفاسها:

.كنت أظنك تثيرين البحارة فقط، ها أنت تجذبين لصوصاً!



قالها آرام ثم استلَّ من حِزامه سِكينًا فتراجع كاي خطوة، وضع النصل فوق كبدِه ثم همس:

رُثُ الثياب وتعِدْنِي الذهب! أي مَخْبولٌ تظنني؟

لقد ذقت مَكراً كاهن يجمع التبرعات لِإله ويستأثر بها لنفسه، كنت أكذب عيني حتى اتهموني زوراً وكدت ألقى حتفي.

أعرف أين يَخْبئُ الذهب وأريد أن ألقنه درساً.

ولم لم تسْرِقَ الذهب لنفسك؟

أقسِمت ألا أمس ذلك الذهب ما حَيَّيت، ملعون من الرب إن فعلت، إنما قررت أن أهبه لِفَعْلِ الخير، وحين انْقَذْنِي والد

ناديا رأيت أن أرد صنيعه في ابنته.

جذبت ناديا ذراع آرام وهَمَسَتْ في أذنه:

الذهب نظير لِقائي بأبي.

أبوك لم يحفظك.

دعني أقولها في وجهه.

وَخَزَ آرام جلد كاي بسِكينه:

لا أثق في لص.

أجابته ناديا:

ستكون معي أينما حللت، وسأعود معك إلى الإسكندرية، فليس لي مكان إلا هنا.

نظر لناديا ثم لكاي، ودارت في عينيه شياطين البحر قبل أن يَكْبَلَ عَضْدَ ناديا بأصابعه الغليظة.

تنهافتين على كلمات أشعث رُثُ الثياب رائحة كلبي أرکي من رائحته، إن كان معه الذهب لأتو بأبيك إلى هنا يا خرقاء.



.أتوسل إليك يا آرام.

التفت آرام لكاي صارخاً:

. إن اقتربت منها ثانية فسيتولى أمرك «سiberiburos».

قالها وأغمد سكينه في الجراب ثم جذب طوق الكلب بيد، وباليد الأخرى ناديا، تابعها كاي تبتعد قبل أن يأخذ طريقه

راجعا إلى الحانة.





قضى موسى طفولته في قصر الملك «فرعون» حتى صار فتى قوياً له جسد أبيه وعيها أمه، صمود ثابت العينين، مكظوم النفس من حمود في رب بيته وتجاهل، فهو «طريح الماء» الذي عاش بفضل سيدة القصر، لا يُعرف له أب أو أم، مرهونة راحتة بانصراف عيني فرعون عنه، فرعون الملهمي برغبته المستمرة في إنجاب ذكر يورثه الملك من بعده، يرسل في أقصاصي المدن ليأتوه بأبكار القبائل عسى إحداهم أن تصير أمّا لولي العهد، ولم تحبل واحدة، وفن أنيجت جاء ولیدها فشوة الخلقة قبل أن يدركه الموت وهو ابن أيام.

تفاقم الغضب فيه واحتتعل جنونه، فقبائل العمالق من تحته تترىص بعرشه، والجيبيتين تقوى شوكتهم تحت إمرة «سقون راعي» حاكم «واست» في الجنوب، يتحينون لحظة ضعف ليجتاحوا الشمال تحريراً لأراضيهم.

وفي يوم، أرسل فرعون رسالة إلى حاكم الجيبيتين تقول:

«إن أصوات أفراس النهر في بحيرات «واست» تصل إلى «هوارة» فتنزعج منامي، من الأفضل لك أن يتم إسكاتها، أما رب مدینتك، فـ«سوتخ» إلهنا المحبوب القوي تأولى من إلruk أن ترفع تماثيله ويُمجَّد اسمه في معابدكم».

وفهم حاكم الجيبيتين الرسالة، الملك فرعون علم بأمر التحالف المقام بين مدن الجنوب لاجتياح «هوارة»، أسماهم أفراس النهر في بحيرات «واست»، وأما عن تخلي مدن الجنوب عن إلهها فاختبار خضع وولاء، واستفزاز.



قبل أن يعود الرسول من «واست» إلى «هوارة» كان فرعون قد جَمَعَ الملاً من رءوس العشائر والقبائل في قاعة العرش، خرج عليهم بقناع من الذهب على هيئة رأس عجل وصلجان، جلس فوق عرشه وساوى بأنامله لحيته المُضْفَرَةَ وحلقات النحاس المُتَدَلِّيَةِ مِنْهَا ثُمَّ قال:

. سأخوض حرباً ضد الجبتيين.

التزم الجميع صمتاً قطعه أحد رؤساء القبائل:

. ألا ننتظر حتى يأتيونا؟

. بل سنذهب إليهم لنجهض أحلامهم، وسأكون على رأس الجيش.

قال آخر:

. وإن قُتلت؟ من سيرث جَعْبةَ سهامك؟

. منذ متى ورب الجنود في حاجة إلى وريث؟

نظر الملا إلى بعضهم بعضاً محاولين استيعاب ما تفوَّه به الملك حين أردف:

. ما علمت لكم من إله غير رب الصحراء «سوتخ» العظيم، في جسدي تسكن روحه، ومن رأسي يخرج قرناه، وعلى لسانني يجري قوله، وقد أسبغ على الخلود، وأمر بيدي وقدمي باستعادة ملكه المنهوب من نسل حاكم الجبتيين «سقnen راعي»، حفيد «إدريس» الذي اغتصب عرش تلك الأرض قبل زمان العروش.

انطبق المصمت حتى كاد دبيب الحشرات أن يسمع، نظر رؤساء القبائل بعضهم إلى بعض في ذهول ثم تقدّم أحدهم:

. إن كانت روح إله في جسده فآتنا بأية؟

نظر إليه فرعون ثم ابتسم قبل أن يقوم من فوق عرشه وينزل الدرجات:



سأريك بآية، ولكن، أتعرف مصير من لا يصدق بالآيات يا كبير «جَرْهُم» ﴿٦﴾؟

أتنا بوحدة وستجدي وقبيلتي من المؤمنين.

حسناً، استلقي على بطنه.

تردد الرجل للحظات ثم استلقي على بطنه في قلق قبل أن يضع فرعون قدمه فوق ظهره فاستنكر:

أثبت، فقد طلبت من الإله آية.

ثم نظر في وجوه رؤساء القبائل المترقبين وصاح في الرأيدين:

لتكن أنت الآية.

قالها فرعون ثم استل خنجرًا ذا مقبض على هيئة رأس حصان وأغمده في كف الرجل الممدودة بجانب رأسه حتى اخترق أرض المجلس. صرخ الرجل صرخة مريرة فاضطرب الجميع واستنكرت الأنفس وتأهب الحراس **المحيطون فأردف فرعون**:

لا تتعجل واثبّت، فالآية لم تأت بعد.

قالها ثم استل فأسه الذهبية مرداً:

إن من ينكر حلول الرب في هذا الجسد...

وبعزم قوته نزل على اليد الثانية فبترها في ضربة فانفجرت الدماء. صرخ الرجل حتى تحشرج صوته فعلاً صوت **فرعون على صوته**:

تقطع يداه.

ثم رجع خطوة ورفع فأسه ثم نزل على الساق اليسرى فبترها وسط هلع رؤساء القبائل الذين تراجعوا خطوات:



. ورجاله من خلاف، ويصلب بالأوتاد في جذوع النخل.

ثم هوى على الساق اليمني فبترها في ضربتين فتختضب وجهه بالدماء قبل أن يردد:

. أو أعلن الحرب على قبيلته فأبيد رجالها وأستحيي نساعها. واسألاوابني إسرائيل الذين ظنوا أنفسهم يوماً ملوك تلك الأرض.

قالها وهو يلهمث من فرط الانفعال قبل أن يجثو على ركبتيه بجانب وجه رئيس القبيلة الذي زاغت عيناه وارتعشت روحه:

. أتمنى أن تكون تلك الآية كافية؟

ثم صرخ في الحُرَّاس:

. نظفوا الأرض وارفعوه على نخلة أراها من شرفتي حتى تأكل الطير رأسه.

فتقدم «هامان» رئيس قبيلة «يهودا» وجثا:

. الملك لفرعون، رب الجنود.

ثم تقدم «قارون» رئيس قبيلةبني إسرائيل، جثا بجانب هامان:

. الملك لفرعون، رب الجنود.

وتواترت الرؤوس ركوعاً وسجوداً حتى لم يعُد في القاعة رأس قائم، إلا رأس فرعون، وانطلقت الحملة، جند فرعون فوق عرباتهم في المقدمة، وجند قبيلة يهودا بقيادة هامان في الوسط، ومن ورائهم رجال قبيلةبني إسرائيل يحملون المؤن والحراب متراجلين، ثم باقي أحلاف القبائل في جماعات قتالية متفرقة، والتقطت الجيوش، اجتاحت عربات الهكسوس عربات الجيبتيين البدائيين قليلة العدد، هزست الأجساد وشتتت الجموع، وانطلقت الأسهم المزدوجة طويلة المدى لتخترق الدروع والصدور، صمد الجيبتيون نهاراً كاملاً تحت وطأة موجات لا تنتهي من



الخيول والعربات الجامحة، حتى غربت الشمس، قبل آخر ضوء شقت الصفوف المتتشابكة موجة من العربات في تشكيل مثلث رأسه ناحية حاكم الجنبيين الرايسي على عربته. طوح يديه في الأعنق والرعوس حتى تكملوا حوله ونجحوا في فتح ثغرة بين حارسه، تلقى بلطة في خده الأيمن كسرت عظام وجنته فسقط من فوق العربة لتهوي الفتوس والرماح على رأسه حتى خرج منه من جبهته، توقف القتال للحظات قبل أن يصبح جند البدو في فورة جنون ويرفعون راية، ما إن رأها فرعون حتى ابتسם ظفراً ورفع سيفه عالياً ودار بعربته مبتعداً.

في الأيام الثلاثة التالية أقام قصر فرعون احتفالات لم يسبق لها مثيل، دعى الملا من رءوس القبائل والعشائر وسائل النبيذ أنهاها فوق سالم القصر إلى الأرض، احتفالات لم يحضرها الأمير المنبوذ موسى. كان يجلس بجانب سرير أمه التي ينهشها المرض منذ شهور، وبجانبه مرضعته التي صارت أمه الثانية، وأخته التي دائمًا ما ذكرته بأن لعابه رضيعًا كان السبب في شفاء جلدها من البرص. تابع موسى عيني أمه تخبوان حتى فارقاها بريق الحياة، قبل يدها وجبينها وبكت أخته لهقا فيما سجدت مرضعته العجوز في بيت وكمد.

وسط فجون احتفالات النصر خرج موسى متوجهًا إلى قاعة الملك، تخطى الحاضرين حتى وقف بين يديه:

ماتت أمّي؟

نظر إليه الملك للحظات ثم قام من رقدته واقترب منه:

ومن هي أمك؟

أمي، الملكة.

آسيا بنت مزاجم حفيدة الملك خيان هي أمك؟

ثم اقترب من موسى وهمس في أذنه:

لا بد أنني أبوك إذن؟

لم ينبع موسى بكلمة، رمقه في صمت فوضع فرعون كأسه وخرج.



في الغرفة احتضن فرعون ابنته راحيل التي قطّعها النحيب، ضمّها وقبل جبينها وهمس في أذنها بالصبر، ثم التفت لمريمة موسى الساجدة على الأرض:

خذل راحيل إلی غرفتها لتسريح.

احتضنت المربية راحيل وساعدتها على الخروج. اقترب فرعون من جسد الملكة المسجى فوق الفراش، نظر إليه للحظات ثم اقترب من الشرفة، نظر للبيوت البعيدة المضاءة بالشمع:

ترى في أي بيت من تلك البيوت زنت أمك؟

**كظم موسى غيظه وأحنى رأسه فاردف فرعون:**

في يوم من الأيام، أحياك تلك المرأة، بعد أن كدت أقييك من الشرفة، وهذا أنت اليوم تقف أمام جسدها لتدعي أنها أمك.

لـ عـرـفـتـ لـوـ أـفـاـ لـذـهـبـتـ الـبـهاـ

لِيْسَ مِنَ الْعَسْرِ لِسُكُوكِ الْوَدَائِبِ الْمُنْبَذِّرِ، فَمَا مَحِكَ تَطْبِيقَ مَعْهُمْ.

ألا تخرج نسب كل رعاة الشّرق من أصل واحد؟

بلي، ولكن القبائل درجات يا داكن البشرة. هنالك آل فرعون، أسود بريء فاران وورثة ثمود، وهنالك الكلاب، مثل

٧٩٦ لعنها الاب ودفنه

الضريبة لم تهلكنا، وهذا نحن نستعيد قوتنا للنجد له الصاع ضائعين.

ما منعك من قتلو حين استطعت؟



. كيف أقتلك وقد رأيْتَ راحيل في المنام أثك سبب شفائها، مثلما يُشفى الروح ببعض أنواع القبح.

لماذا تكرهني لذلك الحد؟

أنا لا أكرهك، ولا أحبك، أنا لا أراك، ليبق خبر وفاة الملكة تحت لسانك حتى تنتهي الاحتفالات، لا يقتل للجيبيتين ملك كل يوم.

قالها فرعون وخرج، فقبل موسى جبين الملكة ثم اتجه للخلاء.

دبت قدماه على الأرض حتى كاد يدميها؛ صحراء شاسعة تقع في الجانب الغربي خارج حدود المدينة، راغباً في بقعة تموت فيها الأصوات وتكتف الأحزان عن الصراخ في قلبه، فشوا حتى غلّفه الصمت واحتضنته أحجار الجبال، ثم توقف فجأة، سقط جسده على الرمال وشخصت عيناه في النجوم، ساعات لم يُحصها حتى استشعر خطوات تقترب، التفت فرأى بريق عيني ضبع يتربّص، يسير وحيداً دون جماعته! جلس موسى على ركبتيه حين اقترب الحيوان مُكشراً عن أنبياه، نظر في عيني مُوسى للحظات ثم زُجّر، رقمه موسى حتى تمنى أن ينهشه ليُنهي عذابه، ثم تمشت أنامله على الرمال حتى مَيَّز صخرة، طوّحها على غرة تجاه فك الحيوان فاصطدمت به مُهشمة أسنانه، عوى الضبع في ألم وفر هارباً فاتبعه موسى بصرخة مزقت الليل وحنجرته، ثم انكفا على وجهه، بكى بحرقة ونَحَّ وَنَسَجَ حتى ابتلع الرمال، قبل أن يقوم لاهثاً ويجر قدميه من فرط الإجهاد عائداً للمدينة.

قرب سور القصر كانت واقفة في انتظاره تحت سدرة، هزيلة محنيناً ظهرها من الخدمة لسنين لم يُحصها، فمنذ وعي تلك العجوز أمّاه، تسعى لراحةه وتحمّل نضجه، اقترب منها يتأمل وجهها في وهج المشاعل، رفعت يدها اليابسة ولا مُستّ خدّه قبل أن تتحضنه، بكى على كتفها في صمت فربت على صدره وهمست:

يا بُنِي، الموت حق.

لِمَ اختارها الرب ولم يختاره؟ لقد كان يُصلِّيَها بكلماته في غدواته وروحاته.



لم يتزوجها إلا لأنها سليلة بيت الملك خيان؛ الملك في عهد يوسف صاحب الخزائن.

لا يؤلمني إلا عدم اكتراثه، أبلغته الخبر فنظر إلى جسدها للحظة ثم رجع إلى مجونه غير آسف.

لا تنتظر الرحمة من أعرابي جلف يقتل النساء والأطفال.

أن أعيش بين أهل المدينة ابن زنى خير لي من أن يربيني هذا الجلف ويسبغ عليَّ من فضله.

لست ابن زنى ورب السماءات...

تقسمين بغيض لا تدركينه.

سكت لسانها عن الجواب فضاقت عيناً موسى ومال رأسه:

أنت تعرفين... أنت تعرفين من أنا؟

غاصت عيناه ولم تجبه فأمسك كتفيها برفق،

عيشت في القصر سنين قبل أن أدرك أنّي غريب منتشر من بحر القيط فيه، تحملت كراهية سفيه متكبر وتجرعت شططه، وكابدت همس الخدم من ورائي. يقولون إني ابن زانية منبني إسرائيل، والآن، تقولين إنك تعرفين انتطقي يا امرأة.

سأمحني، فالامر لم يكن يوماً بيدي، لك أن تعرف يا بني أنك لست لقيطاً، ولا ابن زنى، ولست منبني إسرائيل، أنت من أحفاد القتيل.

يوسف؟

الصديق المبارك، صاحب خزائن القمح الذي قتله بنو إسرائيل غيلة وطمعاً.

تعرق وجه موسى وتلاحت أنفاسه:



. من هو أبي؟

. عمران، حاجب إيوان الملك، وزوجي.

. ووهنت فتيلة السراج حتى اكتسى الوجه بالزرقة.

اُنسقت حدقتا كاي مقاومة الإعتام قبل أن يقوم من جلسته بساق وذرها التنميل، مذ يده فرفع الفتيلة حين أنت أخشاب الأرضية عند باب الغرفة تحت ثقل، أنصت حتى سمع الطرق، فتح الباب فوجدها، تبiss للحظات قبل أن يقطع

الصمت:

. تفضلي.

دخلت فجلست على الكرسي الوحيد، على ضوء السراج لمح احمراراً مختلطًا بزرقة بين عينيها وشفتيها فاقترب،  
جلس على ركبتيه في خشوع:

. ماذا حدث؟

. كما ترى.

وسالت دموعها في صمت، اضطربت أنفاس كاي فالنقط رداءه الكتاني وغمسه في إناء ماء ثم وضعه على وجنتها  
و حاجبها.

. ماذا حدث؟

. ضرب رأسى فلم أشعر بنفسي، حتى تبولت في ثوبى.

. كلماتي هي السبب؟

. ربما، يظنّني أرغبك.



. لا أبغى تعكير صفو أيامك.

. هي متعكرة كمياء آسنة.

. وما يُجبرك؟

. وماذا أملك؟

. تملكين الحرية.

. فتاة وحيدة في إليوسيس، قطيبة للرجال، آرام انتشلني من عاشقين استباحا جسدي بلا عاطفة، قطفا زهرتي واستمتعا برجيلي قبل أن يهربا خلف أخريات، الرجال يحبون التغيير، أما آرام، فعشقني، وحماني، جعلني سيدته، قبل أن أصير خادمته، قمره الذي يدور في فلكه، لا جز ولا مد دوني، أنا فقط.

. وكلايه.

. كسا الغضب ملامحها:

. لا أعرف لم أحكي لك! ففي عينيك شيء لا يترك لي مجالا للاختيار.

. نحتاج للحقيقة رغم قسوتها.

. أردفت بعد صمت:

. روعتنني كلماتك عند حلبة المصارعة، معانيها تدق صدري منذ شهور.

. وما منعك أن توافقيني؟

. يقين في عينيك عز على أن يكون في محله، وحديثك مع الساقي، قلت إنني لا أروقك، تلك الكلمات كافية لإشعال جداول النساء.



ابتسِم كَاي مَلْطَفًا:

. جَمَالُك يُشْفِعُ لَكِ حِمَاقْتَكِ.

. جَمَالِي لِعْنِتِي.

. لَا تَكْرَهِي هَبَةَ إِلَهٍ.

. هَبْتَهُ تَسْتَعِبَدُ أَمَامَ عَيْنِيهِ وَلَا يَنْفَعُ.

. بَلْ مَا أَرْدَتِ أَنْتِ هُوَ مَا سِيَكُونُ.

. إِنَّمَا نَحْنُ دَمَقِي دَشْبِيَّةَ بِلَهُو بِهَا كَيْفَ يَشَاءُ، يَحْطُمُهَا إِنْ شَاءَ، وَيَرْسِلُهَا إِلَى فَمِ ثَعْبَانٍ إِنْ شَاءَ! يَا لَهُ مِنْ عَابِثٍ مُتَكَبِّرًا.

. مَعْرِفَةُ الْمَعْلُومِ بِقَدْرَاتِ تَلَامِيذِهِ لَا تَعْنِي أَنَّهُ يَكْتُبُ مَصَارِرَهُمْ بِيَدِيهِ، مِنَ الْعَبْثِ أَنْ يَخْطُطَ الرَّاعِي طَرِيقَكَ مُسْبِقًا وَيَتَمَلَّكَ زَمامَ حَيَاكَ، ثُمَّ يَحْاسِبُكَ عَلَى مَا اقْتَرَفْتَ، لَمْ يَزِنِي قَلْبَكَ فِي مِيزَانِ الْعَدْلِ إِنْ كُنْتَ دَمَقِيَّةً بِلَا إِرَادَةٍ؟ لَمْ تَرَاقِبِ الْمَلَائِكَةَ أَفْعَالَكَ وَتَكْتَبَهَا وَهُوَ عَالَمُ بِهَا مُسْبِقًا؟ لَمْ لَا يَرْسِلَنَا إِلَى مَصَارِرِنَا دُونَ عَنَاءِ الْخَلْقِ وَالْحَيَاةِ وَالْحَرْبِ وَالْمَوْتِ؟

. تَقُولُ إِنِّي قَدْ أَفَاجَوَ الرَّبَّ بِفَعْلِ لَا يَعْلَمُهُ؟

. نَعَمْ.

. وَإِنَّهُ قَدْ تَرَكَ زَمامَ الْحَيَاةِ بَيْنَ أَيْدِينَا؟

. تَلْكَ مُشَيَّئَتِهِ، وَلَعْلَنَا آلَآن نَجْلِسُ فِي سَاعَةِ الْحِسَابِ، نَشَاهِدُ حَيَاوَاتِنَا الْمَاضِيَّةَ فِي انْعَكَاسِ بَحِيرَةِ صَافِيَّةٍ، مَا اقْتَرَفْنَا مِنْ ظَلْمٍ، وَمَا جَنَيْنَا مِنْ ذَيْرٍ، لِنَشَهِدَ عَلَى أَنفُسِنَا.

. ثُمَّ يَلْقَي بِنَا إِلَى أَفْوَاهِ التَّمَاسِيْحِ!

. لَيْسَ لِلْخَطَاةِ أَنْ يَلْوِمُوا إِلَّا أَنفُسَهُمْ.



.الآن تُلقي باللوم على من اختار الخطيئة! ألسنا أحراً كما قلت؟

.أحرار دون إفساد حياة الآخرين.

.تجيد اللعب بالكلمات.

.بل أتبهك أن بيديك الأمر كله، بيديك الخير والشر، وببيديك تغيير مصيرك، إنما تلقين باللوم على الراعي في سماماته حتى لا تحملني وزر خضوعك وضعفك، اقرعي بابه، لن يخذلك.

.أنت تقول ما ليس فيك، انظر إلى حالك قبل أن تتكلم، أقرعت يوماً بابه؟ أو وجدت من يجيب؟

.طالما قرعت الباب، حتى أدركت أنني أقرعه من الداخل، الصبر...

قاطعته:

.الصبر شيء الكهنة، وقد نفذ منذ دخلت إليوسيس بين يدي أرملة المزابي.

.وعوضك الرب بروح صافية وجسد سليم ناضج.

.ألم تقل إننا نصنع مستقبلنا بيدينا؟ ماذا لو كنت قبيحة؟ أليس ذلك من صنعه؟

.كلمة «لو» لا معنى لها، والجمال اختيار أصعب من اختيار القبح.

.وكيف ذلك؟

.الجمال يجذب الحشرات، أما القبح فقد يدفع عنك الأعداء.

.لدى الكهنة دائمًا إجابات جاهزة.

.تملكين التغيير إن أردت.

.بل هي عَربة تندفع من فوق تل ولا أملك إيقافها، أشعر بالضياع حين يغيب عنِّي آرام، فمن دونه تستحيل إليوسيس



صحراء مُتخصّمة بالأسود الجائعة، وحين يعود، أنفر منه كأنه الداء، بغيرته المفرطة يُكبل عنقي، وبظنه وشّكه يَحاصرني، حتى خبأ الشغف.

نظر في عينيها للحظات، وزن ما فيهما من كلمات، لم تنطق قبل أن يَهمس:

. لم تعشقني يوماً، ارحل لي معنـي.

رمقته للحظات:

. لا أستطيع.

. تخافين الحرية.

. ليس في الفرار حرية.

. أرض الـرـب واسعة.

. لدى آرام الوقت، وكلابه تتقصّى راحتـي أينما كنتـ، رأـها لـكي تحرسـني، سـتجـدنـي ولو في حـرـثـلـبـ.

. إن رحلـتـ فـسـأـكـفـلـ بـحـمـاـيـتكـ.

ارتـعـشتـ أناـمـلـهاـ وـتـهـدـجـ صـدـرـهاـ بـنـفـسـ مـضـطـربـ، غـاصـتـ فـيـ سـوـادـ عـيـنـيـهـ وـكـلـمـاتـهـ.

. وما الذي يـمـلـكـ كـاهـنـ إـرـاءـ كـلـابـ مـتـمـرسـ؟

. علمـنـيـ أـبـيـ كـيفـ تـخـبـئـ التـعـابـينـ أـمـامـ أـعـيـنـاـ.

. ما تـقولـهـ قد يـكـلـفـ عـنـكـ وـعـنـقـيـ.

. عـنـقـيـ كانـ بـيـنـ يـدـيـ أـبـيـكـ فـأـنـقـذـهـاـ.

. تـرـدـ الجـمـيـلـ؟



. أنت روح تستحق الجهد.

ساد صمت طويل، ثم أردفت:

. أخاف الآمال السعيدة ذوفي من قصص المستنقعات.

. إذا كان السبيل الوحيد للخلاص فستنقعاً، فلست تملkin إلا خوضه.

قامت فسألها:

. ستعودين إلى آرام؟

أردفت بعد صمت:

. لم أعد أعرف.

قالتها ودرجت، سارت في فم الغرف المفضي إلى السلم، ساقها ثقلاً حديداً ورأسها باحة واسعة مزدحمة بكلاب تنبح، زفرت تبديداً لخوف قشعر جلدتها قبل أن تقابل الجسد المفتوح، اقترب ولم تميز من الظلمة ملامحه، أبطأ، احتك بكتفها عن قصد، سمعت أنفه يسقتشق رانحتها قبل أن يبتعد، نظرت دلفها مرّة فوجده ينظر ناحيتها، في المرة الثانية التفت فرأته ينقر بباب كاي، ثم التفت رأسه ناحيتها فأسرعت بالنزول، في الغرفة وبعد لحظة فتح الباب كاي بابتسامة مالبثت أن تبدّلت.

. طال شعر الكاهن!

على الضوء الواهن ميّز كاي جسداً ضخماً:

. من أنت؟

تلقي كاي دفعه ألقته أرضاً:



. كان يجب أن أقابلك حين زرت قدس الأقداس.

. أنت...!

. شاعول، جزار نوق بحري دلتا، ومصارع بحلبة الباليسترا.

. أدركت حرفتك من ضربة سكينك في رقبة الكاهن.

رفع شاعول يده المربوطة.

. لقد تم تأيبي على تلك الضربة من سمكة حادة الأسنان.

. كيف عرفت بمكاني؟

. فئران إليوسيس لا تستسيغ الأغرباب بين يوم وليلة، ما إن تسأل عاهرة بالطريق عن غريب توغل في زيارة ولم يخرج.

حتى تتبرع بالإجابة، خاصة أنني من الزبائن الكرماء.

. جئت لقتلني كما قتلت الكاهن الأعظم؟

. أو نتفق، برديةات الكاهن مقابل حياتك.

نظر كاي حوله بحثاً عمّا يذود به عن نفسه فلم يجد ما يكافئ خصمها، ابتسم شاعول.

. بحق الإله لا منفذ لك، إن حببته فبمشيئتي.

. وكيف أتمكنك؟

. علينا في بعض الأحيان أن نقاوم.

قالها ثم نظر للبرديات:

. هل تلك هي كل البرديات؟



أجابه كاي:

. عليك في بعض الأحيان أن تقاوم.

ابتسم شاءول وسلت سكينا من حزامه.

. كل النوق عاصية، لكنها تبرك في النهاية.

ولعب شاءول بالنصل بين كفيه في سرعة فتراجع كاي والتقط البرديات، قاست عيناه المسافة بينه وبين الباب، فرأى السكين أمام رقبته فانتفض، تفاداها في سرعة فارتطم ظهره بالسراج وتبعثرت البرديات، التقطه رغم سخونته وقدفه يأسا في وجه شاءول، صدده فانفجر بصوت مكتوم وانتشر الزيت الحارق على ذراعه وطارت سكينة، وانقلبت الابتسامة غضبا كز على أسنانه ثم انقض على كاي، رفعه فالقاء أرضا، سمع الأخير عظامه تئن قبل أن ينقض شاءول عليه، أطبق على عنقه فقطع الهواء، تحشرج صوت كاي وانحبس، تلوى جسده بلا جدوى تحت الحمل الثقيل، ينظر للعينين اللتين تقتلنه وللبرديات التي تقترب منها النار، اعتصر صدره ألم رهيب ثم زاغ النصر وغامت الرؤية حين التقت أصابعه بصندوق كنوس نحاسية غسلها صباحا، جاهد بانامله حتى أمال الصندوق فأسقطه والتقط واحدة، ضرب بها وجه شاءول فأصاب أسفل فكه، نزفت شفاته فلحس دماءه واشتعل الجنون في عينيه فازداد انكفاء على الرقبة يسحقها، هوى كاي بالكأس النحاسي مرات على رأس المصارع فلم تهن القبضة، بل وهنت الأنفاس في رئة كاي، رفع يده بضربة هشة أخيرة حين ارتعشت عين شاءول اليسرى بغتة قبل أن يخر فوق صدر كاي كجدار من اللحم.

شيء...

ثم أراح المصارع من فوقه، بصعوبة، ناديا كانت واقفة خلفه متقطعة الأنفاس من الانفعال وفي يدها إبريق نحاسي كبير اكتست حافته بالدماء، رمقطها كاي للحظات ثم اندفع ليطفو ناراً أشعلا السراج في أحد البراميل والتقط البرديات المبعثرة.

. ماذا تفعلين هنا؟



. كنت أجيّب عن سؤال أثّار فضولي، ماذا يفعل شاء ول هنا؟

. أتعلّفونه؟

. مُصارع الباليسترا وحفيد راعوث كبيرة هي دلتا من ابنتها، وصديق آرام.

. نطقت اسمه فارتعشت:

. هل؟ هل قتلته؟

التقط كاي من الأرض السكين التي كانت تذبحه، وضع يده على صدر غريميه يستشعر حياة فارتّفعت وانخفضت في

نفس واهن، التفت لناديا التي ملأها الهلع:

. إنه هي، لن نستطيع البقاء هنا.

. سأتي معك.

لم يملك إجابة، نظر لغريميه ثم دس السكين في إزاره وجمع البرديات في عجلة فخرجا.

الحالة كانت غارقة في صمت، براميل النبيذ فارغة والكراسي مرصوصة فوق بعضها، نزلا السلم فاضطربت أطراف الساقين المستقر في ركن، لم ينبع بكلمة، نظر إليه كاي فقرأ في ملامحه الرعب، ضم البرديات تحت جناحه ثم خرجا.

---

(١) «جَرْهَم»: قبيلة قديمة تنتمي للعرب اليمانيين القحطانيين.





لم يكدر الليل ينحسر أمام زرقة الفجر حين ابتعد كاي وناديا بلا وجهة، تجنبًا أجسادًا ترنحت بعد سهر، نداءات قوادين يلقيون شباكهم أهلا في صيد، ونظارات عاهرات استغرين رؤية ناديا دون آرام، أخفق كاي البرديات في ردائه ومدد خطواته محاولا السيطرة على روع يملأ صدره، رأسه يعمل بأقصى طاقته لإيجاد فخرج.

.أللغا إلى المعبد ونطلب الحماية من الكهنة، أليسوا بأصدقائك؟

استدعي وجه نائب الكاهن وهو يصرخ: «ها هو الملعون، ها هو قاتل معلمكم»، ثم همس:  
.الكهنة خلف أسوارهم لا يرون سوى ما يرى صاحب العرش، لن يصدقوا كاهننا طويلاً الشعر يسير في حواري اليوسippis ومعه فتاة.

ثم التقط صوت موج البحر:

.ماذا عن مركب يقلنا لشاطئ بعيد؟

.ما جدوى الاختيار والكلاب تتبعنا؟

مشيا دون أن ينظرا خلفهما حتى غاصت الأقدام في الرمال، بحث كاي بعينيه عن سفينته حتى رأى واحدة على بعد فحشاً الخطى تجاهها، يرسمان قصة تشعف لهما عند صاحب المركب كي يضمّهما إلى ركبها، كان ذلك حين التقى



أذنا كاي وقع خطوات تركض من خلفهما، خطوات ثقيلة غاضبة. لم يفهُم، دفع ناديا جانبًا والتفت ليستقبل جسد شاءول، طائراً بثقله ساقطاً فوق كاي، دفنه في الرمال صارخاً صرخة نفرت طيور الباتروس الواقفة على الصخور، قبل أن يتقوس ظهره وتختبئ عيناه، أصدر خواراً أساًل لعابه، نظر لكاي بغضب تحول لألم رهيب، ثم انفكَت أعصابه دفعه واحدة.

لحظات مرت قبل أن يزبحه كاي جانبًا، تأمل سكينة انقلب على صاحبه فشقّ صدراً واخترق قلبًا، وجهاً لم يَكُن يعرفه حتى ودعه، تابع بقايا الروح ترتعش في الأنامل، لا تصدق أن صاحبها قد قرر الرحيل، ثم سُكِنَ كل شيء، كفت الرياح عن الصفير وتوقف الموج عن إلتحاحه فارتدى كاي على ظهره، أفاقَت ناديا من مفاجأتها فقامت تنظر حولها بحثاً عن شاهد وكانت الطيور وحدها شاهدة.

اقتربت من كاي فساعدته على الجلوس:

اخْلُع رداءك، الدماء خضبته.

احتضن برياته في شroud فساندته حتى قام، فشي وراءها فوق الرمال مقاوماً التعثر، ينقل بصره بين قتيل سقط وسماء لم تعد تتكلّم «لم اخترت ظهري ليحمل الأوزار ويدني لتتلطخ بالدم؟ أي ذنب اقترفت كي أصير ملعوناً في الأرض؟ وأي إرث أورثتني؟ قصة رجل يدعى موسى في قوم من الأعداء الباندين؟».

يا للعجب!

صرخ بها كاي ثم خر بركيته في المياه المالحة، رفع البرديات وسط ذهول ناديا:

ماذا ستفعل إن مزقتها؟ هل ستجيب عن سؤالي؟ أجبني.

رمقته ناديا في خوف:

كاي، ماذا تفعل؟

لم ينبع بكلمة، فقط تأمل الموج يغسل الدماء عن فخديه، أغمض عينيه واستعاد من شر «سيت» واستعاد وجه



معلمه فاستغفر، خرت بجانبه ناديا، وضعت أناملها على كتفه، جذبته إلى حضنها، بكى فيه بكاءً حاراً حتى تخللت السماء بواحد النور فقاما، ضم البرديات متنظفاً الرمال عنها قبل أن ينظر وراءه متأنلاً الخطوات التي خلفها:  
لتنزل البحر، سيظن من يقصنا أننا ركبنا قارباً.

لفت ناديا رداءها والتقطت كاي جذعاً ألقته الرياح، ربط فوقه البرديات بخبل من اللحاء ثم مدّ يده إليها، نظرت في عينيه بتrepid فاردف:  
. عليك أن تثقني بي.

ألقت أناملها في كفه فنزل الماء الباردة، سباحاً غرباً وراء الجذع الطافي حتى أنهكت رئاهما فخرجَ عند بقعة قريبة من رصيف الميناء، ارتميا على الرمال يلهثان من فرط الإجهاد، استجمعاً قوتهما ففكَ كاي البرديات عن الجذع ثم سارا حتى بحارة يحملون جوالات من الجيش إلى باطن سفينة تستعد للمغادرة، بعد حدث قصير مع الربان وافق على ضمهما نظير الطعام ورحلة ثلاثة أشهر تقدفهم إلى بلد بعيد، ألقى لكاي قميصاً وأشار للجوالات، وقاد ناديا لمطبخ فيه ثلاثة نسوة.

اندمج كاي في رفع الجوالات بخدمات مسحها بالملح حتى انتهى، ثم صعد إلى سطح المركب وتوارى خلف صار، مراقباً البقعة البعيدة التي ترك فيها جسد شاعر، تلك البقعة التي ازدحمت بالفضوليين من بعد الشروق، قبل أن يحضر مردحه في موكبه، جثا لدقائق طالت أيام الفتوى الصريح ثم قام يقرأ خطوات القاتلين التي أخفتها مياه البحر، ثم وأشار بيده غرباً حيث التيار يجري، وفي سرعة لا تليق بعمره المتقدم صهوة جواده ومن خلفه ركب الجنд ناحية رصيف الميناء، تفقدوا السفن فأمروا ربانيها بإنزال البحارة فلم يعثر لكاي على أثر، وحين همَّ مردحه بالرحيل سأله أحد البحارة عن السفن التي غادرت فأشار للبحر:

ثلاث سفن غادرت منذ الشروق.

هزَّ مردحه رأسه وضيق جفنيه مسحًا للأفق فلم تتعثر عيناه في صار.



♀

♀

♀

بعد الظهيرة تجمع الناس أمام بيت السيدة «راعوث» في صمت مهيب، انتظروا خروجها حتى بزرت من الباب في رداء أسود تتسلد ذراع فرداي، بدت متماسكة رغم فداحة الخبر الذي أتتها، تقدمت الجموع حتى المعبد، صعدت السالالم بصعوبة قبل أن تدلل إلى غرفة تمدد فيها جسد حفيدها شاءول في تابوت، رفعت الكتان من فوق وجهه، فشت بأنامل ترتعش على خده ثم لامست جبينه في أسوى قبل أن تنحني على جرح صدره الغائر، حاول فرداي أن يمنعها فزمجرت، ابتعد للوراء خطوة حين سالت دموعها وتحسّر صوتها:

لقد هر السكين من بين الضلوع إلى القلب، مرق أسفله، الصغير تالم الما رهينا قبل أن يموت، يا شاءول... ماذا فعلوا بك يا صغيري؟

خرجت كلماتها بألم قبل أن تلثم جبين الحفيد وتلتفت لمُرداي

. من يستطيع قتل مصارع يا فرداي؟ أحد شباب الباليسترا؟

نظر في عينيها بصمت فأردفت:

. تحفي أمري.

. لا يا أمري.



. والآن تكذب.

صفعت وجهه فأحنت رأسه في أدب وأغمض عينيه، تمالكت نفسها:

.منذ شهور أدركت أن شاءول يدفعي فراش ولي العهد، هذا لم يحدث إلا تحت أنفك، لم أتعرض، نحن في حاجة لدعم الملك القادم أيّا كانت التضحية، لكن، يقتل شاءول؟ بسكنينه؟ من نواجه؟ من مردحاي؟

.ال Kahn الجيبتي.

. وما شأنه بشاءول؟

رمقها في صمت فاردفت،

. أرسلت شاءول في طلبه فقضى عليه؟

وخرزتها الكلمة فقالت والألم يعتصرها:

. لم يكن من المقرر أن يحدث هذا، رأس أفعى ينقطع فينمو لها رأس آخر.

. لم أكن أعرف أن لمانيتون تلميذاً دنساً.

صرخت فيه:

. لا تنعته بالتلميذ حتى تحز عنقه.

ثم نظرت راعوث لحفيدها ومدت يدها فاللتقطت من صدرها كيساً من القطيفة، فتحته وأفرغت أوراقاً معطرة مخلوطة بحنوط الأجداد على صدره البارد ثم التفت لمَرْدَحَاي

. لا تطلع أختك على جسد ابنتها.

. تكفلت بذلك، أخبرتها أنه سقط مرهقاً بعد مصارعة.



ول يكن موت شاء ول كموت شمشون، هدم المعبد على نفسه، وعلى أعدائه.





في اليوم الثالث والسبعين لموت الملكة وضع جسدها في تابوت مرصع بالأحجار، خرجت الجنازة فخمة مهيبة تليق بفرعون ملك هؤلاء؛ صاحب مصر وقائد أ cavaliers العمالق في شمال إيجيبت. تقدم الموكب عازفات الناي الحزينة، حاملات الذهور، ثم جند أشداء يجرّون عربة تحمل التابوت ومن ذلفهم «فرعون» على مجده ذهبية تحت مظلة، يجلس في جمود وقد خصب ذقنه المجدول وارتدى حلته البرتقالية الزاهية وтاجه المرصع بالفیروز، من ورائه جلست وحيدته «راحيل»، ثم موسى. يسير مطاطئ رأسه في خشوع بين الوفود من رؤساء العشائر، وبعض حكام الأقاليم الجيبيّة الضعفاء الذين وافقوا على السجود لفرعون اتقاء لبطشه من بعد مقتل حاكم الجيبيين «سقnen راعي».

ما إن انتهت مراسيم الجنازة وأغلقت المقبرة حتى عاد الملك إلى قصره وانقضت الجموع. كان شيئاً لم يكن. اتجه موسى إلى بيت مرضعته السابقة وأمه الحقيقة. استلقى في الغرفة التي ألقى منها يوماً إلى مجرى النهر، يجتر الحكاية التي أدلت بفكه السفلي إلى الأرض عن امرأة عاشت معه كمريته حتى بلغ مبلغ الرجال، قبل أن تصير أمه التي بحث عنها في كل يوم.

أغمض عينيه وأنصت للمياه الجاريّة قبل أن يدخل أخوه هارون. وضع يده على جبينه ففزع:

عليك أن تفيق من سكرتك يا أخي.



. يهون النوم على أخبار الأيام الماضية.

. وجودك في هذا البيت ليس فيه مصلحتك.

. لم أعد أعبأ.

. كيف لا تعبأ؟ أمير القصر ينام في خرائب بني إسرائيل! ستجر على نفسك وعلينا الشر.

قام موسى ينظر للنهر الجاري:

. لا تخدع نفسك يا هارون، ماتت من كانت تحميتي، اليوم على أن أواجه جنون المعutto وشططته.

. ماذا بعد ادعائه الربوبية وتصديق المخابيل من رءوس العشائر؟

. يكفي أنه السبب في رؤيتي أهي كخادعة لثلاثين سنة ذلت.

. كان هذا أفضل من أن تصير طعاماً للتماسيخ.

. أريدها أن ترحل عن القصر، فوراً، كفاحها ذل.

. كل شيء بأوانه، ماذا تنوّي؟

. ربما أعيش هنا لأرعى ما تبقى من أيامها.

. لن يقبل فرعون وجودك في خرائب بني إسرائيل، الملا يتربص بك ليخبروه.

. لستَ وربما محتملاً للعرش.

. رأس العجل منقطع النسل من بعد راحيل، وهو لا يكف عن الفتوك بكل من تفوته بكلمة عن ذلك أو جال به

خاطره، إن مات فجأة أو قُتل...

قاطعه موسى:



لن أرث عرشاً مخضباً بالدماء، ولن يؤذيني وأنا على قرابة قارون.

حتى وإن أخبرته، فقارون لا رب له، خنزير لا يعبأ بقومه، سيدفن كل فرد منبني إسرائيل في مناجمه إن كان في الأمر رضا فرعون أو دراهم إضافية.

ضرب موسى الحائط براحته في عصبية فأرداه هارون:

تمالك نفسك، الغضب خصلة لا تأتينا إلا بالسوء.

ضاق صدري، قلبي لا يرى نهاية لذلك الجنون.

لكل طاغية أجل.

سيقضى على القبائل بالهلاك قبل أن يهلك، الجيبتيون في الجنوب يزدادون قوة، «كامس» ابن «سقون راعي» يتوعّد فرعون بالهلاك منذ قتل أبوه في المعركة.

يوماً ما سيسترد الجيبتيون ما نزع منهم.

احتد موسى:

وهل علينا أن ننتظر الهلاك تحت عرش رجل مجنون؟

أخفض صوتك يا ابن أم، ما باليد حيلة، فقد أوتد في جذوع النخل كل من تولى واعتراض.

يكاد قلبي يتفق مع الجيبتيين، فتلك أرضهم سلبت منهم غدراً، فمن يستطيع إنكار مذابح الرعاة عند دخولهم؟ كل ما يحزنني أنبني إسرائيل سيكونون أول الحالكيين، سيدفع بهم فرعون إلى المقدمة ليثبت همم الجيبتيين ويرهقهم، قبل أن يندفع من ورائهم بجنه وجند هامان ومن ورائهم القبائل المغيبة.

بني إسرائيل يعبدون أصحاب العروش، حتى لو استحبوا نساءهم وأذلوا رجالهم، ثم إذا ذاقوا النعمة تمزدوا، سرقوا وفسدوا، تلك شيمتهم، لا تننس قتلهم جدنا يوسف طمعاً بعد تحريض رءوس القبائل، والآن يتمسّحون



في اسمه وينسبون أنفسهم إليه.

لا أكاد أصدق أن قارون يساعد فرعون في سحق المستضعفين منبني إسرائيل.

من لا يعرف رب لا يحركه الضمير، وقد انقطعت رسائل السماء من بعد يوسف غضباً عليهم بعد قتله.

لا تنتظر من الجياع معرفة الرب.

معيشتك في القصر رأيت فيك عاطفة على الضعفاء، لكن تذكر، إن العقرب تبدو حشرة ضعيفة، حتى تهاجمك.

هم في النهاية بشر قسّت عليهم الأيام.

إن عشت فيهم ما قلت قولتك، بنو إسرائيل قوم يستحبون العمى على نور النهار، لقد قتلوا يوسف الذي أكرمه.

قتلوا لجهلهم.

بل لطمع في نفوسهم وحقد، ورغبة في المزيد من القوة والنفوذ.

زفر موسى:

كم أرغب في الرحيل إلى مكان لا يعرفي فيه أحد.

شرد هارون للحظات ثم رأيت على كثيف أخيه:

لم لا تذهب إلى الشرق، يقولون إن من زار معبد «أون» وجد السكينة، وامتلاً صدره بعلم وحكمة الجيبتيين، فنهنتهم لم يغادروا المعبد منذ غارت القبائل على الأرض الجيبية، يتوارثون الحكمة ويحفظون في صدورهم أسرار السماء والأرض، اذهب إلى هناك واماً قلبك وأعرض عن الجاهلين.



مَعْبُدُ «أُون»!

بعد أيام غادر موسى هوارة قاصداً المعبد العتيق عملاً بنصيحة أخيه، عبر النهر قبل أن يقابل سور المعبد، طرق باباً ففتحه أحد، سقى موسى جرعة ماء قبل أن يغلق الباب من ورائه.

في المعبد قضى موسى ثلاثة أشهر، فقد خالها الشحوم وبزرت عظامه، حلق رأسه وذقنه على طريقة الجبيترين، فارس الصوم عن الكلام، ثم بدأ التأمل وتصفية النفس على صوت التسبيح باسم خالق الكون الأوحد قبل أن يتلقى حكمة إدريس المدونة في كتاب «سر الملكوت»، طابت نفسه وسكنت روحه، وبدا له أن تلك البقعة من الأرض الساكنة، هي الملاذ، حتى أتاه الخبر يوماً مع رسول من هوارة: «ماتت أمك بعد مرض قصير»، بكى موسى بكاءً حاراً على مربيته وأمه، ثم اشتعلت جذوة غضب في نفسه لم تفلح أسوار المعبد في احتواها، ودع الكهنة إلى ميعاد قريب ثم اخذ طريقه إلى المدينة، دخل متوجهاً النظارات يخفى رأسه تحت قلنسوة محاولاً لا يثير الانتباه، اقترب من بيته فالتحقق أصداه شجار بالجوار، ثم فاز استغاثة:

ها هو موسى، هنا قد أتني من لا قبل لك به.

التفت موسى فوجد رجلين يقتتلان ومن حولهما جموع يتكلل، اقترب محاولاً أن يتبعن من يناديهم فهرع إليه رجل أمسك ببعضه في قوة:

أغثني من ذلك المعتوه.

من أنت؟

أنا رافال، منبني أعمامك، وهذا الرجل من قبيلة الحقدة يريد أن يفتك بي، (ثم همس): قبيلة يهودا.

كان ذلك حين اقترب الأخير:

لا حامي لك اليوم.

قف مكانك.



صَاحِ مُوسى فِي الْخَصْمِ:

أَغْرَبَ عَنْ وَجْهِي إِنْ أَرَدْتَ السَّلَامَةَ.

اندفع الرجل ناحية موسى الذي تحفَّز فاستجمع قبضته ودفعه في صدره، تلقى الأخير الضربة فترنَّح قبل أن يسقط على الأرض، بلا حراك، سُكِّنت الجموع بفترة، اقترب موسى من الرَّاقد، انحنى على الصدر، وضع يده على الأنف فلم يستشعر الأنفاس، تعلَّت الهممَات: «قُتِلَ الرَّجُل، قُضِيَ عَلَيْهِ الْأَمْبَرُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ». تأمل موسى الوجوه التي تحملق فيه، قبل أن يصبح رافال في الجسد الهاشي:

حذرتُكَ وَلَمْ تَسْتَمِعْ فَأَرْدَاكَ مِنْ لَا قَبْلَ لَكَ بِهِ.

قالها ثم اختفى بين الجموع التي رشقت موسى بنظرات صامتة قبل أن يبتعد.

في بيت أمه جلست فريمة في حزن وبين يديها طفلتها الصغيرة، ما إن رأته حتى قافت واحتضنته:

أَكَانَتِ الْمِيَةَ هَيْنَةً؟

سأَلَ مُوسَى.

سُعال طويل أنهك قواها.

بَكَى مُوسَى فِي حضنِهَا وَارْتَعَشَ.

هُوَنْ عَلَيْكَ يَا أَخِي، رَحِمْهَا الرَّبُّ مِنْ شَقاءِ لَا قَبْلَ لَهَا بِهِ.

عاشت سنتين تخدموني في ذلك الشقاء.

ابتسمت فريمة بأسى:

عاشت سعيدة برأيك في كل يوم تكبر في رغد من العيش، لقد فتحت لنا أبواب الخيرات بإقامتك في القصر.



خرج هارون من غرفته، احتضن موسى ثم نظر في وجهه:

لم أكن أنوي إرسال الخبر إلى المعبد، لكنك لم تكن لتسامحني، آخر كلماتها كانت تذكرك، وآخر دعواها كانت لك.

أين أبي؟

منذ ماتت أمي أمرته راحيل بعدم مغادرة القصر شفقة على سنه.

هَذِّ موسى رأسه ولم يعقب، التقط جلبة في الجوار فأرهف السُّمْع خلف شباك مغلق، أردف هارون:

ما بك يا أخي؟

لقد قتلت رجلاً.

خطّطت عينا هارون وشحقت مريم:

يا إلهي.

ماذا حدث يا موسى؟

قصّ موسى الأمر فرمقه هارون والتاعت مريم وهي تتبع الناس ينظرون من خلف خصاص الشباك.

ويلك يا موسى! أقتلت رجلاً من قوم يعود؟

لا تلمني يا هارون، إن ما بي من عَصْب يَخْفِينِي لِهَدْم جَبَل بِيَدِي العَارِيَتَيْنِ.

حسبت يوماً أن المعبد سيهذب قلة صبرك.

إنما هي مشاجرة دافعت فيها عن رجل يستغيث، سأذهب إلى أهل القتيل، وسأدفع الديمة.

نظر هارون لأخته ثم لم يسمع:



اقض ليلىتك بيننا، وفي الصباح نتباحث الأمر.

في اليوم التالي لزم موسى بيته ولم يبرحه، ينظر من بين خصاص الشباك إلى الطريق الذي خلا من الغرباء المتربيسين، حتى توسطت الشمس السماء وإذا بجلبة تتصاعد وصدى عراك، ثم نودي اسمه ثانية، من نفس الحنجرة التي نادته أمس، خرج موسى رغم تحذيرات مريم وصدى هارون:

لا تخرج يا ابن أم، ما حدث بالأمس لم يمْت.

إن كان الأمر قد عُرِف فلم يقع أحد بباب البيت؟

لا تجعل غضبك يسوقك.

لن أبقى في البيت كالقط الخائف، أتريد أن أوسم بالجبن وهناك رجل يستغيث؟

قالها موسى ودفع الباب، اقترب من الجلبة فإذا برافال ابن العم المزعوم يصرخ وقد أمسك بتلابيب رجل:

يا ابن العم، هنا هو آخر يريد ليفتوك بي، يريدون ليكسروا شوكتنا، إن لم تخنني لن تقوم لبني إسرائيل قائمة بعد اليوم.

اقترب موسى فأزاح الخصم من فوق رافال ثم همس بحدة:

ماذا دهاك؟ أتلحق في كل يوم صراعاً؟ أما حفاك بالأمس؟

قام الخصم من الأرض واقترب فتحفز موسى ورفع قبضته:

ويلك، أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس؟

شحّب وجه موسى:

أنا، لا.



ارتعش يا ربب القصر، فالخبر يملأ السُّمْع في المدينة.

نظر موسى في الوجوه المحيطة به ثم رجع لخصمه:

قد كنت أدفع عن رافال.

لقد سمعنا عنك كثيراً، إيثارك للمستضعفين وكرمك فيهم، لكن الآن، انكشف قناعك، أنت لا ت يريد الإصلاح كما زعمت، أنت ت يريد أن تكون فرعون الجديد.

رجع موسى للوراء خطوة وانحنت هامته فصاح رافال:

هذا الرجل يريد أن يفتكم بي، اقتلته يا موسى.

التفت إليه موسى:

يا لك من غويٌ لا تبني إلا الفتنة.

بل أنت الجبان تتراجع عن نصرة لحمك.

حدجه موسى بغضب ثم انسحب.

بعد ساعات انھال الطرق على الباب حتى فزع أهل البيت، فتح هارون فوجد «حزقييل»: قريباً ذا شأن يَعْمَل في قصر الملك:

أين موسى؟

قالها بهمس فجذبه هارون وأغلق الباب قبل أن يخرج موسى من غرفته. نظر إلى حزقييل:

أقتلت رجلاً يا موسى؟

قال موسى:



. إنما هي دفعة أفضت إلى موت.

أردف حزقيل:

. القتيل هو حاران؛ أحد أبناء عم هامان من قبيلة يهودا.

امتع وجه هارون:

. رَحْمَتِكَ يَا إِلَهِي.

. يجب أن ترحل عن المدينة.

قال حزقيل.

. بل سأواجه ما اقترفت يداي.

أمسك حزقيل بتلابيب موسى:

. اسمعني جيداً، للتو أتيت من قصر فرعون، كان الملا مجتمعين وكانت موضع الحديث، يذكرونك، يأترون بك،  
يُوغررون صدر الملك ويطلبون الثأر للقتيل، الخالص منك بات أمراً محظوظاً وقد قدمته لهم على طبق من ذهب،  
يريدون أن يستأثروا بصاحب العرش، فكلما طال الأمد بنساء لا تنتفخ بطونهن توحشوا كالضباع.

همس هارون:

. يقتلون الأميرا حتى وإن دفع دية؟

أجاب حزقيل:

. التخلص منك أسهل في غياب الملكة، كما أن زيارتك لمساكن بنى إسرائيل استفزاز لصدورهم.

ساد الصمت لحظات قطعها حزقيل:



.الوقت يمر.

قالت مريم التي وقفت قرب الباب:

. ارحل يا أخي، ارحل، لا أشتئمْ خيراً حين أسمع اسم هامان، ذلك المداهن الخبيث، سيقتلوك كما يقتل سيده  
الضعفاء، بلا قلب.

. إلى أين يا مريم فالأرض تضيق من حولي؟

. عَد إلى معبد «أون».

صَاح حزقييل:

. لن يكون «أون» آمناً، لترحل شرقاً حيث تضعف قبضة فرعون.

. إلى متى؟

قال هارون:

. حتى ينكشف الغم أو يأتي الفرج من رب.

نظر موسى لأخيه ولمريم:

. سأرحل.

. اغتنم البدر، سر في ضوئه قبل أن يخرجوا في طلبك.

دخلت مريم إلى غرفتها ثم عادت بثمرات في صرة، قبلت جبين أخيها الذي تندي عرقاً فقبل يدها بدمع  
محبوس ثم شكر حزقييل واحتضن هارون بحرارة، قبل أن يرحل، شرقاً.

. حسبتك خصيّاً.



زفرت ناديا وهي شاردة في انعكاس القمر على سطح الماء فتوقفت كاي عن الترجمة، التفت إليها مندھشًا فأردفت:

. حين نزلت البحر رأيت جسدك دون قصد.

. ليس كل الكهنة خصيانت.

. ولم لم ترّد كلماتي في الحانة؟

. ليس بك حاجة أن تعرفي.

. لم أكن أعرف أن الكهنة ينتقمون بالكلمات!

. الانتقام شهوة لا تروقني.

. ما بال قتيل الشاطئ؟

. هو من اعتدى، قد رأيت بعينيك.

. اقتربت فجلست بقربه، تأملت ملامحه،

. أنت هالك لا محالة.

. ما قل ودل.

. شاءول هو ابن أخت رئيس الخاصة الملكية.

. ابن أخت... مردح؟

. خيرة شباب هي دلتا، ما شأنه بك؟

. سحب كاي شهيقه بصعوبة،



. هذا الشخص قتل معلمي: الكاهن الأكبر لمعبد الأسوار السبعة بسمنود.

. حين رأيتك أول مرة عرفت أن وراءك أمرًا مريراً، هذا ما يحملك إذن على ترجمة تلك البرديات؟

. آخر ما ترك معلمي وسبب مقتله.

. أتحوي سحراً أم مؤامرة؟

. قصة رجل عاش منذ ألف وثلاثمائة سنة بين قبائل الغزاة الشرقيين، رجل يدعى موسى.

. موسى؟ ولم يقتل رئيس القصر كاهناً من أجله؟

. ذلك ما دفعني للترجمة، أنا أعلم السبب.

. تعلم السبب! أنت في قلب فتاهه كمتهاه الملك، تتقصّي أثر قاتل عن طريق ترجمة إضمامية برديات تحوي قصصاً

بالدأة! ذلك عين الجنون، لقد نلت انتقامك وشفقت صدر من قتله، الآن عليك أن تنجو بما تبقى من حياتك.

. ليس لانتقام مكان في قلبي، إنما الرغبة في إتمام وصية معلمي وكشف ما كانوا يسترون، لقد أوصاني بذلك، في

الحلم.

تقلصت جبهة ناديا:

. حلم! أتبع حتفك بسبب أضغاث أحلام، أنت ذاذهب العقل.

. ما أتاني لم يكن حلمًا، بل رؤيا تتحقق في كل يوم.

. دجل الكهنة ومريدي الإله، كنت أظنني هاربة إلى مصير أفضل.

لملم البرديات واستلقى على ظهره المليء بالخدمات فأردف:

. نويت مساعدتك حتى تلتقي والدك، لكنك أتيت في لحظة فارقة، أنا مدين لك بحياتي.



أنهت تجديل شعرها في ضفيرتين واستلقت بجانبه تنظر للنجوم ثم قالت ببحثها المميزة:

. كيف كانت حياتك وراء أسوار المعبد؟

. أن نخدم الإله ونساعد الناس هي غاية الغايات.

. ألا تراودكم الأحلام بالفتيا?

نزل عليه صمت الكهوف، لحظات، ثم أردفت:

. أم إنكم في المعبد تفعلونها...

قاطعها:

. لا، لسنا كذلك، وبعضاً يتزوج.

. وأنت، ألم تتبع هواك يوماً؟

. الهوى ضعف، عصارة تخلط الدم فيعمى العقل.

. ذلك ظني، هو مرض يزول بزوال العاشق، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب.

ثم ساد الصمت حتى أردفت:

. هل...؟

قاطعها كاي:

. في المعبد الوقت كله للرب.

. وكيف عرفت أنه ضعف؟



ليس عليك أن تضعي يدك في قم التمساح لتعرف في أنه سيقضها.

تشبه الهوى بقم تمساح!

ربما خانني التعبير.

الهوى كالجوع والعطش.

عشت أيامًا دون ماء أو طعام.

قلت أيامًا، لا أتصور حياة دون هوى.

أنت أدرى ميني.

كلماتك تحمل ازدراء.

لا أقصد شرًا.

لا ألومك، فأنت ذكر، ولا تراني إلا متعًا للرجل.

نحن سواسية أمام رب.

الرب ذكر، لم يختر رسالته إلا من الرجال.

لأن عصارة العاطفة لا تغادر أجسادكن كما تغادرنا حين ننتهي، منكن.

ما نحن إلا حاويات للأطفال.

الرب أرلي، لا يحتاج لولد.

الرجال لا يعيشون النساء من أجل الإنجاب فقط.



أنت مشوشة.

. وأنت خائف مما قلت.

. راودتني الأسئلة من قبل أن أعيش في المعبد ولم تزل.

. أتجد إجاباتك مقنعة؟

. أحسبها كذلك، حتى تنجلify الحقيقة، الروح دون الإيمان، كالغريق في قلب مياه متلاطمة.

. لا أنكر أن أيام الإيمان كانت مريحة.

سكت الكلام فرفع كاي عينيه إلى السماء الساكنة، تذكر ليالي سمنود حين كان يتسلق سور المعبد ليستلقي فوق سطحه، يتأمل النجوم والخطوط الخفية التي تمتد بينها، تتصل ثم تنبض، ترسم نهرًا وحيوانات وجندوًا وساحات معارك ورماحًا، الآن، باتت ترسم فتاة، خمرية، وحشية، كالفرس الحرون، تتننى أفلاكها بلا لجام، الهلال ضحكتها والشهب حصلاتها، تنفت النار في العروق ثم تضفرها بأناملها الصغيرة في براءة، فتصنع عقدة تستعصي على بحر «القد» وهبتني يوماً آخر في الحياة بعدما تركت عشيقاً شهيقاً زفيرها، وصدره أرضها، كي تشاركني رحلة موت في بحر مظلم؛ أما كان لها أن تأتيني المعبد في سلام لتقديم النذر والصلوات فتلتفقى أرواحنا بعيداً عن برك الدماء؟ وراء النخيل الباسق، خلف السوق الضخمة وعلى صيفاف البحيرات، أستلقي بجانبها، ثم أسيير على فوهه العشق ثم... ثم أهوى في عينيها بعد أن يمزقني رعش من رموشها، أغرق، أتالاشي، بلذة، وبطولة يسردها العشاق، وتلعنها جدران المعابد، قصة عجيبة عن كاهن تتبع نور الراعي حتى كاد يحترق، ثم غشيتها جنية، في أهدابها عطر، يصرع غيلان الصهاري.

تلامست الأصابع فلم تتنافر، نظر إليها فالتفت، ابتلع ريقه فابتسمت، استندت على صدره بجرأة لبؤة، اقتربت، نظرت في عينيه فأغمضت، ثم تركت شفتيها فهوت بثقلها على شفتيه في قبلة أنسنته أسوار المعبد والبرديات والبحر والنجوم والظلام، وكاي منذ ولد حتى لحظات فاتت، أضيئت السماء بشعب لها وهج وقارت المياه فشققت قاع البحر عن سمك له العجب، ثم ابتعدت، راقت عينيه اللتين فتحهما باسترخاء، حدقتيه اللتين اتسعتا، ثم ابتسمت بدلال، ودون



أن تلتقط أنفاسها، ودون أن ترحم همسـت:

هل تريـد واحدة أخـرى؟

كان ذلك قبل أن تلتقط أذناه صـوت مجـاديف تصـفع المـياه وجـلبة بين الـبـحـارـة. قـام فـلمـح سـفـينـة كـبـيرـة تـشـق الـبـحـرـ الـهـادـيـ، مـتـجـهـة نحوـهـ، اـسـتـيقـظـ بـعـضـ النـائـمـينـ فـتـوارـىـ كـايـ وـنـادـيـاـ خـلـفـ بـكـرـاتـ الـحـيـالـ الضـخـمةـ وـعـلـاـ السـطـحـ رـبـانـ السـفـينـةـ، نـظـرـ فـيـ عـدـسـتـهـ ثـمـ التـفـتـ لـمـسـاعـدـهـ:

أـلـقـ المـرسـاةـ وـاحـصـرـ الرـجـالـ، إـنـهـمـ جـنـدـ الـمـلـكـ.

انـدـفـعـ الدـمـ إـلـىـ رـأـسـ كـايـ، نـظـرـ لـنـادـيـاـ التـيـ تـمـلـكـهاـ الـهـلـعـ:

لاـ فـقـرـ، سـيـدـرـكـونـنـاـ.

بـكـفـيـهـ أـحـاطـ وـجـهـهـاـ:

أـيـاـ مـاـ كـانـ، لـيـجـبـ أـنـ يـحـصـلـواـ عـلـىـ الـبـرـديـاتـ.

سـتـهـلـكـناـ أـحـلـامـ كـاهـنـكـ، أـلـقـهاـ فـيـ المـاءـ إـنـ كـانـ فـيـهاـ مـمـاتـنـاـ.

ـ بـلـ سـأـتـرـكـهاـ مـعـكـ، إـنـ لـمـ يـعـثـرـواـ عـلـىـ فـسـيـظـلـونـنـيـ قدـ هـلـكـتـ وـبـرـديـاتـيـ، هـمـ لـاـ يـعـرـفـوـنـكـ، أـخـفـيـهـاـ فـيـ مـكـانـ لـاـ تـفـصـيـ لـيـ عـنـهـ حـتـىـ لـاـ أـضـطـرـ إـلـفـشـائـهـ إـنـ عـذـبـونـيـ.

ـ لـاـ تـرـكـنـيـ.

ـ أـنـتـ وـحدـكـ خـيـرـ مـنـ وـجـودـيـ مـعـكـ.

ـ تـرـكـ الـبـرـديـاتـ بـيـنـ يـدـيـهاـ ثـمـ شـدـدـ عـلـىـ كـلـمـاتـهـ:

ـ إـنـ لـمـ أـنـجـ، أـوـدـعـيـ الـبـرـديـاتـ مـعـبـدـ «ـأـونـ»ـ.



وَكَيْفَ سَأْحِدُكَ؟

أنا من سيدك

قالها ثم التفت للسفينة التي فيز وحده بحأرتها على ضوء المشاعل التي يحملونها:

سامحينى، فالامر اكبر منى وأعظم.

۲۰

ارتعشت ایتسامته فشید علی، آناملها:

على أن أذهب.

نزل من السطح بين زحام البحارة المترافقين أمام السُّور، يتبعون سفينة باتت على بعد أربعين ذراعاً، التف في سرعة مخفية وجهه حتى بلغ الجانب الآخر، نظر حوله ليتأكد من خلو الممر في اللحظة التي أقيمت فيها الحبال بين السفينتين، تسلق السُّور وخرج مستمسكاً بجداره، اختبر بعينيه المسافة بين ساقيه والمركب الصغير المربوط إلى السفينة، حين التقى أدناه صوت عارضة خشبية ترتطم بالمتن وأحدية رجال الملك تعبر فوقها، قفز، سقط على حافة المركب فتأذت ضلوعه، تمالك نفسه فتدلى برفق إلى البحر مستمسكاً بالحافة، ما هي إلا لحظات والتقط الجلة، بحارة الملك يفتحون، يفرزون وجوه الرجال وأمتعتهم، ثم ساد السكون، تمنى أن تكون تاديا قد أخذت البرديات، تمنى لا يرى جسدها طافياً بجانبه، تمنى لو كان الراعي قد أمضى الوقت لينهي الترجمة، ثم اقتربت خطوات فردد كاي متن الاستغاثة ونزل في الماء حتى فمه، قفز شخص إلى متن المركب الصغير فسحب نفسها وغاص كلية في المياه، ميز شيئاً يقف فوقه ناظراً إلى المياه الساكنة، لحظات طالت حتى ثارت رئاه، ألم ضرب صدره في نبضات، خنق عنقه، وفجأة امتدت بد غليظة فامسكت بردائه، قاوم كاي حتى، انقضت رئاه فرفع رأسه طلباً للهواء:

أبن البدلات؟

سأ، صاحب البد الغليظة



وَقَعَتْ مُنِي فِي الْبَحْرِ حِينَ قَفَزَتْ.

أجاب كاي.

أَتَرِيدُ أَنْ يَصِيرَ جَسَدَكَ طَعَامًا لِلأسماكِ؟

لَمْ يَجِبْهُ كاي فَرْفَعَهُ الغَلَبِيُّطُ رَغْمَ الْمُقاوِمَةِ صَانِحًا بِأَعْلَى صُوْتِهِ.

لَقِدْ وَجَدْتُ الْكَاهِنَ.

بَعْدَ دَقَائِقٍ غَادَرَ كاي السَّفِينَةَ، مَرِبُوتًا إِلَى سَارِيَّةِ مَكْمُمِ الْفَمِ، يَتَابَعُ بَعْينِيهِ فَتَاهَ خَمْرِيَّةً يَأْكُلُهَا الْقَلْقُ.





فنتصف الليل.

القاعة الخضراء، بقصر الملك في بالادلفيوس.

رغم غلظة الباب المذهب تسرب الصُّبَّ إلى جوانب القصر، أربعون ضيًّعاً جمعهم حُسْنُ الحُظ تحت ضيافة الملك في حفل توديع الأميرة برنيكي قبل سفرها إلى أرض السلوقيين بسوريا: للزواج من ملكهم أنطبيوخوس الثاني، غريم الملك سابقًا ونبيه حالياً. حضرت الأميرة في ثوب أزرق مُزركش وعلى رأسها تاج الآله الموروث عن جدتها، جلست فوق كرسيها بانفة، يحمن حولها الصديقات والقريبات كالنحل حول وردة فواحة، متنزهة عن اللهـو تقابل المـجامـلات والدعـوات بوجه مـتجـهمـ وابتـسامـةـ فـاتـرةـ، انتـظـرتـ حـتـىـ أـعـدـ الجـمـعـ هـدـاـيـاهـ تـحـتـ قـدـمـيهـاـ ثـمـ اـنـسـجـتـ بـغـتـةـ أـثـنـاءـ رـقـصـةـ بـلـيـسـتـيـشـ عـشـيقـةـ أـبـيـهـاـ، بـعـدـ أـنـ رـمـتـهـاـ بـنـظـرـةـ اـحـتـقارـ، نـظـرـ الـمـلـكـ لـلـحـاضـرـينـ وـابـتسـامـ؛

صغيرتي خائفـةـ منـ الـحـيـاةـ الـجـدـيـدةـ، تـفـتـقدـ أـمـهـاـ كـثـيرـاـ.

ثم سـكـبـ كـأسـهـ عـلـىـ الـأـرـضـيـةـ الـمـرـمـرـيـةـ وـتـرـحـمـ عـلـىـ أـيـامـ الـمـلـكـةـ الـراـحـلـةـ، قـبـلـ أـنـ يـنـدـمـجـ بـيـنـ النـاسـ.

بعد فـنـتـصـفـ الـلـيـلـ لمـ يـتـبـقـ إـلـاـ جـمـعـ قـلـيلـ مـنـ الـمـقـرـبـينـ، ضـرـبـتـهـمـ الـجـعـةـ حـتـىـ تـدـلـتـ الـفـكـوكـ ضـحـكاـ وـفـاضـتـ الـكـلـمـاتـ، يـتـمـايـلـونـ عـلـىـ أـنـغـامـ النـايـ السـاحـرـ حـولـ مـائـدـةـ مـسـطـيـلـةـ أـضـاءـتـهـاـ الشـمـعـدـانـاتـ، تـحـمـلـ فـوـقـ أـطـبـاقـهـاـ كـلـ كـانـ حـيـ عـداـ الفـئـرانـ وـالـحـشـراتـ، يـأـكـلـونـ وـيـضـحـكـونـ فـيـ صـبـبـ وـيـطـبـحـونـ بـالـكـثـوـسـ مـرـحـاـ، مـسـتـنـشـقـيـنـ عـبـرـ الـحـنـونـ مـنـ أـورـاقـ



الللوتس الأزرق في آنية النبيذ المذهبة، يَنْمُون بأخبار الرعية ويلوكون سيرة الملوك وأنباءهم، حتى أعيادهم الصخب وهبط عليهم الصمت كشياك الصيادين فوق الحيتان، تلك اللحظة التي يستغلها مَرْدَخَاي ليعلن عن مفاجأته الخاصة التي تُرضي مِزاج الملك وضيوفه، صَفَق فالتفت الرءوس المترنحة وانسحبت فتيات الضيافة خلف الستائر.

اسمحوا لي أن أحكي قصة.

لتكن قصة تستحق آذانا.

قالتها بليستيش فضحك الجميع، كُزْ مَرْدَخَاي أسناته ونهرها الملك بنظرة، لملمت ثدييها ورفعت كأساً إلى فمهما مقاومة الضحك حين أردف مَرْدَخَاي

إنها كذلك.

سكت الجميع كالتماسيخ أمام شعلة نار، استطرد مَرْدَخَاي

. حين أتيت إيجيبت، كان عمري عشر سنوات، تبرعت في حي دلتا أمام ساحل البحر، أعمل في دُكَّان والدي صباحاً، وأحصل على العلم ليلاً تحت ضياء الشموع، واتقصى حقيقة ذلك البلد الذي عاش فيه أجدادي قرونًا طويلة، وساهموا في بناء حضارته تحت نير القدماء، رغم ذلك لم أنكر انبهاري برجالاتهم، فأكثر ما كنت أصبو إليه كان دراسة كتبهم، واكتشاف خباياهم المليئة بالأسرار، حتى تعرّفت بكمير لهم علّهم الطب والعمارة والنحت وعلم الأفلاك؛ إيمحوب، وإذا بي أقف أمام رجل ليس في دعائه هممجية أهل ذلك البلد، رجل يعني اسمه «الذي جاء في سلام»، تاريخ حافل بالمعجزات ونبيوغ يفوق الوصف، أتي ورجل دون أن يترك ألمًا أو صخباً، أو بردبات أو قبراً، فقط احتفى بغموض كما ظهر، وترك من ورائه تعاليم نهل منها علماء المعمورة، وألاف التماثيل التي تخلد ذكراه، وبقي السؤال: أين قبر ذلك الرجل؟

أجاب أحد المدعويين:

كيف لإله أن يكون له قبر؟

أشار مَرْدَخَاي للحارس ففتح الباب أمام أربعة عبيد يحملون تابوتاً من توابيت القدماء، وضعوا جملهم على مائدة كبيرة



فقام الحاضرون مقاومين الترئح حين أشار مُرَدْخَاي بيده:

. تلك أرض السحر، ما تخفيه بباطنها أكثر بكثير مما تظاهر، أقدم لكم، إيمحوتب العظيم.

رفع العبيد غطاء التابوت عن جسد ملفووف بالكتان على الطريقة الجيوبية، تفوح منه العطور كأنه أغلق على صاحبه بالأمس، طار النبيذ من العقول وتحفرت الأعين فتلحقت الأنفاس، اقترب الملك يتأمل الجسد الملفوف بالكتان:

. مُرَدْخَاي أهوا هو؟

. أعين رجالنا لم تتوان يوماً عن تتبع آثار القدماء.

قال ديميتريوس فاليريوس أمين المكتبة:

. ولكن، إيمحوتب، بين النجوم إله؟

أجاب مُرَدْخَاي:

. إله مشى في الأرض بجسد من لحم، ثم تركه كما ترك ملابسنا ليصعد بين النجوم.

بعد تردد لامس الملك الوجه الساخن خلف لفائف الكتان:

. لكننا لم نر قبراً لإدريس أو حورس أو إيزيس!

. ما زالت في الأرض أسرار لم تكتشف.

وقال إقليدس:

. نعبد بجسد إله! هذا عين الجنون!

أجاب الملك:

. لا تنس يا صديقي أن عبئتك في جدران القدماء هو الذي أفضى بك إلى كتابك الشهير في الهندسة.



ضحك الجموع ففضحوك إقلبيدس ثم رفع كأسه تحية لدعابة الملك حين أرددف مَرْدَخَاي:

إن أراد الإله طمس جسده في أعماق الأرض أو في قمم الأوليمب لما وجدناه، بل تركه لمن يستحقه.

. يستحقه؟

قال مَرْدَخَاي وهو ينظر للملك:

. إله مثله.

قالت بليستيش:

. لأجساد القدماء حرفة لا يجب أن تنتهي.

عقب الملك:

. يستثنى من ذلك ظلال الآلهة على الأرض.

أردفت:

. حُم من بحارة عرق سفنهم حين حملوا الأجساد المحنطة إلى بالادهم.

ابتسم مَرْدَخَاي:

. ما قلته صحيح يا... سيدتي. لكن من قال إننا سنحمل ذلك الجسد إلى بلد آخر؟

ساد الصمت فأخرج مَرْدَخَاي سكيناً رفيعاً من حزامه:

. ذلك الجسد سيستقر في وطنه.

قبل أن يستوعبا ما قال اقترب من الجسد فشق اللقائين من فوق الصدر، بث الكتان عبه في الأنوف فابتعد البعض خطوات واحتتعل فضول البعض وعلى رأسهم الملك، تحرك السكين فوق العنق صعوداً ثم الذقن فالأنف فالجبهة،



أزاح الكتان ليظهر وجه إيمحوتب، تدلت الفكوك وتمشت الهممـات بينهم فقال الملك:

.إله وسـيم.

قالت بلـيسـتيـشـ من خـلـفـ كـتـفـ الـمـلـكـ:

.كانـهـ مـاتـ بـالـأـمـسـ.

اقـتـرـبـ إـقـلـيـدـسـ فـفـحـصـ الـوـجـهـ وـالـصـدـرـ:

.أـظـنـهـ مـاتـ فـيـ الـعـقـدـ السـادـسـ.

سـأـلـ الـمـلـكـ:

.أـينـ وـجـدـتـ الـمـقـبـرـةـ يـاـ مـرـدـخـايـ؟

.شـرقـ مـديـنـةـ هـلـيـوبـولـيسـ.ـ مـطـمـوـسـةـ تـحـتـ الرـمـالـ.ـ تـبـعـتـ أـثـرـهـ فـيـ جـارـيـةـ حـفـرـ عـلـيـهـ ماـ يـفـيدـ بـأـنـ إـيمـحـوتـبـ الـعـظـيمـ

.سـارـ بـجـسـدـهـ شـرـقاـ لـيـقـابـلـ قـرـصـ الشـمـسـ.

قفـزـ إـقـلـيـدـسـ:

.هـلـ اـنـتـهـكـ الـقـبـرـ؟

أـجـابـ مـرـدـخـايـ:

.أـخـتـامـ الـأـبـوـابـ فـيـ أـمـاـكـنـهـاـ.ـ وـالـخـنـوزـ جـارـ حـصـرـهاـ.

قال ديميتريوس في لعنة:

.ماـذـاـ عـنـ الـبـرـدـيـاتـ؟

.طـالـتـهاـ الـمـيـاهـ الـجـوـفـيـةـ فـتـهـرـأـتـ.



لامس الملك أصبع إيمحوطب:

إذن لم يبقَ من ذلك الجسد سوى أحلام؟

دسَّ مُرْدَخَاي سُكِّينه فشقَ عظامَ الصدر الهشة فضربَ الذهول الحاضرين، صرختَ بليستيش وأدفعتَ المُحظيات  
أعينهنَ خلفَ الستائر.

ـ ماذا تفعل؟

استنكرَ ديميتريوس.

بلا كلامٍ أزالَ مُرْدَخَايَ الضلوع، أصدرتَ طقطقةً حافته بنتَ القصعريرة في النقوس، ثمَّ مدَّ يده وأخرجَ كُتلَةً متجمّرةً  
شاحبةً في حجم قبضة طفل، التقطَ كأسَ النبيذ الذهبي من يدَ الملك:

ـ اسمح لي يا مولاي.

قبلَ أن يستوعبَ الملك ما قالَ أسقطَ الكُتلة في كأسِه، عكّرتَ السائلَ فمالَ للسواد قبلَ أن يرفعَه:

ـ لا يرثُ قلبَ الإله إلا إله.

نظرَ الجمعَ للملك فقالَ إقليدس في توترٍ

ـ للقدماء لعنتَ لم نعرفَ كنهها، لا أحبذَ أن يتجرّعَ مليكي تلكَ الكأس.

نظرَ إليه الملك ثمَّ لأعينَ المقربين، لمسَ فيهم الترقب والاختبار فابتسمَ في استخفافٍ مُصطنع، ثمَّ رفعَ الكأس ودسَّ  
سبابته المزينة بخاتم ذهبي وفتَّتَ الكُتلة المتجمّرة قبلَ أن يتجرّعَها دفعةً واحدة، سادَ صمتٌ قطعَته بليستيش:

ـ إنَّ مَرْضَ الملكَ فعلٍك وزره.

أجابَ مُرْدَخَاي دونَ أن ينظر لها:



. فطر التحنط يمنع الجسد من الفناء، الملك للتو اكتسب قوة إله.

قال الملك:

. ستكونين أول من يشعر بقوة إله يا عزيزتي، لا تخسري المحظيات حتى لا يحسدنك.

ضحك الجميع عدا بلينتيسش التي رمقت مُرَدَّهَاي بتقزز ثم انسحبت حين أردف الملك،

. للملك قلب إله، وللأصدقاء باقي الجسد.

ثم التفت لإقليدس مداعباً:

. أنا أعرف عمماً ستباحث يا صديقي، لكنه لأسف أول ما يتأكل.

ضحكوا ثم اقتربوا من المائدة، فكوا الكتان الملفوف وأعملوا سكاكينهم في الجسد المستسلم، قطعوا اللحم الجاف المتخلب، غمسوه في النبيذ وشربوا، وانتشت الوجوه إيهما بالقوة المكتسبة، ثم علت الضحكات، وخرجت المحظيات من ذلف الستائر ونفخت النيايات. ساد الصخب حتى ضحك الملك ورمت على كتف مُرَدَّهَاي،

. وأنت، ألن تأكل؟ أم إن لحم الcedماء يحمل ذكرى طردكم من ذلك البلد؟

. بل في عروقني تجري دماء جرت يوماً في ذلك الجسد.

. ماذا تقصد؟

ملا الأسى وجه مُرَدَّهَاي

. إيمحوتب، لم يكن سوى أحد أجدادي.

. أجدادك!

. كان اسمه «يوسف»، وكان يفسر الأحلام، عمل تحت ملك بائد يدعى «خيان» كأمين على خزائن القمح، قبل أن يأتي



بقبيلته إلى أرض الفيروز حيث عشنا وتكاثرنا وبنينا المدن.

لكن! قوائم مانيتون عن ملوك الجيبتيين بكتاب «الجيبتيكا» أقرت بأن إيمحوتب چيبي، عاش في الأسرة الثالثة!

. كان ذلك قبل أن نعثر على «لوحة الماجاعة» التي أعدنا تدوينها باليونانية. قرأتنا فيها عن انحسار النهر واقتراح

إيمحوتب وزير الملك حينئذ ببناء معبد قرب الشلال الأول، مما أعاد للنهر ارتفاعه.

. وما كان مصير إيمحوتب قبل أن يصبح إلهًا؟

اغتاله الجيبتيون غدراً...

انتظر! هل تقصد أن مانيتون...؟

قاطعه مُرداً:

. نعم يا سيدي، تلاعب بالتاريخ والأسماء ليطمس آثارنا. الحنق منعه من تقبل أن إيمحوتب اليهودي هو أول من بدأ

هرماً في تلك الأرض.

. أدناي لا تكادان تصدقان أن مانيتون قد يتلاعب بالكلمات!

. الشكر للرب أننا أيقنا الحقيقة قبل فوات الأوان، فللكاهن مصداقية كمصداقية الملائكة عند الجيبتيين.

أطرق الملك إلى الأرض لحظات ثم رفع رأسه:

. البوج بمثل ذلك السر سينثير غضبة الدهماء، اتركهم في إيمانهم، فالإيمان فريح.

إنها كلمات الحكمة يا سيدي.

. لكن يا مُرداً! أنت للتو قدّمت لنا جسد أحد أجدادك؟

. يسري الجسد في جسد آخر فيحييا بعد موته، ذلك تكريمه، وصدر مليكي خير من تربة ذلك البلد الذي استعبد قومي



قرؤنا.

ابتسِمَ المَلِكَ:

أَنْتَ شَيْطَانِي الْمُفْضَلُ.

انحنى فرداً خالياً في تواضعٍ حين اقترب منه أحد الحراس، أسرّ في أذنه بكلماتٍ فهزَ رأسه وانسحب بعدها انحنى للملك احتراماً.



♀

♀

♀

وحيدة في سفينه تترنح بعرض البحر جلست، ضامه ساقيها إلى صدرها على أرض خشبيه بمطبخ متهالك، تضرب رأسها في جدار متشقق الأدشاف خلفها، قلبها يضطرب من فرط الضعف والضياع، وعيناها تتأملان حروف البرديات العتيقة التي لا تفقه منها شيئاً، أغمضت عينيها للحظة فالتنقطت أدناها حفييف الأقدام، اللعنة! ها هي قد جاءت، ترميها من خلف الجوالات بابتسامتها الساخرة؛ تلك العاهرة المستفزة! لا تأتيني إلا في أوقات وجب فيها أن تخفي، نبرة صوتها المنفرة، نظراتها الساخرة، حكمتها السليطة، «ارحل عنّي!»، صرخت ناديا فلم تستجب، ولن تستجيب يوماً، «اقتربت مني على أطراف أصابعها، بخطوات راقصة، ترفع يديها في الهواء وتميل برأسها فيسرى الخدر في جسدي أنا، تضحك بصوت يزليز أعضائي، ثم تمسك برقبتي وتقرّب فمها الذي يشبه فمي، يطابقه، تلحس شحمة أذني في استمتاع ثم تنفتح همساً ساخناً يجري في الأوردة حتى يصل القلب فيتخلله، يقبضه».

ـ كاهن غريب الأطوار، يخمش قلبك بسلامة، يزيح آلام، ماذا كننا نسميه؟ آه، ثقيل الظل، تلثين في صدر تاجر الكلاب سنين حتى تطني نفسك ذراعاً في كتفه، أو أصابع في كفيه، ثم تسلّمي شفتوك بلا مقاومة لساحر تربى في معبد، ثم تستائي حين يسمونك بالعاهرة! الشكر للرب، فعلى كل حال هو ليس بخصيّ.

ـ صرخت ناديا:

ـ يا لك من عاهرة.



. ترميم من حولك بما فيك.

. لم أهُو يوماً آرام، أنت من دفعتني نحوه.

. لست أنا من أذقته أعز ما نملك فأدمن رحينا، لا تنفكين تلقين باللوم على من حولك وتنسين أنك الداء.

. وهل كنت أملك إلا الرضوخ والإذعان؟

. كم تجيدين التملص! وما بال الكاهن؟

. ربما هو حب صادق.

. بعد ثلاثة لقاءات؟

. القلب تضطرب دقاته في لحظات.

. قلت ذلك الكلام لآرام يوماً، كنت تعنينه أم تصبغين نفسك بالعشق الزائف رغبة في الحماية؟

. لم أكن ما أنا الآن، كنت غضة غريبة، يغويوني محسول الكلام ولو من فم كلب، ولم يكن لي كفيف ولا ضامن، وقد  
نالني سينين حتى بعثت الأحلام ونفر جسدي

. السلام آفتوك، وقبلة كاهن منبع من سجناء الإله؛ انتصار جديد لغرور أنوثتك.

. أنوثتي لعنتي.

. أنوثتك هي ما أبعتك حية، ستسامين منه وتلفظينه ثم تبحثين عن آخر يروي أرضك التي لا ترتوي.

. لم يعد بي رغبة في البحث، أنا أريد رجلاً صالحًا.

. الصالحون لا يتحملون نوباتك العاتية.

. وعدني أن يتقصّى أخباري.



. مَنْ سَمِعَ يَوْمًا عَمَّنْ ذَهَبَ مَعَ رِجَالِ الْمُلْكِ ثُمَّ عَادَ؟

. أَصْمَتِي.

. تَخْرِجِينَ مِنْ حَفْرَةِ لَتَقْعِي فِي بَئْرٍ.

. شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنِّي يَحْرِكُنِي.

. إِنْ كُنْتَ تَقْصِدِينَ تَدَابِيرَ إِلَهٍ فَأَنَا أَوَّلُ الْكَافِرِينَ.

. أَنْتَ أَحَلَامِي السَّوْدَاءُ.

. أَنَا مَنْ يَنْجِيْكَ فِي كُلِّ كَبْوَةٍ.

. أَكْرَهُكَ.

. تَكْرَهِينَ نَادِيَا؟

. اغْرِيْكَ عَلَيْـ.

صَرَخَتْ بِهَا نَادِيَا فَاخْتَفَتْ كَمَا جَاءَتْ، ضَرَبَتْ رَأْسَهَا فِي الْجَدَارِ وَكَرَّتْ أَسْنَانَهَا فَانفَرَطَتِ الدَّمْوعُ سَاحِنَةً تَحْرَقُ خَدَّيْهَا،  
تَبَكَّى نَفْسَهَا وَكَاي، تَسْتَعِيدُ قَبْلَتِهِ، لَمْعَةً عَيْنِيهِ وَهُوَ يُوصِيْهَا بِالْبَرِدِيَّاتِ، نَظَرَاتِهِ إِلَيْهَا وَهُمْ يَرِبْطُونَهُ بِالسَّارِي  
الخَيْثَبِيِّ، ثُمَّ ابْتَلَاعُ الْأَفْقِ أَثْرَهِ، إِلَى مَصِيرِ مَجْهُولٍ، كَمَا قَالَتِ الْعَاهِرَةُ الَّتِي تَقْتَحِمُ رَأْسِيِّ كُلُّمَا انْفَرَدَ بِنَفْسِيِّ.



♀

♀

♀

يتحاكي كلّ فن رأها عن جفونهم التي عجزت عن الرُّف، صدورهم التي أبت التنفس، وقلوبهم التي نسيت النَّبض، عن نعومة جسدها، تلويه بانسيابية، عن الإعجاب الذي يمتزج بالفرع، ثم عن السُّحر الأزرق الذي تبته حولها فتنطفئ الأعين في ظلام سرمدي، آلام لا حدود لها، رعشة تُزلزل الكواكب، تدخل العقول، لحظات كأنها سنوات، ثم يأتي العفو فتكف، الخدر يتغلغل في الأوصال، سلام وسكون، موت مقنع لا ينقصه أكثر من شاهد قبر... ثم تتسلل الحياة ثانية، كحية تسعي، وتعود الأصوات، بخفوت، يتسرّب الضوء للعينين، الشمس تبدو شمعة، الشخص الواقع لا ملامح فيها، ثم تستجيب الآذان لھمسات تستحيل كلمات، مبهمة ثم تتضح، وبعد لطمة، تتركب الحروف على بعضها لتصنع كلمة، «كاي».

في القبو الخانق حاول كاي استيعاب اسمه، فستلقى في الحوض الحجري مكبل اليدين، ومن حوله ثلاثة أشخاص، أحدهم يحمل هراوة غليظة، وأخر يمسك بشبكة تتدلى في وعاء زجاجي كبير، أما الثالث فوجه لا ينسى، يجلس القرفصاء في إعجاب ليتأمل ذلك الكيان الأسود الذي يتلوي في الوعاء، التفت حين أدرك استفافة كاي فاقترب، حكَ الأنف بهدوء ثم همس:

أين البرديات؟

نظر إلىه كاي محاولاً منع عقله من تسريب الكلمات، ثم لاحظ من خلف الغشاوة إبهام مردحه الغليظة مدكورة



الظفر، يَسْمُونُهَا فِي عِلْمِ الْكَفِ إِبْهَامًا «بِجَرَاء»، صَاحِبَهَا شَدِيدُ التَّطْرُفِ، إِمَّا مَالِكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ الرَّاعِيِّ، إِمَّا شَيْطَانٌ مَرِيدٌ مِنْ أَعْوَانِ «سَيْتٍ». رَمْقَهُ مَرْدَخَاهُ مَبْتَسِمًا:

يَحْكُى أَنَّ أَفْلَاطُونَ مَنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَىْ مَائَةِ عَامٍ دَأَبَ عَلَىِ الْجَلُوسِ وَقَتَ الْفَجْرَ فِي حَوْضٍ مِثْلُ ذَلِكَ الْحَوْضِ، يَمْلُؤُهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يَأْمُرُ خَادِمَهُ بِإِدَالَةِ الرَّعْدَادَةِ فِي شَبَكَتِهَا قَرْبَ رَأْسِهِ، تَتَلَوَّيْ قَلِيلًا ثُمَّ تَبْثُصُ صَاعِقَةً إِلَيْهِ، لِلْحَظَاتِ قَصِيرَةٌ، قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَهَا الْخَادِمُ بِشَبَكَتِهَا، يَفْيِيقُ أَفْلَاطُونَ مِنَ الصَّاعِقَةِ بَعْدِ دَقَائِقٍ، لِتَتَدَفَّقَ الْحُكْمَةُ مِنْ فَمِهِ كَالنَّهَرِ الْهَادِيِّ إِلَى آذَانِ تَلَامِيذهِ، أَتَعْرُفُ أَشْهَرَ مَقْوِلَاتِهِ؟

نَظَرُ كَاهِي حَامِلُ الْوَعَاءِ وَسَمْكَةُ الرَّعْدَادَةِ الَّتِي تَتَحْرُكُ فِيهِ بِثَقَةٍ، أَرْدَفَ مَرْدَخَاهُ،  
مَنْ يَأْبِي الْيَوْمَ قَبْولَ نَصِيحَةِ لَا تَكْلُفُ شَيْئًا، سَوْفَ يَضْطَرُ فِي الْغَدِ إِلَى شِرَاءِ الْأَسْفِ بِأَغْلُبِ الْأَئْمَانِ.

قاومَ كَاهِي تَشَنِّجًا فِي فَكِهِ،  
قَلَتْ لَكَ إِنِّي فَقَدْتُ الْبَرَدِيَّاتِ أَثْنَاءَ هَرُوبِيِّ مِنَ الْحَانَةِ.

أَتَحِبُّ أَنْ نَسْأَلَ أَمْكَنَّكَ عَنْهَا؟

هِيَ لَا تَعْرُفُ أَخْبَارِي مَنْذُ غَادَرْتُ سَمْنَوْدَ.  
لِمَ لَا تَقْصُ عَلَيْهَا قَصْكَ الْمُثِيرَةِ؟

قَالَهَا مَرْدَخَاهُ فَأَشَارَ لِحَامِلِ الْهِرَاوَةِ فَخَرَجَ لِلْحَظَاتِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ وَفِيْ يَدِهِ أَمْ كَاهِي، مَكْبِلَةُ الْبَدِينِ فَكِمْمَةُ الْفَمِ، اِنْتَفَضَ كَاهِي حِينَ رَأَهَا وَقَرَأَ الْأَلْمَ فِي مَلَامِحِهَا فَانْشَرَخَ صَدْرُهُ، دَفَعَهَا الْحَارِسُ فَسَقَطَتْ عَلَىِ رَكْبَتِيَّهَا الْهَشَّتَيْنِ، نَظَرَتْ لِابْنِهَا فَبَكَتْ، قَاوِمَ كَاهِي الْجِبَالِ فِي يَأسِهِ:

أَمِي، انْظَرِي إِلَيَّ، انْظَرِي إِلَيَّ، اهْدِئِي، سَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَىِ مَا يَرَامِ.  
ثُمَّ التَّفَتَ لِمَرْدَخَاهُ مُتَضَرِّعًا:



. وحق الراعي لا ذنب لها.

. شاء ول أيضًا لم يكن مذنبًا.

. كان يسعى لقتلي و كنت أدفع عن نفسي.

. لو أدركت قدر من قتلت لرضيت بالموت على يديه.

. إذن اقتلني واتركها.

صرخت أم كاي صرحة مكتومة من خلف اللثام فهمس مُرداً،

. اراف بأمك، فرحلتها لم تكن مريحة من سمنود إلى هنا.

ثم التفت إليها:

. لتهدى يا سيدتي، فقد أجبت فخر الرجال، إنما وجودك هنا لتذكرى صغيرك بطفولته السعيدة.

نظر كاي لأمه:

. اتركها، وسأبحث عن البرديات حتى أجدها.

أردف مُرداً همساً في أذنيه:

. تستطيع أن تذهب إلى الفناء وحدك، أو تذهب بصحبتها، وأعدك لا تكون آخر لحظاتها سعيدة.

أجاب كاي بعد صمت:

. إنها قصة ذلك المدعو موسى، تحمل عاراً ت يريد أن تمحوه.

. آه... قد قرأت إذن، حسناً، لا بد أنك تعرف أن الكذبة هم من يحملون العار، كاهنك الأعظم أراد تشويه ماضينا.



لم يكن الكاهن ليفتري على الراعي كذباً.

لا ألوم عجزك عن رؤية النهار، فقد تربيت خلف الجدران الحجرية، نعجة أخرى تسير خلف القطيع، لا تعلم أن معلمنك قد أكله الحقد بعد ما بادت دولتكم وغرت شمسها، لم يعد في يديه سوى الدس والتحريف ليسترجع مجدًا انذر، ومكانة كهنة تدفنتها رمال الزمن، كتب الرسائل السرية وأرسلها للملك، حرض العامة بالأباطيل والأكاذيب، وأخيراً خط في كتابه ما يمس نبينا المرسل.

نبيكم؟

نعم، إن موسى نبينا، وكاتب توراتنا التي يشكك معلمنك في أصلها، أنت تحارب الرب دون أن تدري.

أي رب تقصد؟

رب إسرائيل.

الرب رب الناس أجمعين، فهو الراعي، ونحن نجل رسالته أينما بعثوا.

نعم تجلونهم، حتى يقتل أحدهنا ملكاً منكم.

رسولكم قتل ملکنا؟ عن أي زمن تتحدث؟

رأيت؟ هذا ما أراد معلمنك فعله، تحريف الحقيقة الجلية وطمأنسها، لقد كتب قوائم الملوك، الجيبيكا، دون ذكر فرعون؛ طاغيتكم، الكاهن المعلم، فدعني الاتصال الإلهي، يطمس عاركم، ويتعتمد إيقاظ ثأر قديم يزيد على ألف وثلاثمائة سنة... .

قاطعه كاي:

لم أسمع من قبل عن ملك چيبي يدعى فرعون!

مسح مُردخاي ذقنه بأنامله:



لتسأل مانيتون حين تقابلها.

نظر كاي لأمه:

اتركها وسأدخل على البرديات.

ها أنت تتذكر أين تركتها.

لن أتكلم حتى ترحل هي في سلام، أتوسل إليك، إنها أم.

وشاءول كانت له أم.

إن لم تتركها فلن تنال البرديات.

اتجه مُرداً إلى الحارس الواقف خلف أم كاي، التقط المراوة، وقبل أن يصرخ كاي رفعها فهو بـها على رأسها، سجّدت قهراً، هوئ ثانية فشّج رأسها، فهو الثالثة، كسر الرأس فجرت الدماء على الأرض...

يوماً ما كانت تنزل البحيرة الساكنة حتى تخمر المياه خضرها، تبلل شعرها الأسود الحالك وصفحة وجهها الخمري فيتلاً تحت نور الراعي، تحكي قصة الملّاح التائه بنغمة فمّيزة، تقلد أصوات البحارة الغرقى، والرّفّت الخشبي الصغير بين يديها، يجلس فوقه كاي، تعزه مقلدة عاصفة هوجاء، ثم تتنّى أصابعها مقلدة ثعباناً كبيراً يخرج من تحت المياه وتقول:

حين هبت العاصفة غرقت سفينة البحار الطيب ولم ينج سواه، تشبت برمث خشبي حتى ألقته الأمواج على جزيرة غريبة، وجد فيها المأوى والطعام، وخَيل إليه أن فيها كل ما يتمناه، وبينما كان يصلي للراعي شكرًا، اهتزت الأرض، وفجأة، برع من المياه ثعبان عملاق، تقدم نحوه فسألها: من جاء بك إلى الجزيرة أيها الملّاح؟ فأنا أتهم الجبناء، ارتعد الفتى، ثم تشنّج ورفع صوته: أنا ملّاح وأسمي كاي، أحمل هدايا للملك، وقد غرقت سفينتي ولست أخافك، ضحك الثعبان: أيها الملّاح، أنت في مأمن، سأتركك تعيش لأنك شجاع لم تخفني رغم ضحامتى، وحكى له الثعبان أنه واحد من مائة ثعبان عاشت على الجزيرة، وأن نجماً سقط فأحرق إخوته ولم يبق إلا هذا الثعبان وحده، ثم صاح في الهواء:



أيها البحر، أرسِل إلينا سفينتنا. ولما رست أهدي الثعبان لكيٰ هدايا من العاج والكحل والعطور والتوابل والأخشاب ليأخذها معه إلى بلده، جزاء شجاعته.

ثم يحتضنه الثعبان فيدغدغه تحت إبطه ليفتح كاي فمه على اتساعه في صرخة عَجَزَت حنجرته الآن أن تخرجها، انقطعت أنفاسه وخفق قلبه قبل أن ترثي أعضاؤه كقنديل بَحْرٌ نافق ويغرق في الحوض. اقترب منه مُرْدَخَاي ملامساً جَبْهَتَه في حُنُو:

أرجو أن يكون ذلك قد أقنعتك بعدم جدوى تهديد مُرْدَخَاي، آه! دائمًا ما أنسى استكمال القصة. في الثمانين من عمره مات أفلاطون في هدوء، ظنَّ بَعْدَ ما وصل إليه من الحكم أن صاعقة الرُّعَاةَ لم تَعُد كافية، وأن عِنَاقاً طويلاً معاها سيوصله لروح الإله فيستسقى الحكمة من منابعها. وفي يوم، وجدوه في الحوض متخليناً وعلى وجهه ابتسامة لم يستطعوا إزالتها، ابتسامة من أدرك أكثر من اللازم، سأتركك معها على تذكرك، أو تقنعك بأن أرواح من تبقى من أهلك، باتت بين يديك.

وأشار مُرْدَخَاي إلى حامل الإناء فاقترب، همس في أدنه:

لا أريده أن يموت، ولا ترفعوا جنة السيدة من أمام عينيه.

انصرف مُرْدَخَاي فرفع الحراس شبكته، تلوَّت الرُّعَاةَ أو بنت زيوس صاحب الصواعق كما يسمونها، أنزلها في الحوض فتحررت وحامت ببطء وخمول، حول رأس كاي، قبل أن تبث سحرها في المياه.





كل ما أعرفه أنني انحدر من ساللة نقية، ومن ساللتى ملك الإسكندر العظيم ومعلمه أرسسطو كلبين، أفهم صاحبى كما تفهم الآلهة ما في قلوب مخلوقاتها، أستطيع أن أحرس أو أصطاد، لكنى أكلت اللحم النيء منذ نبتت أنيابى فصرت وحشًا تهابه الرجال، آرام لم يدخل يوماً على التربة أو التحفيز، فأنا كلبه الأثير، حققت سجلاً حافلاً بالبطولات في ساحات المصارعة، قتلت اثنى عشر كلباً وجذرت خمسة عشر على مدار سنة ونصف، آرام هو إلهي، آرام هو التواب والعقاب، آرام هو الحياة، أمّا باقى الكائنات فقابلون للنهش أو القتل زهن إشارة منه، بلا استثناء، إلا نادياً، أنثاه، قفزت عليها يوماً لأختبرها فتلقيت من آرام ضربات بالسوط مزقت ظهرى، وحبست في بيتي الخشبي يوماً كاملاً حتى نهشت يدي حزناً وندماً عليه يغفر لي، منذ ذلك اليوم عرفت أنا: «سيبريروس» العظيم، أن نادياً شيء آخر، شيء يجب أن أهابه، أحربسه، أقدسه كما يقدسه صاحبى آرام، صاحبى الذي دأبت على متابعته منذ وعيت، من وراء قضبان بيته الخشبي المرير، أتابعه وهو يعتلي تلك الناديا، كما أعتلي إناث فصيلتي لتخسيبها، يلحس جلدتها كما الحس، ويصرخ عالياً في عواء بشري حين ينتهي منها كما أعوی، قبل أن يخمد بجانبها فأشتمن من صاحبته رائحة لا تمت للرضا أو اللذة بصلة، رائحة ندم واستياء، رائحة كراهية، لقد اعتدت أن أستنشق البشر لتحديد الفعل تجاهها، أعرف جيداً كيف أفرق بين رائحة الهجوم والدفاع، اللذة والألم، الخوف والغضب، كما أعرف أن ما أشتمنه من آرام الآن والحرارة المنبعثة من صدره أعراض لم أختبرها فيه من قبل، حتى حين رحلت عنه الفتاة الإفريقية أو صاحبة الشعر الأحمر، تلك الخمرية الجيتية كانت شيئاً آخر، سحر يسلب صاحبها الحياة حين تبتعد، ويمنه إياها حين تحضر، لقد استيقظ آرام ولم يجد نادياً بجواره، بحث عنها في أنحاء المزرعة ولم يعثر لها على أثر، نادى اسمها بأعلى صوته، ثم مدّ ثوبها لتشتمه كلالب



المَرْعَة وعلَى رأسها أنا: «سيبريروس» العظيم، جَرِينَا فَهُدِين بِأَنْوَفِنَا الْخَبِيرَة حَتَّى الْبَحْر، ذَلِكَ الْخَائِن الْأَرْقَ الَّذِي يَطْفُئ مِنْحَة إِلَهٍ فِينَا، لَا يَقْتَرِب مِنْهُ إِلَّا غَرِيقَ هَلْكَ أَوْ هَارِبٍ يَعْرُفُ جَيْدًا أَنَّنَا لَن نُسْتَطِع لَهُ اتِّبَاعًا. انْقَطَعَتِ الرَّاهِنَة فَهَزَّنَا ذِيولُنَا فِي عَجَزٍ وَدَرَنَا حَوْلَ آرَامَ وَالرِّجَال الَّذِينْ وَقَفُوا حَوْلَ حِيَفَةَ ذَلِكَ الشَّابِ الَّذِي رَمَقَهُ آرَامَ فِي قَزْعٍ، تَهَافَتَتِ الْكَلَاب عَلَيْهِ وَتَوَاثَبَتْ، فَزَجَرَهَا آرَامَ بِصَرْخَةٍ أَرْعَبَتْهَا فَابْتَعَدَتْ، لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى الاقْتِرَاب سَوَاءً. نَظَرَتْ فِي عَيْنِيهِ وَوَسَعَتْ أَنْفَهِ، صَمَتْهُ كَانَ بِرْكَانًا يَثُورُ، وَلَأَنْ بَعْضُنَا نَحْنُ عَفَارِيتُ الْأَرْضِ قَدْ عَلَمْنَا مَنْطِقَ الْإِنْسَانِ التَّقْطُطَ أَذْنِي الْأَصْوَاتِ فَفَهَمْتُهَا، كَمَا أَنْ عَيْنِي لا تَزَالَنَ فِي إِمْكَانِهِمَا رَؤْيَةً أَطْبَاقَ ما حَدَثَ مِنْذَ قَلِيلٍ، الْأَنْثَى نَادِيَا بِطِيفِهَا الْبَنِفَسْجِي بِصَحْبَةِ ذَكْرِ لِهِ طَيفٍ بِرْتِقَالِي شَافِي، قَتَلَ ذَلِكَ الْضَّحْمُ الَّذِي تَسَرَّبَ دَمَهُ إِلَى الرِّمَالِ وَبَدَا الْعُفُنُ يَدْبُ في جِيفَتِهِ، ثُمَّ رَكَضَ إِلَى الْبَحْرِ، وَتَوَلََّ الْمَلْحِ إِحْفَاءَ آثَارِهِمَا، رَتَضَتْ عَلَى بَعْدِ أَذْرَعِ أَتَأْمَلَ صَاحِبِي، أَسْبَرَ مَا يَدُورُ فِي رَأْسِهِ الْمَشْتَعِلَ كَجَمْرَةً، كَانَ يَجْتَرُ أَخْرَ لَحَظَاتِهِ، يَجْتَرُ تَلَوِّيَهَا مِنْ تَحْتِهِ، شَعْرُهَا الطَّوِيلُ يَجْلِدُ ظَهْرَهَا، التَّهَابُ جَلَدُهَا تَحْتَ سِيَاطِ أَصَابِعِهِ، صَرَخَاتُهَا الْمُصْطَنَعَةُ، ثُمَّ الْعَزْوَفُ، النَّفُورُ وَالْابْتِعَادُ، تَمْسِحُ آثَارَهُ فَنَّ فَوْقَ جَلَدِهَا وَشَفَتِيَهَا، كَانَهَا تَخْلُصُ مِنْ طَيْنِ لَوْتُهَا، ثُمَّ تَبَكَّيْ بِلَا سَبَبٍ... آرَامَ حَزِينٌ، كَمَا لَمْ يَحْزُنْ مِنْ قَبْلِهِ، هَالَتِهِ تَتَغَيِّرُ، تَصِيرُ حَمَراءً، غَاضِبَةً. يَتَأْمَلُ آثَارَ قَدْمَيِ أَنْثَى عَلَى الرِّمَالِ، يَنْظَرُ لِلْبَحْرِ، ثُمَّ يَبْتَعَدُ عَنْ صَبَبِ الرِّجَالِ، وَنَحْنُ مِنْ خَلْفِهِ، غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى النِّبَاحِ أَوْ مُطَارَدَةِ الْفَئَرانِ، عَيْنَا آرَامَ تَبَكِيَانَ، رَئَتَا آرَامَ تَتَشَنجَانَ، رَكَضَتْ حَتَّى اقْتَرَبَتْ، تَمْسَحَتْ فِي سَاقِيهِ فَأَمْسَكَ الطَّوقَ حَوْلَ عَنْقِي وَجَذَبَنِي جَذْبَةً أَعْرَفُهَا، يَفْعَلُهَا حِينَ يَحْتَاجُنِي، يَبْثُ عنْ طَرِيقِهَا رَغْبَتِهِ الَّتِي لَا يَنْطَقُهَا لِسَانِهِ، نَادِيَا الْمَقْدَسَةَ، لَمْ تَعْدْ مَقْدَسَةً، إِنْ رَأَيْتُهَا أَقْفَرَ عَلَيْهَا، انْهَشَهَا مِنْ أَجْلِي، مَزْقَهَا بِـ«سيبريروس» العظيم، هَذِهِ رَغْبَتِي، يَا كَلْبِي الْأَثْيَرِ.





الرُّعَادَةُ كَانَتْ تَعْرِفُ عَمَلَهَا جَيْدًا، تَعْرِفُ مَتَى تَبْثُ سِحْرَهَا وَمَتَى تَمْنَعُهَا، تَسْتَشُعُ نِبَضاتٍ ضَحْيَّتِهَا مُلْتَمِسَةً تَسَارِعُهَا، وَقَبْلَ لَحْظَاتٍ مِنْ اِنْقِبَاضَاتِهِ الْأَخِيرَةِ تُوقِفُ بِثُلَاثَهَا حَتَّى تَرْتَدِيَ الْأَعْضَاءَ وَيَذْهَبُ التَّخْشُبُ فَيُسَهِّلُ اِبْتِلَاعَهَا وَهِيَ حَيَّةٌ سَادِنَةً، غَائِبَةٌ عَنِ الْوَعْيِ. يَسْتَخْدِمُ الْأَطْبَاءُ ذَرِّهَا فِي الْوَلَادَةِ بِقَدْرِهِ، وَالْجَرَادُونَ فِي بَطْرِ الْأَطْرَافِ، كَمَا يَسْتَخْدِمُهَا رِجَالٌ مُرْدَحَايٌ فِي حَوَارِهِمْ مَعَ الْمَكَابِرِينَ؛ تَسْبِحُ بِجَانِبِ الرُّؤُوسِ، تَقْدِرُ حَجْمَ ضَحْيَّتِهَا ثُمَّ تَبْثُ سِحْرًا يَقْنَعُهَا بَعْدَمِ جَدْوَى الْعِنَادِ. تُطْفَئُ هَوَايَةُ الْبَشَرِ الْمُفَضَّلَةَ فِي اِخْتِلَاقِ الْأَكَاذِيبِ، لِبَضَعِ دَقَائِقٍ تَكْفِي اِسْتِجْوَابًا صَادِقًا، وَإِنْ لَمْ تَأْتِ الْاسْتِجَابَةُ، تَشَدُّدُ الرُّعَادَةُ سِحْرَهَا وَتَنْزَلُ إِلَى الْحَوْضِ ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً، وَرَابِعَةً، لَا تَكُلُّ وَلَا تَمْلِيُ، حَتَّى إِذَا ضَعَفَتْ وَبَخَلَتْ بِسِحْرَهَا، اسْتَبَدَلَتْ بِوَاحِدَةٍ أَكْثَرَ نِشَاطًا...“

اِرْتَعَدَ كَايِ فِي الْحَوْضِ حَتَّى صَرَخَ جَسْدَهُ وَتَفَكَّرَتْ أَوْصَالَهُ، اِخْتَلَطَ وَاقْعُهُ بِأَحْلَامِهِ، نَهَارَهُ بِلِيلِهِ، وَجْهُ الْكَاهِنِ الْأَعْظَمِ بِوَجْهِ أَبِيهِ، وَجْهُ نَادِيَا بِوَجْهِ أَمِهِ، بَيْنَ رَاحَاتِ الرُّعَادَةِ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْبَرِدِيَاتِ حَتَّى عَجَزَ عَنِ اِبْتِلَاعِ رِيقِهِ، تَرَكُوهُ لِيَسْتَعِيدَ وَعِيهِ قَبْلَ أَنْ يَدْلِيَ الْحَارِسَ بِرُعَادَةً جَدِيدَةً إِلَى الْحَوْضِ، كَانَ لَوْنَهَا أَرْجُوانِيًّا وَحَجْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ سَابِقَتِهَا، لَامْسَ جَلْدَهَا التَّاعِمَ الرَّخْوَ خَصْرَ كَايِ، ثُمَّ جَاءَتِ الْلَّحْظَةُ الَّتِي يَحْصِيَهَا عَقْلُهُ مِنْذُ وَضَعَ فِي الْحَوْضِ، ذَلِكَ التَّيَّارُ الْخَفِيفُ الَّذِي يَسْتَمِرُ لِثَوَانٍ مُعْدَودَاتٍ قَبْلَ أَنْ تَرْتَفَعْ شَدِيدَتِهِ بِغَتَّةٍ لِيَزْلَزِلَ كَيَانَهُ، هَنَا سَحْبَ كَايِ نَفْسَهُ اِسْتَعْدَادًا، ثُمَّ ضَرَبَ بِرِجْلِهِ أَرْضَ الْحَوْضِ فَارْتَفَعَ صَدْرُهُ وَبَرَزَ عَضْدُهُ فَمَدَ ذَرَاعَهُ وَقَبَضَ عَلَى مِعْصِمِ الْحَارِسِ.

وارتَعَدا معاً...“



لزمن غير معلوم، مُتشنجة أصابعه لإرادياً، ينتفض والحارس كجسد واحد ما لبث أن ثقل وزنه من ناحية الأخير فتهاوى، رافعاً كاي من المياه ليسقطا معاً على الأرض بجانب الحوض.

وتوقفت الرعدة.

لدقيقة كانت كافية ليصارعا التخشّب، ثم قاما يستندان الأرض وينظران لبعضهما، حتى أدرك الحارس ما حدث فانقض على كاي، هو بيديه على الجسد المبتل فانزلقتا قبل أن يستغل كاي ثقل جسده ليمسك بتلابيبه ويضرب برأسه الحوض الحجري، مرات ومرات، بعزم قوته، حتى شجت جبهة الحارس وبرز المخ منها، تهاوى كحجر بين قدمي كاي في اللحظة التي التفت شبكة الرغادة على رأسه من الحارس الآخر الذي ترك القبو منذ برهة، سقط كاي على ركبتيه مستمسكاً بطرف الجبل العاصر لحلقه، يقاومه خنقاً بدأ يتأمل منه، ثم بصعوبة قام على ساقيه، ضرب بطن الحارس بكوعه عدة مرات قبل أن يطبق على خصيته، فأرخي الأخير شبكته ألمًا حين التفَّ كاي ودفعه لمسافة استطاع فيها أن يرفع قدمه فيدفع صدر الحارس قبل أن يلكمه بعزم ما أوتي في سقطه في الحوض الذي ضجَّ برعدة عنيفة.

ثم نظر لأمه...

كان يدرب نفسه على اليوم الذي سيمسك فيه بيدها في فراش الموت حتى تبرد، تمنى لو وهبها حفيداً تغنى له قصة الملاح الثانية، لكنه لم يتخيّل في أبشع كوابيسه أن يأتيها الموت بذنب اقترفه، اقترابه من جسدها اخذ سنوات، انحنى فجمع رأسها، ثم وضعها على ظهرها ولثم جبينها المخضب بدمائهما ودموعه، قبل أن يخلع إزاره المبتل وبخطي وجهها، هامساً:

يا رب الأبدية، الجلال لك في هيمنتك، لم أنطق بالأكاذيب أو أرتكب الخداع، لتضمن لأمي طريقاً تعبر عليه إلى فردوسك في سلام، ولتسامحني على ما سأرتكب.

خلع ملابس الحارس مشحوج الرأس، ارتداها ثم ألقى نظرة أخيرة على أمّه قبل أن يخرج من القبو، مشي في سرداب لا أول له ولا آخر، حتى التقى صوت مُرددٍ، تبيّس مكانه مُسلول الفكر حين ظهر في نهاية الطريق، وضع كاي يده على سلاح الحارس في حزامه قبل أن يلتقط صوت آخرين يمشون خلف سيدهم، أغمد رغبته وأحنى رأسه ثم وقف في وضع



الحراسة حتى مر مُرْدَخَى ورجاله ولم يعبروه اهتماماً، ابتعد بعدها كاي متذذا طريقهم الذي أتوا منه، حتى فتح باباً وجذ الشمس خلفه، انتظر حتى تهيأت عيناه فاستوعب باحة خلفية للقصر، ضرب القلنسوة فوق رأسه وخرج من البوابة في هدوء، بعد دقائق التقط صدى أبواق حادة تضرب الأفق، ومن بعدها جلبة فتح البوابات الكبيرة وخروج الحراس، نظر إلى آثار قدميه فوجدها جلبة لا تحتاج إلى قاصٌ أثر ليتبعها، ركب بأقصى ما أوتي حتى تخالل زحام الباعة، بدأ حذاءه باخر سرقه من بضائع مفروشة، ومشى بعرجة مصنوعة سيقرأ من يتبعه أنها لرجل يحمل فتاعاً ثقيلاً على كاهله.



♀

♀

♀

مَعْبُدُ «أُون»، بَعْدِ نِصْفِ دُورَةِ قَمَرٍ.

سَارَ كَايِ فِي نَفْسِ الطَّرِيقِ الَّتِي قَرَأَ عَنْهَا بِبَرِدِيَاتِ مَعْلَمِهِ، الطَّرِيقِ الَّتِي مَشَاهِدَهَا مُوسَى يَوْمًا. غَرَبَتِ الشَّمْسُ، بَدَأَتِ  
الصَّخْورُ فِي جَرْحِ قَدْمِيهِ، وَرَاقَبَتِهِ الأَعْيُنُ الْمُضَيْنَةُ لِأَصْحَابِ اللَّيلِ، حَتَّى بَلَغَ طَرِيقَ مَمْهُدَةَ أَصْعَاتِهَا الْمُشَاعِلِ. فِي  
نَهَايَتِهَا بُوَابَةٌ عَلَى جَانِبِهَا تَمَثَّلَانِ كَبِيرَانِ إِلْدَرِيسِ وَشَجَرَةِ صَفَصَافِ باسْقَةِ، اقْتَرَبَ مِنَ الْبَابِ الْمَنْقُوشِ فَطَرَقَهُ، التَّقْطُ  
وَقَعَ خَطْوَاتٌ خَفِيفَةٌ ثُمَّ افْتَحَتْ ثَلَمَةٌ أَطْلَلَ مِنْهَا كَهْلٌ ضَعِيفُ الْبَصَرِ؛

الْمَعْبُدُ لَا يَسْتَقْبِلُ عَابِرِي السَّبِيلِ.

. بَلْ أَنَا كَاهِنٌ، جَئْتُ مِنْ مَعْبُدِ الْأَسْوَارِ السَّبْعَةِ بِسَمْنَوَدِ.

خَيْقَ عَيْنِيَّهِ وَاقْتَرَبَ:

. هَيْنَتْكَ لَا تَوْحِي بِالْكَهَانَةِ.

. رَحَلَتْ عَنْ مَعْبُدي مِنْذِ زَمْنٍ لَيْسَ يَقْصِيرُ.

كَسَا الشَّكْ مَلَامِحَهُ.



. عاود الزيارة في الصباح.

. لن تتركني في الخلاء أقضى ليلتي.

. إن كنت كاهناً بحق فأنت تعرف أن قطاع الطرق يهاجمون المعابد.

. أعرف، كما أعرف أن ذلك المعبد قد آوى رجلاً مباركاً منذ ما يزيد على ألف وثلاثمائة عام، رجلاً اسمه موسى.

نظر الكاهن في عينيه للحظات:

. أنت كاي.

أوما برأسه إيجاباً ففتح الباب وأشار إليه الكاهن أن يتبعه، فرش له حصيرة في ركن بالبهو، وأطعمه الجبن وعنقود عنب دون أن يرهقه بسؤال، ثم وضع بين يديه شفرة مشحودة، حلق كاي شعر جسده ورأسه ثم نزل إلى البحيرة المقدسة، في ضوء القمر، اغتسل ثم جلس على الحافة، أغمض عينيه وأرثى أطرافه ثم ردد الرزين، ذبذبة تتصاعد من رئتيه لحنجرته، تسلح عنه التوتر وتفرغ الخوف من كبدة كنقطاط الحبر في الماء، ظل في ثباته حتى تغيرت نبضات قلبه ففهمس:

. يا ملتهم الظلام، يا من جمعت السماوات في قبضتك ونثرت النجوم الزاهية، يا من ملأت البحار بالمياه، يا من أرسلت إدريس بالهدایة من فوق الجبل ليحارب نسل الخطأ في السفح، انظر إلى يديّ وقلبي، لم أرتكب الشر يوماً في موضع الخير، بل أولئك الذين ملكوا أرضك صاروا ذئاباً، والأمراء في عالياتهم أصبحوا ضياعاً، وإن ما أكتبه ملعون عند سادة الأرض الجدد؛ سادة إيجيبت التي وهنت قشرتها وضعف بذرتها، لا تضعني في عبدية هؤلاء الذين قطعوا جسد إدريس يوماً، لتجعلني ثابت القدمين، أسرع من كلب صيد، وأشف من ضوء قرصك الملتهب، لا تغلل روحي، ومجد اسمي في سلام حتى ألاك.

ثم استشعرت أدناه حفييف زحفها على الرمال، فتح عينيه بهدوء فرأها، سوداء منتصبة، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراوان كالأعين، ضم كاي راحتيه ثم انحنى أمامها في إجلال:



. السلام عليك يا سيدة الرمال، يا حارسة الملوك يا ساكنة التيجان، الحال على من زرع الحركة في أطرافك وحقن الموت في أبياتك، لتعضديني في محنتي، ولتنصريني على فن عادي تلك الأرض التي تحرسنيها، اذهببي، باسم الذي سخرك، اذهببي إلى الإسكندرية، ولا تعودي إلا ظاهرة.

زحفت بهدوء حتى ساقيه، صعدتها، تسلقت صدره في نعومة، كتفه، ثم التفت حول رقبته، أغمض عينيه وردد الزئين في حنجرته فاحتزت رقبتها مع نبضات قلبه، حتى نفخ البوّق إذاناً بصلوة النهار، فتح كاي عينيه وكانت قد رحلت، ارتدى إزاره ثم جثا بين الكهنة الذين رمقوه باستغراب، متابعاً عازفي المزامير مُصغياً للمنشدين يرفعون الأدعية من كتاب «الحمد الإدريسي» أمام الحائط المقدس، ثم توجه بينهم لقبلة نجم الشمال فأدى صلاته وسجد للراعي حتى لاحظ كاهن المعبد بكاءه فوضع يده المعروقة على كتفه فانتفض:

. دعاء طويل، كرب عظيم.

مسح كاي وجهه بيديه:

. مرّ زمن لم أسجد فيه للراعي.

. كان جسده منهكاً فابتلاه أن أعرفك بنفسي حتى تستريح، أنا مختار، كبير كهنة معبد أون، أعيش هنا منذ أربعة وستين عاماً.

قام كاي فانحنى في إجلال فاردف مختار:

. ذكرت ألك تركت سمنود منذ زمن ليس بقصير؟

. رحلة طويلة، كان علي زيارة معبد السيرابيوم بالإسكندرية بعد وصيّة أوصاني بها الكاهن الأعظم.

. وردتنا الأخبار الحزينة، هل عرف قاتله؟

. لم يعرف حتى رحلت.



منذ عام ترثت النجوم في هيئة مربع فأدركت أن أمراً جللاً سيحدث، قطاع طرق مجهولون يهاجمون المعابد بلا رادع، رجال الشرطة لا يظهرون في الأفق، والآن يقتل الكاهن الأعظم ولا يعثر على قاتله! أسوار معابدنا تفقد هيبتها، بل فقدنا الإيمان بأنفسنا.

ساد السكون للحظات قطعها الكاهن:

لِمَ اخترت معبد «أون» لِتُودع فيه بردیات الكاهن الأعظم؟  
قرأت في بردیات معلمي عن وقائع حدثت في ذلك المعبد، فآمن قلبي أنه المأوى المناسب.  
ولِمَ أرسلتها مع زوجك؟  
زوجي؟  
ناديا، أليست...؟

استدرك كاي:  
آه، نعم، تعرضت لمتابع في الرحلة وخشيت أن أفقدها فتركتها بين يديها، هل هي بخير؟  
تجني الأعناب بالمزرعة، وترقص تمجيداً للشمس مع الفتيات في الشروق، وتبيت ليلها في بيت قريب محروس بكلاب الرعي.  
وماذا عن البرديات؟

أودعتها حزانة المعبد.

هل لي أن أراها؟

البرديات أم ناديا؟



قرب.

يَعْ أَنْ تَرِي زَوْجَكَ حَتَّى أَسْتَخْرُجَ لَكَ الْبَرْدِيَاتَ مِنْ قَدْسِ الْأَقْدَاسِ.





مشو كاي تحت عرائش العنب حتى لمحها، جائيه على ركبتيها في رداء أبيض تجمع العناقيد في سبت، رأته فوقفت، قبل أن ترکض ناحيته، احتضنته حتى سآل عرقها على خده وعصير العنب من أناملها على ظهره، نظرت في عينيه:

. ظننت أني لن أراك ثانية.

. كادت روحي في لحظات أن تيأس من جسدي

لاحظت رعشة في يديه فجلست وجلس:

. كيف تركك رجال الملك؟

. لم يتركوني، لقد فررت منهم.

اتسحقت عيناها فهز رأسه بوجوهه:

. شجوا رأس أمي أمام عيني ليجبروني على البوح بمكان البرديات.

. كل ذلك الموت من أجل إضمامه بردديات؟

. الآن بانت تستحق.





بعد موت أمك؟

قد مات الكاهن قبلها، وكانت البرديات بحوزتك فكيف أبوح؟ الموت عندي أهون من رؤية الظفر في عيني مردحاي أو رؤيتك تؤذين.

تأملت عينيه اللتين غارتني قبل أن يسألها مبدداً الصمت.

كيف كانت رحلتك على قتن السفينة؟

بعيداً عن حماقات البحارة أخبار البرديات حتى رست السفينة في ميناء قريب، تسللت منها وقضيت ليلتين في سقيفة للبدو حتى مرت قافلة أقلتني عبر طريق وعر، تركتني عند المعبد فطرقت الباب، طلبت رؤية كبير الكهنة فأسلمت إليه البرديات والتمسنت الجوار فأكرموني بالمبيت بين عرائش العنبر، أجمع العناقيد وأعصرها مع الفتيات نظير طعامي وشرابي، وأرقص للشمس حين تشرق وأنفخ نيات الابتهاج والتمجيل للملائكة، هنا، شعرت بسكون لم المنسه منذ وطئت إليوسبيس، فقد زهد جسدي الرقص والعزف، ليالي آرام وصخب البحارة، رائحة العاهرات والسكاري...

قلت لهم إنني زوجك.

ابتسمت:

وأحببت وقع الكلمة حين نطقتها.

التمسنت البهجة في عينيه، لكنها رأت الشroud وقد غلفه، عبست كما تعبس الأنثى، ثم أشاحت بوجهها فلامس ذقنها في حنو حتى التفتت:

لا تسيئي فهمي، فكل من قابلت في الأيام السابقة طالته لعنفي.

أو ربما ما حدث بيننا على ظهر السفينة هو سنة الرجال في النساء.

عيشت في حواري إليوسبيس الملأى بالنساء ولم أر سواك.



. الليل والخوف والخلوة يهينان الأجواء لمغامرة عابرة.

. لم يحرّكني سوى قلبي.

. يتحرّك قلب كاهن لفتاة زواها عرق الرجال؟

. ليس بيننا من هو بلا خطيئة.

. أنت كاهن معصوم.

. كاهن أزهق ثلاث أرواح.

. أما زلت مؤمناً بأن تلك ليست تدابير إلهك؟

. الراعي لا يزرع الشر في النفوس بل نحن من نفعل.

. يدهشني وفاؤك لصاحب السماء رغم ما أصابك.

. إنما أنسىب الإنم لمن يستحق.

. فرّقت من العنقود حبات ووضعتها في فمه، نظر في عينيها ثم أردف:

. إلى متى كنت ستنتظرين عودتي؟

. زُيما لعام أو عامين، حتى تيأس كلاب آرام من العثور علىّ، ثم أتجه جنوباً للبحث عن أبي.

. حالما أتمم ترجمة البرديات سارافقك حتى تلقيه.

. تالله تفتّأ تذكر أمر البرديات!

. كنت أظن ما فيها سيرة رجل عادي، ثم علمت أنه رسول السماء لملك من الرعاة جبار غريب الأطوار، العجيب أن رئيس

. القصر يحكى قصة مغايرة، يقول إن الملك الذي هزمته ذلك الرسول چيبي، في حين أن معلمي يذكر أن الملك بدوي



من قبائل الرُّعَاة!

. وماذا سيحدث إن كان هذا الملك من سُكَّان النجوم حتى؟

. سأعرف حين أنتهي.

. أنت تُضْحِي بحياتك ركضاً وراء أوهام.

. لم يَخِبْ حَدْسِي يوماً.

. وحين تنتهي من ترجمة تلك البرديات، ماذا ستفعل بها؟

. سأنتظر عالمة من مُعْلَمِي.

. القتيل؟

. الموت لا يعني الفناء.

. أنت بلا عقل، وهذا يتبرّني.

. ابتسمت فتأملت تعارض العنب من حولها ثم استطردت:

. أتعذّنِي وعداً؟

. إن كان بإمكانِي تحقيقه.

. عذّنِي إن مِنْ قبلك أن تدفننِي هنا.

. وأشارت بإصبعها إلى مقابر بعيدة نَمَت فوق شهودها الأشجار. أردفت:

. لم أختبر الموت في من حولي من قبل ولم أُزِّر القبور. والعجيب، أشعر بسُكينة غير مفهومة حين أشُرد في تلك

. البقعة الساكنة، أتخيل أرواح الأموات تخرج من الأرض في جذوع الأشجار.



أنت لا تعرفين لم تنمو الأشجار في القبور.

لم أتعلم قراءة نقوش الجدران أو أزر المعابد، وكلما سألت فتاة من فتيات الجنّي أجابتني بأن تلك هي بركات إدريس.

ـ «إدريس» و«سَيْت»ـ كَانَا أخوين لِمَلِك عادل يَحْكُم مملَكة الجبل. امْتَلَكَ إدريس الحِكْمَة والعلم، وملَكَ أخوه القُوَّة والعنفوان، والبِكُورِيَّة. مَرِّت السنين وهرَم أبوهُمَا فَأَوْرَثَ مَمْلَكتَهُ لابنِه الأصغر: إدريس، لِحِكْمَتِهِ وذِكْرِهِ، ولصَبْرِهِ لِيَمْتَلِكَهُ أخوه سَيْتُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ الجَبَلِ ثائِراً مُشْتَعِلاً بِالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ. يَبِثُ الانتقامَ فِي أَتِيَاعِهِ وَيَثْبِرُ الْفَوْضَى، اضطَرَ إدريس إِلَى النَّزُولِ بِجَيْشِهِ مِنَ الجَبَلِ لِمُواجهَةِ أَخِيهِ الَّذِي يَحْشُدُ النُّفُوسَ، تَحْضُبُ النَّهَرُ بِدَمَاءِ الْقَتْلِ مِنَ الْجَانِبِينِ، إِدريسُ الْأَصْلَحِ، وسَيْتُ الْمُتَمَسِّكُ بِالْبِكُورِيَّةِ. ثُمَّ مَالتُ الْكَفَّةُ إِلَيْ إدريس فَانْتَصَرَ. لِيَقْدُمَ أخوه عَهْدًا بِالسَّلَامِ وَيَقْيِيمَ حَفَلًا يَعْلَمُ فِيهِ الْوَفَاءَ لِأَخِيهِ وَالْإِذْعَانِ، وَإِذَا بِهِ يَغْدُرُ بِأَخِيهِ إدريس فَيَقْتُلُهُ فِي الْحَفَلِ شَرْ قَتْلَةٍ، وَيَقْطَلُ جَسَدَهُ لِيَلْقَاهُ بِتَابُوتٍ فِي سَفِينَةٍ مُتَجَهَّةٍ إِلَى بِبِلُوسَ بِسُورِيَّةِ. قَرَبَ السَّاحِلِ جَنَحتُ السَّفِينَةُ فَطَرَحُوا التَّابُوتَ فِي الْبَحْرِ تَشَاؤْمًا، انْجَرَفَ جَسَدُ إدريس حَتَّى الشَّاطِئِ فَأَنْبَتَ الرَّاعِي فَوْقَهُ شَجَرَةً أَدْرَجَتْ ثَمَارًا مِنَ الْذَّهَبِ وَالْأَحْجَارِ الْمُلُوْنَةَ إِشَارَةً لِأَمْرَاتِهِ «إِيزِيس» الَّتِي خَرَجَتْ لِلبحثِ عَنْ جَثَمَاهُ، جَمَعَتْ الْأَشْلَاءَ فِي صَنْدُوقٍ وَاحْتَفَتْ مَعَ ابْنِهِ الصَّغِيرِ خُورُسَ عَلَى جَزِيرَةٍ حَتَّى اشْتَدَ سَاعِدَهُ فَتَولَى الانتقامَ مِنْ عَمِّهِ «سَيْتَ»...  
ـ وهل ظفر؟

ـ وَلَقَبَ بِالْمُنْتَقِمِ لِأَبِيهِ، مَنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَزِينُ الْكَهْنَةَ الشَّجَرَ فِي بَدَائِيَّةِ كُلِّ عَامٍ، أَسْوَهُ بِشَجَرَةِ إدريسِ الَّتِي نَبَتَتْ فَوْقَ جَسَدِهِ.

ـ يَا لَهَا مِنْ قَصَّةٍ! فَلَتَعْدِنِي أَدْفَنُ هَنَّا وَتَنْتَظِرُ لِثَمَارِي حِينَ أُتُمِّرُ، طَالَمَا قَلَتْ إِنَّ الرَّبَّ لَا يَتَدَخُّلُ فِي مَصَائِرِنَا، سَأَنْجِنُ نَهَايِيَّتِي كَمَا أَحْلَمُ،

ـ مَا دَفَتْ هَنَّا، سَالِمَةً، فَلَتَفْعَلِي مَا شَيْئَتِ.

ـ قَالَهَا وَقَامَ فَاسْتَدْرَكَتْهُ:



سؤال آخر، إن لم تكن معي البدريات هل...؟

ضمّ أصابعها في كفيه فسكتت:

كنت سأتي من أجلك.

ابتسمت فهز رأسه:

على أن أعود للكاهن مختار.

فشي تحت عرائش العنب فتابعته بعينيها، وقبل أن ينحرف تجاه سور المعبد بربت العاشرة من وراء الأغصان، اصطدمت بكتفه فلم يشعر، التفت لناديا وفتحت فمها فدلية لسانها في سخرية، ثم قفزت فالقطعت عنقود عنب وقلدت مشيتها الهادئة حتى اقتربت منها فهمست:

سمعت أن للكاهنة في الفراش باعًا طويلاً.

ضررت ناديا جبهتها بباطن كفها عدة مرات كان في رأسها نحلة تطن:

ارحلني عن أيتها العاشرة.

استشعرت التفاتات الفتيات من حولها فابتعدت، لحقتها كظلها:

لمن تخلين عليّ بمشاركتك الفرحة؟

أي فرحة؟

فرحة أن تصيرى عروسًا للرّب، هنا ستتجدين المأوى، بيتاً في العراء، بجانب المقابر، تعصرین العنب بقدميك وتأكلين البتاو وجبن الماعز، من بعد ولائم حانات الإسكندرية المليئة باللحوم والأسماك، وليلالي آرام الراقصة، بل وتحلمين بالدفن تحت الأشجار



دخلت ناديا غرفتها وأوصدت الباب فوجدها فوق الأريكة تبتسم:

سقيفة تلبيك يا جوهرة إليوسيس.

كنت جوهرة في يد كلاب.

ذلك الكلاب كان يقبل أصابع قدميك.

وكان يطؤني دون رغبتي ويضربني وقتما شاء.

التمس عزوفك بعد أن أكرمك، وفاحت أنوثتك حتى جذبت أنوف الرجال، ماذا تتوقعين من عاشق غيور؟

أن يفهم أن النهر قد يغير مجرى، وأن ناديا الأمس لم تعدد هي ناديا اليوم.

الآن ستنزلين تحت الكاهن كما نزلت تحت آرام يوماً، ستقضين وقتاً لا يأس به، ثم تتركيه وترحلين، أو يتركك، فمن ذا

الذي يتحمل غضب ناديا وتغيير مزاجها، وكراهيتها لنفسها؟

مزاجي يتغير فقط حين أراك.

بل طماعة نفسك تهوى إذلال الرجال.

أذل من أراد الذل، من اقترب مني من أجل صدري وخصري، لكن كاي، أشعر معه ببهجة وراحة لم أعهدنا من قبل، لا

يتسلط ولا يفعل أفاعيل الرجال.

الرجال لا تعرف إلا الأنثى التي تخضع، انتظري حتى يلحدك.

هذا كاهن يتكلم بضم الرب.

ها أنت تصطبغين بلون من تحبين أيتها الحربياء! الآن كلام الرب وكهنة الرب مستساغان بعد أن كان الرب عابثًا

مغروراً!



. أنا لم أعد صغيرة.

. أفيقي قبل أن تتحولني لعجوز وحيدة، سيدفنك هنا.

. للتو طلبت منه دفني بارادتي.

. ذلك الكاهن يسعى لحتفه، ألا ترين عينيه؟ تتطقان بالجنون والانتقام.

. نظرت إليها ناديا:

. ماذا تقولين؟

. أقول إنه سيطرك كما وطاك من قبله، ثم يختفي أو يقتل فتتركين خائفة متربكة خلف سور المعبد، أو في المقابر، وإن لم يفعل، ستتولى طبعتك النارية بث الجنون في رأسه الساكن المخلوق، فلو أشعل النار في القمر ل تستدفني ناديا، لن تشبع، وستطلب المزيد، ثم تتهمنيه بالقصير، حتى ينفر، ويرحل، فتلعنيه بأقذع الألفاظ، ويصير عدوك الأول والأخير، كأنك لم تحبيه يوماً، ولم يكن شمسك وقمرك يوماً، لتبثثي من فورك عن بديل.

. أشاحت ناديا بوجهها نحو المقابر فاقتربت منها وفتحت شعرها، بشروء سالت:

. ماذا أفعل؟

. شرعت العاهرة في جدل ضفيرة:

. عُودي إلى آرام، عُودي قبل أن تفقدي رحْيَكِ وتذهب ربحَكِ، سيسامحك لأنكِ رجل ولأنكِ أنثى، سيسامحك فور ما تتعرّين، في اللحظة التي يرى فيها فخذيكِ وثدييكِ، حين يدفن رأسه بين خصلات شعركِ، سيلهث مثل كالبه فينسى الكون من حوله ثم ينحني على قدميكِ ليقبلهما، هؤلاء هم الرجال.

. لكنني، أحببت، لأول مرّة.

. الحب يتجدد على صدور الرجال.



أنهت جَدُل الصَّفِيرَة فَأَرْجَثَتْهَا عَلَى كَتْفِ نَادِيَا ثُمَّ انسَحَبَتْ فِي هَدْوَءٍ.



♀

♀

♀

في المعبد جثا كاي بين يدي الكاهن مختار، باركه ومسح بالزيت رأسه ثم سأله عن مقتل الكاهن الأعظم، حكى ما حدث دون أن يذكر أمر اتهامه، وأدرك بعد قليل أن الخبر لم ينتشر، فكما توقع، حاف متري نائب الكاهن من التشهير برجال المعبد فأثر الكتمان.

قال الكاهن مختار:

على قدر ضعف بصري رأيت خط الكاهن الأعظم، هيراطيقيته مميزة، لكنني لا أدرى سبباً لاستخدامها!

اعتقد أن يكتب مدوناته الخاصة بها حينئذ للماضي.

هل يعرف كهنة معبدك أمر تلك البرديات؟

نعم؛ لذلك أبذل كل الجهد لترجمتها.

ولم ترجمها خارج المعبد؟

كان على تجميعها من عدة أماكن.

إذا نشرت ستحدث بلبلة، هل تعي ذلك؟



. بردیات الکھنۃ لم تَعُدْ تَوْضِعُ إِلَّا فِي رَفُوفِ الْمَعَابِدِ أَوْ فِي مَقَابِرِ الْأَمْوَاتِ.

نعم، ولكن، بردیات الکاھن الأعظم؛ القتیل، ستخلق التھافت بین الناس، إلی أنها تتناول تاریخ ثعابین العرش، هكذا  
قرأت في السطور الأولى قدر ما سمحـت به عیناي، أثق في أنك تعيـ ما أقول.

. بالطبع يا سیدي، ولكن، مـنـذـ مـتـىـ لـاـ تـنـفـذـ وـصـيـةـ الـکـھـنـۃـ الـراـھـلـيـنـ؟

هـزـ مـختارـ رـأسـهـ وـابـتسـمـ:

. علمـكـ الـکـاـھـنـ الأـعـظـمـ حـسـنـ الـخـطـابـ، لـتـكـمـلـ مـسـيرـتـهـ يـاـ بـنـيـ، فـوـصـيـةـ الـکـھـنـۃـ أـكـرـهـ أـنـ تـرـكـ، ثـمـ لـنـتـبـاحـثـ أـمـرـ الـعـرـشـ  
وـفـنـ حـولـهـ بـعـدـ قـرـاءـةـ تـرـجـمـتـكـ.

أنـھـيـ الـکـاـھـنـ کـلـمـاتـهـ ثـمـ نـاـوـلـ کـایـ الـبـرـدـیـاـتـ وـوـرـقـ الـبـرـدـیـ وـدـوـاـةـ حـبـرـ أـسـوـدـ وـبـوـصـاتـ جـدـیدـةـ.

. هلـ لـيـ فـيـ غـرـفـةـ صـغـیرـةـ أـخـتـلـیـ فـیـهـاـ بـنـفـسـيـ فـأـتـرـجـمـ؟

اعـتـقـدـتـ أـنـ وـجـودـ زـوـجـتـكـ سـيـسـاعـدـكـ عـلـىـ ذـلـكـاـ

. لمـ أـعـتـدـ الـعـمـلـ خـارـجـ الـمـعـبدـ، فـالـنـسـاءـ لـاـ يـتـرـكـنـ التـرـثـرـةـ، كـمـ أـنـنـيـ أـخـافـ عـلـىـ الـبـرـدـیـاـتـ مـنـ الضـيـاعـ أوـ الـعـبـثـ.

. سـيـكـونـ لـكـ غـرـفـةـ قـرـبـ الـبـحـیرـةـ الـمـقـدـسـةـ، وـسـيـكـونـ عـلـیـكـ أـعـبـاءـ الـکـھـنـۃـ وـوـاجـبـاتـهـمـ طـالـمـاـ عـشـتـ بـيـنـهـمـ،

. ذـلـكـ أـكـثـرـ مـمـاـ أـرـغـبـ. أـمـرـ أـخـيـرـ، سـيـكـونـ مـنـ الـمـفـيـدـ كـتـمـانـ أـمـرـ وـجـودـيـ هـنـاـ حـتـىـ أـنـھـيـ، فـڪـمـ قـلـتـ يـاـ سـيـديـ، ثـعـابـينـ  
الـعـرـشـ لـاـ يـسـرـهـاـ تـنـفـيـذـ وـصـيـةـ الـکـھـنـۃـ.

هـزـ الـکـاـھـنـ رـأسـهـ وـلـمـ يـعـقـبـ.



♀

♀

♀

خرج موسى من هواة خائفا يتربّب، كلما مر بقافلة أو ركبان غطى وجهه وانحرف خشية أن يكونوا من أجناد فرعون أو هامان يحملون الموت بين أيديهم، اتجه شرقاً لخمسة أيام ثم انحدر جنوباً، يسيراً ليلاً وينام نهاره في المغارات والكهوف ليراقب حركة القوافل، حتى ورد مدين، مدينة صغيرة تقع حيث تضعف قبضة فرعون الذي انشغل في الأونة الأخيرة بالسيطرة على ثورة الجبّابين المتمثّلة في ملكهم العنيف «كامس» ابن «سقنان راعي».

تمشي موسى حتى أشرف على بنر واسعة الفوهة يتزاحم حولها الرعاة ببهائمهم، وحشيون تفتقر وجوههم الرحمة، يدفع بعضهم بعضاً وبثيرون التراب ويصيحون بصخب، بالقرب منهم تابع فتاتين تمنعان ماشيتهن عن الاختلاط بدواب الرعاة، استوقفه ظلّف الرجال من حولهن وعدم الالتراث فنزل واقترب حتى التفت إداهما، تخفى نصف وجهها من التراب الصاعد، بعد تردد رفع صوتها:

ما خطبكما؟

نظرت إليه للحظات ثم أردفت:

لا نسقي ماشيتنا حتى يرحل الرعاة.

ألا يكفلكم رجل؟



أبونا شيخ كبير.

ائذنا لي بالمساعدة.

نظرت لأختها ثم هزت رأسها موافقة فمد موسى يده وسحب حبال الماشية، شمس ساعديه وغضي وجهه وزاحم حتى لا يمس أحجار البئر وسط حدة الرعاة وخشونتهم، التفت إليه أحدهم:

غريب يدفع الظهور ويلوح بعصاه! من أي أرض أنت؟

نظر إليه موسى من فوق نقابه ولم يجبه فكراً الراعي أسنانه ورفع صوته:

ما لك لا توفر الرعاة؟ اكشف وجهك.

ارتفاع صوت من بعيد:

ما باله؟

صاحب الراعي بصوت أنزل الرعب في نفس الفتاتين:

غريب يزاحم ماشيتكما ويدفع الرعاة.

ارتفاع صوت من جهة أخرى:

إذن ليربينا كيف سيرفع الدلو وحده.

نظر موسى للراعي الذي تحدأه ثم للدلو الكبير المربوط بحبيل غليظ إلى رافعة يشدّها ثلاثة رجال أشداء، ثم نظر للفتاتين اللتين اشرأبتهما عنقاهما. ساد الصمت قبل أن يبرط الماشية في خصره ويسحب الحبل الغليظ من الرجال، تأرجح الدلو فهو إلى البئر في سرعة فضحك الرعاة، ترك موسى الدلو حتى غطس وامتلاً ثم دفع الأرض بساقيه وأمال ظهره فجذب الحبل بقوّة إلى الوراء، كلما ارتفع الدلو لفَّ موسى الحبل مرةً حول مرفقه وسط ترقب الرجال ودهشتهم، حتى وصل إلى حافة الحوض الخشبي فأوثق الحبل إلى دعامة قريبة ورفع مؤخرة الدلو



فاندلق بعنف في فجراه، ساد السُّكُون بين الرُّعَاة وندت نظرة حقد من الراعي الذي استفزَّ موسى ثم ضحك الجميع بغثة، وربت البعض على كتف موسى الذي جذب ماشية الفتاين وقربها من الماء لشرب، ثم ذهب إلى الفتاة التي حدثته، شكرته بنظرة ود واحتضنها فاستند حائطاً جلس في ظلها ساعة، حتى لاحت الفتاة ثانية، رآها فقام ونفض التراب عن ملابسه فقالت باستحياء:

إنَّ أَبِي يَدْعُوكَ إِلَى الْغَدَاءِ.

مشى موسى وراءها، لم يتبدل لا كلمة أو نظرة، دلف من باب البيت وكان أبوها في انتظاره، أجلسه وقدم إليه الشراب والطعام قبل أن يسألها عن نفسه، باطمئنان لا يعرفه، وربما برغبة في التخلص من حمل ثقيل حكمي موسى ما كان من أمر ولادته حتى زحيله عن المدينة هريراً، أردف الشيخ:

إنَّ الْأَنْبَاءَ الْمَرْوُعَةَ تَأْتِينَا عَلَى ظُهُورِ الْعِبْرِ، لَا أَصْدِقُ أَنَّ الْمِصْرَ الَّتِي أَطْعَمْتُ أَمْمَ الشَّرْقِ زَمْنَ الْمَجَاعَةِ، يَأْتِيهَا يَوْمٌ  
لِيَتَزَعَّمُهَا جَلْفٌ غَلِيظاً لَكِنْ لَمْ يَعْجِبْ؟ هَلْ مَرَرْتُ بِقَبْيلَتِهِ بِوَادِي عَرِبَةِ فَارَانَ عَنْدَ خَرَابِ ثَمُودَ الْمَلْعُونَةِ؟  
إِنَّهَا قَبْيَلَةٌ يَسُودُهَا الْجَشْعُ وَالْطَّمْعُ وَالْغَلْظَةُ، لَا يَعْرُفُونَ إِلَّا غَيْرَ الْأَذْهَبِ، يَغْيِرُونَ عَلَى الْقَبَائِلِ الْمَجاوِرَةِ حِينَ  
يَشْتَدُّ بِهِمُ الْجُوعُ، جَدِيرٌ بِبَطْوَنِ نِسَائِهِمْ أَنْ تَنْجِبْ قَتْلَةَ جَبَارِينَ، لَكِنْ أَنْ يَمْتَلِكُوا زَعَامَ الْمِصْرَاةِ ذَلِكُ هُوَ الْحَزْنُ أَ  
الْكُنُوزُ الَّتِي يَسْتَخْرِجُهَا قَارُونَ مِنْ مَحَاجِرِ الْفَيْرُوزِ، الْأَنْهَارُ الْثَّلَاثَةُ الَّتِي تَجْرِي لِهُوَارَةَ مِنْ أَرْضِ إِيجِيبَتِ، وَرَءُوسُ  
الْعَشَائِرِ الَّذِينَ صَدَّقُوا ادْعَاءَهُ الْأَلْوَهِيَّةِ، كُلُّ ذَلِكُ لَا يُزِيدُهُ إِلَّا شَرْهَهَا وَتَوْحِشَهَا.

أَيْصَدَّقُ الْمَخْبُولَ حَقَّاً أَنَّهُ إِلَهٌ؟

يترك الرجل فيقول أحبابته، ويؤوده في جذع نخلة فيقول أمته، شيء ما في عقله يجعل من ضلالاته يقيناً، أكاد أجزم رغم كراهيته أن لديه إيماناً بشيء ما.

يَا لَهُ مَنْ أَحْمَقَ! وَمَا بِالْهِ وَبِنِي إِسْرَائِيلَ؟

يسخر النساء في الفرش، ويبقي على الأقوباء من الرجال من أجل الخدمة الدنيا.



. كل ذلك من أجل نبوءة مشئومة؟

. ولعوار أصيل فيبني إسرائيل، فهم قوم جبناء لا يخلصون لله واحد، لا كرامة لهم ولا ملة، تجولوا بين الأمم ثم دخلوا مصر مع من دخل بعد اجتياح الرعاعة، عاشوا بين القبائل محترفين الرعي حتى جاء زمن يوسف صاحب الخزائن، تكثروا بالقرب من بيت أبيه يعقوب في أرض جasan الخصبة فأكرم ضعفهم وأعدق عليهم من خيرات الأرض حتى فسدة نفوسهم وتمكنوا، توغلوا في الصرُوح، تقلدوا المناصب وامتلكوا أسواق الحلبي والذهب، ثم تمسحوا في نسل يعقوب وأحفاده وصاهروهم، فتحذين من برَكات النبوة هالة مجد تفتح لهم الأبواب، حتى أقرضوا القبائل بالربا فتنبه يوسف لطغيانهم، نهاهم فتمردوا عليه وكانوا السبب في هلاكه، لا أحد يعرف له قبرا حتى الآن، حتى إذا جاء فرعون وكانت قبيلته أكثر القبائل اقتراضاً منهم، أدرك أنهم السُّوس في قدم الدابة، يكنزون الذهب فيكبّلون التجارة ويبتزون الرجال، وإذا هاجم الجيبيتون مصر فسيكونون أول المتحالفين معهم.

. فنخل بهم ليسحق شوكتهم.

. وظلم أهل بيت عمران حفيد يوسف مع من ظلم، لعنة التصquet بنسلنا كما تلتصق الحشرات بالجرح، نعيش بين بيوتهم، ويقع علينا ما يقع عليهم.

. وماذا عن الجيبيتين؟

. الجيبيتون تحت ملكهم «كامس» ابن «سقون راعي» أفقدوا فرعون الكثير من الأراضي، نزلوا من «واست» في معارك خاطفة سيطروا بها على مدن غرب النهر، حتى إن النساء لن تلد من هول المعارك برأ، وبحراً، لولا القلاع المنيعة وحشود العربات لاجتاحوا هوارة.

. تخاف ذلك اليوم كخوفنا من وحوش الصحاري، ففرعون استأثر بالخيرات لنفسه، ولم تعد مصر تحته تغنى عن مجاعة أو شح مياه، وإذا استرجع الجيبيتون مصر إلى أرضهم فسيجتathon أرضنا.

. من الصعب التنبؤ بما ينتويه الجيبيتون، وأخو福 ما يراودني هو سحق المستضعفين في أتون المعركة.



رغم ما حكىت أرى فيك العطف على بني إسرائيل!

لا أملك إلا الشفقة على قوم ظلمتهم أحلامهم فظلمهم جبار لا يرحم.

يا بني لا تخف، فقد نجوت من القوم الظالمين.

قضى موسى ليلتين في بيت الشيخ «يثرون» قبل أن يقبل الأخير عليه فجراً. أيقظه فابتسم:

أرهقتك يا شيخ «يثرون».

إن كان في الأمر إهراق فسيكون في أعين الناس.

ضرب الحرج وجه موسى وتعرق جبينه فاستدركه الشيخ:

يا بني، أنت رجل غريب في ذلك البلد، مثل نحلة في إناء لين، وأخاف أن يترصدك القوم فيؤذوك أو يفضحوك، لم

لا تنزوج إحدى ابنتي وتعيش معها، ابنا لم أنجبه؟

تلعثم موسى فابتلع ريقه:

هذا شرف لي، لكنك لا تكاد تعرفني يا شيخ «يثرون»، وأنا لا أملك...

قاطعه،

السمات على وجهك جلية، رجل طاهر من بيت طاهر، وأنا شيخ كبير ماتت زوجته، وأيامي في الحياة باتت

معدودة وليس لي إلا ابنتي أعتنني بهما، وقد قالت لي إحداهن أمس: «يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت

القوي الأمين».

تصبب العرق على جبين موسى فضحك الشيخ:

يا لك من خجول!



إنني لا أملك مهراً.

كُن في خدمتي ثمانية مواسم، ترعى بيتي وتجاري خلال رحلتي لبيت الرب، فإن أتممت عشراً فذلك تفضل  
منك، هذا هو مهر إحداهن.

انفرج وجه موسى:

ذلك بيبني وبينك، أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي، والله على ما نقول وكيل.

وتزوج موسى من بكرية الشيخ «يثرون»، ساعده في تجارته وراعي بيته، عشر سنوات كما عاهده، أجب ذكرهن  
يشبهانه وأنثى تشبه أمها، يعتنی بأسرته الصغيرة وماشيته طوال النهار، وفي الليل، يصعد إلى جبل يطل  
على مدین، يختلي بنفسه فيسترجع كلمات الحکمة التي تلقاها في معبد «أون» ويحلم بوطنه الذي غادره،  
وإذاته الذين يفتقدهم.

ومرت عشرة أعوام، بلغ حالها موسى العقد الخامس، قضى حجّ حميه، ورث ابنته على حب راعي السماء  
والارض، قبل أن تناديه المدینة التي تركها خائفاً، صوت في صدره لا يكُف عن ترديد اسمها، وحلم يتكرر كل  
ليلة، يرى فيه أمه تحثه على العودة إلى هواه، وفرس نهر يطارد ضبعاً.

لما تيقن موسى أن ما رأه في المنام رسالة شاور حماه ونوه إلى أن عشر سنين قادرة على تبديل الناس وطممس  
الوجوه، ارتبك الشيخ «يثرون» وضربه القلق، ثم لمس التصميم في وجه موسى فتقبل على فضض وبارك  
الرحال التي اتخذت طريقها غرباً.

سار موسى بأهله وخدامه أيام على هدى النجوم، حتى استترت السماء خلف سحاب داكن فأناخ النوق بجانب  
صخرة بوادي طوى قبل أن يضم هزيم الرعد الآذان، بكى أطفاله خوفاً فنظر في الظلام حوله يلتمس قافلة  
تؤازره، ثم صعد إلى هضبة فلمح شعلة بعيدة بجانب بركة ماء فقال لزوجته:

لقد رأيت ناراً سأريك منها بخبر أو شعلة لعلكم تستدفئون.



اتَّكَ مُوسَى عَلَى عَصَاهْ دَرَأً لِكَائِنَاتِ اللَّيلِ، اتَّجَهَ صَوْبَ النَّارِ مَحَاوِلًا تَمْيِيزَ أَصْحَابِهَا أَوْ دَوَابِهِمْ، نَادَى بِالسَّلَامِ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ سَاكِنٌ، إِلَّا النَّارُ، خَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهَا قَدْ تَبَدَّلَتْ مِنْ صَفَرَةِ إِلَى زَرْقَةِ فِيروزِيَّةِ، مَشْتَعَلَةَ فِي أَغْصَانِ شَجَرَةِ صَفَصَافِ، غَزِيرَةُ الْأَوْرَاقِ تَنْبَثِقُ مِنْ بَحِيرَةِ مَاءِ تَحْتَهَا، أَبْطَأَ خَطْوَاتِهِ وَدَفَقَ النَّظَرِ فَمَيْزَنُورًا يَتَوَهَّجُ فِي نَعْوَمَةِ لَمْ يَرَهَا مَثِيلًا، يَصْعُدُ مِنْ الْجَذْعِ ثُمَّ يَنْحَنِي نَزُولًا مَعَ الْأَغْصَانِ إِلَى الْأَرْضِ، نَظَرُ مُوسَى حَوْلَهُ ثُمَّ نَادَى ثَانِيَّةً وَلَمْ يَجِدْهُ أَحَدًا، قَالَ لَهُ الْفَؤَادُ إِنَّ الْبَرْقَ قَدْ ضَرَبَ الْأَرْضَ قَدْ ضَرَبَ الْأَرْضَ فَأَشْعَلَ صَفَصَافَةَ لَهَا خَواصِ السَّحْرِ، لَمَّا بَاتَ عَلَى بَعْدِ أَذْرَعِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَدْرَكَ أَنْ تَوَهَّجُهَا لَيْسَ نَارًا، بَلْ وَمِيقَضَ فَسْفُوريَّ مُشْبَعٌ يَسِيرُ بِدَاخِلِ أَفْرَعِهَا سِيرَ الدَّمَاءِ فِي الشَّرَابِينِ، قَاوَمَ الْفَضُولَ وَرَعْشَةَ فِي صَدْرِهِ وَمَدَّ يَدَهُ بِتَرْدَدٍ فَلَامِسًا الْفَرْعَ فَانْتَقَلَ الْوَمِيقَضُ إِلَى أَصَابِعِهِ فَكَفَّيْهِ وَرَسَخَهُ، بِلَا أَلَمٍ، حَفَقَ قَلْبَهُ وَهُوَ يَتَابُعُ يَدَهُ الَّتِي سَارَ النُّورُ بِدَاخِلِهَا فِي سَلاسَةٍ، ثُمَّ أَرَاجَ سَتاَنِرَ الْفَرَوْعَ وَاقْتَرَبَ مِنَ الْجَذْعِ، مِنَ الْقَلْبِ الَّذِي تَنْصَبُ فِيهِ الْوَمِضَاتِ، لَامِسَهُ بِكَفْهُ، وَهُنَا فَقَطُ، سَمِعَ مُوسَى الصَّوْتَ، الصَّوْتُ الَّذِي سَمِعَتْهُ أُمُّهُ مِنْ أَرْبَعينِ سَنَةٍ، يَوْمَ أَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ:

بُورُوكْ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا.

تَلْفَتْ مُوسَى حَوْلَهُ مُضْطَرِبًا، شَدَّدَ عَلَى عَصَاهْ وَابْتَعَدَ عَنِ الشَّجَرَةِ صَائِحًا:

مَنْ هُنَاكَ؟

لَمْ يَتَلْقَ إِلَّا صَمَتَا، سَكَتَتِ الرِّياْحُ قَبْلَ أَنْ يَرَنَ الصَّوْتَ فِي رَأْسِهِ ثَانِيَّةً:

يَا مُوسَى، إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

سَقَطَ مُوسَى عَلَى ظَهِيرَهِ وَتَهَدَّجَتْ أَنْفَاسِهِ، نَظَرَ لِلْوَادِي مِنْ حَوْلِهِ مُقاوِمًا الظَّلَامِ وَالْهَلَعِ حِينَ أَرْدَفَ الصَّوْتَ مِنْ وَسْطِ النَّارِ:

اَخْلُعْ نَعْلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمَقْدَسِ طَوِيِّ.

قَاوَمَ مُوسَى رَعْشَتِهِ وَاعْتَدَلَ فِي وَجْلِهِ، سَلَتْ نَعْلِيهِ مِنْ قَدْمِيهِ وَجَثَا عَلَى رَكْبَتِيهِ مَحْنِيًّا رَأْسَهُ رَافِعًا ذَرَاعِيهِ مَرْدَدًا:



الجلال لك في هيمنتك، أنا لم أرتكب الشر يوماً في موضع العدل والحق ولم أدنس نفسي.

يا موسى اهدأ ولا تخف، لقد اخترتك من بين عبادي فاستمع لما يوحى، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، واقم الصلاة لذكرى، إنْ ساعَة العدل والحساب آتية، وستجزي كلَّ نفس بما تسعى، فلا يصمد لك من لا يؤمن بها واتبع هواه.

قال موسى دون أن يرفع عينيه عن التراب:

الجلال لك يا من تستقر فوق ميزان العدل، لم أتبع الهوى يوماً ولم أغضب بمشيئتي، لتضمن لي طريقاً عَسْيَ  
أن أعبُر عليه في سلام.

ما تلك بيمنيك يا موسى؟

ارتعش موسى ورفع عصاه فوق رأسه متلعثماً:

هي عصاي، أتوها عليها وأهش بها على غنمٍ، ولدي فيها مأرب أخرى، و...

ألقها يا موسى.

وقف موسى مقاوماً تهدج أنفاسه ثم ألقى عصاه، ما إن لامست الأرض حتى اهتزت ثم تلولت كثعابين المستنقعات، سوداء، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرةٌ صفراء وآن كالأعين، نفت فحيناً ففرع موسى وهو بالهرب حين أمره الصوت:

لا تخف يا موسى، إنك من الآمنين.

توقف موسى والتفت لعصاه التي تتلوى على الأرض ببطء حين قال الصوت:

خذها ولا تخف، سنعيدها كما كانت.

بعد تردد اتجه موسى لعصاه، وقف أمامها لحظات قبل أن ينحني بحذر ويقبض على ذيلها الذي يتلوى فإذا بها



تتپس وتنصلب فتعود كما كانت، قام مذهولًا ففحصها، ثم ضرب الأرض بها ونظر للشجرة التي تتوهّج ضياءً حين قال الصوت:

أدخل يدك إلى جيبك، ستخرج بيضاءٌ من غير سوء، إنها آية أخرى يا موسى.

نظر موسى ليده ثم وضعها في جيبه للحظات فلم يشعر بشيء، ثم أخرجها فإذا هي ناصعة مضيئة ك أحجار مرمر في ضوء الشمس. تبدّد فكره وثقل لسانه، قاوم ذهوله:

أحقاً أنت، إلهي؟

صنعتك أمام عيني يوماً بيوم في بيت الذميم، وألقيت عليك محبتني وعنایتی منذ أقتلك أملك بوحي مني في اليم لتنجو، والآن جئتكم بالآيات لتصدق.

سجد موسى على الأرض مقاوماً التلعثم والرعشة، ثم رفع وجهه برهبة ونظر للشجرة التي ازدادت حضرة وحسننا، شرد فيها فسحر الوميض المتالق عينيه حتى سُكن وهدأت روعته، همس:

ما قد يرغب رب من عبد فقير؟

ستكون رسولي كما كان أجدادك؛ يوسف ومن قبله يعقوب وإسحاق وإبراهيم.

رسولك إلى من؟

إلى فرعون ومثله الفاسقين، ستندرهم بالعذاب إن لم يتركوابني إسرائيل يخرجون من حلف القبائل إلى الشرق.

فرعون جاجد غليظ القلب، ما كان ليصدقني، وقد قتلت رجلاً من قبيلة يهودا التي يحكمها هامان، سيقتلونني إن عرفوا وجهي.

ستحميك آياتي وتبرهن على صدّقك.



شرد موسى للحظات قبل أن يردد:

. ربي، إنني رجل سريع الغضب، حين أثُور بضيق صدري فيُنقل لسانِي، وقد ينفلت غضبي فأعتدي، أرسِل معي أخي، هارون، فهو حليم حكيم وأفصح مني لساناً، سيُعِيننِي على لقاء فرعون ويؤازر قولي.  
سنُشد عَضْدَك بأخيك، وسيكون لكم سلطان ورهاة بآياتنا فلا يصلون إليكما أو يؤذونكم، أنتما الغالبون وفن أتبعكم من المؤمنين.

سجد موسى هامساً:

المجد والظفر والسلام لك يا ملتهم الظلام.

لم يُعرف موسى كم لبث في سجوده، شعور السلام دفعه أطراقه فذهب في سبات مريح، حتى داعبت الرياح وجهه فرفع رأسه ونظر للشجرة التي انتطفأ ميضها واحتلت النار في فرع منها، نظر للقمر في سماء صفت، ولعصاه الملقاة بجانبه قبل أن يقوم فيلتقطها ثم يتوجه إلى الشجرة، اقتطع الفرع المشتعل ورجع إلى زوجته وأبنائه، أشعَّ لهم ناراً ليستدفوا ثم اختفى بزوجته،  
عليك أن تعودي مع الأبناء إلى أبيك «يثرون» بمدين.

اضطربت ملامحها:

ماذا تقول؟

أمر جلل سيحدث وأخاف أن يطولكم الأذى.

لن أُبرح حتى أفهم.

أجلسها موسى على صخرة وحكى لها ما كان من أمر النار والشجرة، نظرت إليه باستنكار ثم اتهمته بالجنون قبل أن تقول له إن ما رأه أضغاث أحلام وأوهام صحراء، هز رأسه نفياً وأخذ وعيه فاقشعر جلدتها وهلَّعت روحها.



خافت ثم بكت، ثم أنكرت وقاومت، قبل أن تستسلم وقد همد جسدها وارتعش، احتضنها فجرت ساقيها تجاه أبنائهما مع بوادر الفجر، أسرت لهما بأن على أبيهـم أن يكمل طريقهـ وحدهـ، بـكـوا واحتضـنـوهـ ثم ركبـوا النـاقـةـ مع الخـادـمـ واتـخذـوا طـرـيقـ العـودـةـ إـلـىـ مـدينـ، أـبـصـرـهـمـ مـوسـىـ حـتـىـ تـلاـشـىـ أـثـرـهـمـ، مـقاـوـمـاـ دـمـوعـاـ فـيـ عـيـنـيهـ وـرـهـبةـ تـدـقـ صـدـرهـ، قـبـيلـ أـنـ يـتـخـذـ طـرـيقـهـ إـلـىـ هـوـارـةـ.

قرب الغروب وضع كـايـ الـبـوـصـةـ وأـغـلـقـ دـوـاهـ الـحـبـرـ، أـطـفـاـ بـيـديـهـ الشـمـعـةـ ثـمـ ثـرـجـ لـلـبـحـيرـةـ المـقـدـسـةـ، تـمـشـىـ عـلـىـ أـطـرافـهـ ثـمـ جـلـسـ وـأـدـلـىـ قـدـمـيـهـ فـيـ الـمـيـاهـ الدـافـئـةـ، شـارـداـ فـيـ قـصـةـ نـبـيـ الرـعـاـةـ، فـمـنـ هـرـبـ مـنـ حـتـفـهـ يـوـمـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـدـرـكـ شـعـورـهـ، الـخـوـفـ الدـائـمـ الـمـحيـطـ بـكـلـ مـنـ يـقـتـرـبـ، قـدـ يـكـونـ قـاتـلـكـ، أـوـ رـاصـداـ لـكـ مـرـاقـبـاـ، سـتـتـخـفـيـ وـتـغـيـرـ اـسـمـكـ، وـسـتـخـتـلـقـ الـقـصـصـ وـتـصـدـقـهـاـ، وـرـغـمـ ذـلـكـ، تـظـلـ أـجـفـانـكـ أـنـنـاءـ النـوـمـ مـفـتوـحةـ، وـأـنـفـاسـكـ مـقـطـوـوـعـةـ، لـاـ تـسـتـسـيـغـ طـعـامـاـ وـلـاـ شـرـابـاـ، وـلـاـ تـهـنـأـ بـلـحـظـةـ سـلـامـ خـالـصـةـ.

رفع كـايـ رـأـسـهـ إـلـىـ السـمـاءـ مـبـتـهـلـاـ فـرـأـيـ النـجـمـيـنـ الـمـتـجـاـوـرـيـنـ، يـسـمـونـهـمـاـ التـوـأمـ، هـمـسـ لـنـفـسـهـ: سـاطـلـقـ عـلـىـ الـأـوـلـ مـوـسـىـ، وـعـلـىـ الـآـخـرـ كـايـ، فـإـنـ كـانـ بـيـنـهـمـاـ أـلـفـ وـثـلـاثـمـائـةـ عـامـ، فـهـمـاـ فـيـ أـعـيـنـ الـبـشـرـ مـتـجـاـوـرـانـ.

ثـمـ أـغـمـضـ عـيـنـيـهـ وـانـخـرـطـ فـيـ اـبـتـهـالـ:

«يا رب الأبدية، يا أزلي، لـتـعـذـنـيـ ضـدـ فـاعـلـيـ الشـرـ، حـتـىـ لـاـ يـرـانـيـ أحدـ مـطـرـوـحـاـ عـاجـزاـ، سـأـتـرـجـمـ بـرـدـيـاتـ الـكـاهـنـ فـيـ مـعـبـدـكـ، الـثـورـ الـذـيـ يـثـيـرـ الرـعـبـ فـيـ الرـجـالـ لـنـ يـدـفـعـنـيـ لـلـوـرـاءـ خـطـوـةـ، وـالـتـمـسـاحـ الـذـيـ يـجـرـ ضـحـيـاـهـ لـلـمـسـنـقـعـ لـنـ يـقـفـ فـيـ طـرـيقـيـ، اـدـفـعـ الشـرـ عـنـيـ وـسـأـهـبـكـ قـلـبـيـ، عـسـىـ أـنـ أـظـفـرـ بـثـارـأـمـيـ، وـالـكـاهـنـ، عـسـىـ أـنـ يـكـوـنـ مـسـتـقـرـيـ جـنـتـكـ».

قالـهـاـ كـايـ ثـمـ سـجـدـ لـوقـتـ لـمـ يـحـصـهـ حـتـىـ اـسـتـشـعـرـ خـطـوـاتـ الـكـاهـنـ مـخـتـارـ فـجـاـ اـحـتـرـاماـ، سـيـديـ.

أمرـهـ الـكـاهـنـ بـالـوـقـوفـ:

لـدـيـكـ حـمـاسـ لـمـ أـرـ مـثـلـهـ فـيـ كـهـنـةـ هـذـاـ الزـمـانـ.



.الوصية في رقبتي، والتساؤلات تنهشني.

.فَنَّ لَا تُخْبِطْهُ التساؤلات، يُسِيرُ إلَى الْمَوْتِ كَمَا تُسِيرُ الْخِرَافُ إِلَى الذَّبْحِ، هَاتِ مَا عَنْدكَ.

.هل هناك ذكر لذلك الرجل الذي زار المعبد؛ موسى؟

.كانت هناك بردية اطلع عليها الكاهن الأعظم، ثم أتى الحريق الكبير الذي شبَّ منذ أعوام على أكثرها.

.هل احتفظت الصدور ببعض منها؟

.نعم، بعض الراحلين كانوا يتلونها.

.هل عاش النبي حقاً في ذلك المعبد؟

.درس العلوم في الجامعة، وتلقى الهدایة في ذلك المعبد، وأقام، قرب البحيرة، فثلك.

اقشعر جلد كاي وهو يتأمل البحيرة، ثم التفت لkahen المعبد:

.وهل عرف الكهنة وقتها أنه رسول الراعي؟

.لرسـل البـشـر عـلامـات الـمـلـائـكـةـ، لا تـراـها إـلا العـيـنـ الثـالـثـةـ فـيـ الجـبـعـةـ، لـقـدـ أـدـرـكـ كـهـنـةـ الـمـعـبـدـ أـنـ بـيـنـهـمـ رسـولـاـ.

أـكـرـمـواـ وـفـادـتـهـ وـلـقـنـوـهـ تـعـالـيمـ الـمـعـظـمـ إـدـرـيـسـ وـأـطـلـعـوهـ عـلـىـ الـكـتـبـ الـمـقـدـسـةـ.

.هـوـ إـذـنـ عـلـىـ دـيـنـ إـدـرـيـسـ الـمـعـظـمـ؟

.صـابـيـ خـاطـبـ يـوحـنـ الـرـبـ وـيـخـشـاهـ، اـبـتـلـاهـ الرـاعـيـ بـقـومـ خـشـنـيـ الـأـيـادـيـ وـالـطـبـاعـ.

.هل قـرـأتـ سـيـديـ ماـ حـلـ بـهـ؟

.لـمـ يـمـهـلـنـيـ الـحـرـيقـ قـدـيـماـ قـرـاءـةـ الـبـرـدـيـاتـ، وـلـاـ يـمـهـلـنـيـ ضـعـفـ بـصـرـيـ الـآنـ قـرـاءـتـهـ، وـلـاـ أـظـنـ أـحـدـاـ غـيـرـ الـكـاهـنـ الـأـعـظـمـ قدـ

أـلـمـ بـتـفـاصـيلـ تـلـكـ الـقـصـةـ الـبـائـدـةـ خـاصـةـ أـنـهـ لـمـ تـنـحـتـ عـلـىـ الـجـدـرـانـ، لـتـكـمـلـ مـاـ بـدـأـتـ وـلـتـقـرـأـهـ عـلـىـ فـورـ مـاـ تـنـتـهـيـ.



انحنى كاي في إجلال قبل أن يخرج من المعبد، تجاه عرائش العنبر؛ تجاه ناديا.



♀

♀

♀

حين اقترب كاي من العرائش ارتفع النباح، ركضت الكلاب نحوه فجئا على الأرض مدنيا قامته حتى اقتربوا وتشمموه فاطمأنوا، ربت على الأعنق والظهور فألفوه ثم بحث عنها بعينيه فلم يلمحها، نادى فلم يتلق إجابة، دلف إلى الخصي الذي تسكنه فلم يجدها، انزلقت عيناه تلقاءا إلى خطواتها على الرمال، فيز قد미ها الحافيتين من بين الأقدام، تسير على قلبه باتجاه النهر، تقاصها حتى الصفاف، وجد ثوبها على صخرة والتقط من الماء حركة، ثم رأها، تذيب القمر لينساب على شعرها والأكتاف لينزل إلى النهر مدملا بعقبها، افتعل حكة فأدركت وجوده، التفت، نظرت إليه ولم تتحرك أو تصهل، لا ت يريد أن تزعج السمك الطائف حولها مذهولة بما يرى، تجمد الزمن للحظات حتى غاضت في المياه، بأللت النهر بشعرها ثم رفعت ذراعيها لتروضه فانكشفت منابع تذيبها:

. ظننتك ستنام في المعبد.

. أنت قلت للكهنة إنك زوجي.

ابتسمت فزاد عمر كاي عاما، استطرد:

. ألا تخافين التماسيخ؟

. قال الكهنة إن التماسيخ لا تقرب المعبد.



. مَنْذْ مَتَّى تُؤْمِنُينَ بِالْكَهْنَةِ؟

. عَلَيَّ أَنْ أُثْقِ في كَائِنٍ مَا يَوْمًا.

. إِنْ كُنْتِ تَتَقَبَّلُنِي بِي فَاحْرَجِي.

. لِمَ لَا تَنْزَلُ أَنْتَ إِلَى النَّهَرِ؟ الْمَاءُ دَافِئٌ وَالْتِيَارُ يَخْمَسُ الرُّوحَ قَبْلَ الْجَلدِ، أَمْ إِنَّكَ تَحَافُ، مَنْيٌ؟

. لَقِدْ سَبَحْتُ مَعَ التَّمَاسِيقِ يَوْمًا فِي الْبَحِيرَةِ...

قَبْلَ أَنْ يَكُمِلَ جَمْلَتِهِ غَاصِتًا وَابْتَعَدَتْ كَسْمَكَةُ سَكَنْدِرِيَّةٍ، اشْتَعَلَتْ الْجَذْوَةُ فِي صَدْرِ كَايِ، ثُمَّ امْتَدَتِ النَّيْرَانُ إِلَى أَنْفِهِ فَعَقَلَهُ، عَيْنَاهُ تَلَاقَاهَا وَسَاقَاهُ تَقاوِمَانِ جَذْوَرَهُ الْمُتَشَعْبَةِ فِي الْأَرْضِ مِنْذَ ولَدٍ، نَظَرٌ لِلْفَرَاغِ بَيْنَ الْقَمَرِ وَظَهَرَهَا ثُمَّ هَمَسَ لِنَفْسِهِ:

كَيْفَ فَعَلْتُهَا؟

كَيْفَ ذَلَقْتَ تَلْكَ الْأَنْثَى؟ كَيْفَ دَوَرْتَهَا؟

كَمْ قَضَيْتَ فِي نَحْتِهَا؟

بِأَيِّ خَمْرٍ وَأَيِّ وَرَودٍ وَأَيِّ لَآلَى مَلَأْتَهَا؟

كَيْفَ الْفِكَاكُ مِنْ خَصَالَاتِ شَعْرَهَا؟

مِنْ ثُغْرٍ كَثْغَرَهَا؟

ثُغْرٌ يَسْتَهْزِئُ بِالثَّيْرَانِ، بِالشَّمْوَسِ، بِالنَّجُومِ الْعَلَىِ.

. أَنْتَ تَعْلَمُ.

تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَعْبُدْ صَنْمًا، وَلَمْ أَشْرُكْ بِكَ يَوْمًا.



تعلم أني عبدك المطيع الذي عاش أيامه يبتهل ندماً.

عبد سَبَحْ باسمك عدد النجوم.

وسجد لك في ألف صلاة.

لكني لم أسجد في محراب مثل محرابها.

ولم أحرق البخور والقربان فوق مذبح مثل مذبحها.

الهي، كيف أقاوم أنثى اشتهرت بها الرمال والصخر وأسماك النهر؟

كيف أقاوم تلکما العينين وذلک الخضر؟

كيف أشکو صنعتك إليك، والأسنان أسنانك، والشفتان شفتاك؟

سأخوض النهر خلفها ولن أبتل.

حتى أصل إليها فاغرق أو أنهل.

لتغفر لي أو لتلعنني فقد هدمت أسوار معبدك واجتاحت العاصفة صدري.

وتقوض قدس أقداسي.

بين أناملها».

خاض النهر حتى خصره فخلع الإزار الذي يرتديه، التفتت إليه ثم انغمست في الماء لتصبغه، وابتعدت، اقترب منها متواينياً، مسحوراً بالكتفين والخدین، تدفعه ضربات قلب تسمعوا الأسماك في منبع النهر، توقفت ناديا عند حزمه بوص، تابعته حتى بات على بعد ذراع منها، ابتسمت بأسنان لمعت في ضوء القمر:

كنت أفكري في حالتي، وفيما لو ظللت على الشاطئ ولم تأتِ.



رمقها بصمت ثم أجاب:

. من ذا الذي يقاوم القرب منك؟

. ربما كاهن لا يؤمن بالحب؟

. لم أؤمن حتى رأيت الآيات.

ضحكَتْ

. هل أقنعتك؟

. أجبرتني على السجود.

. لم لا تقدم النذور على المذبح إذن؟

. سُحرقين النهر.

. لتلك الدرجة تخافني؟

. أخاف العشق أن يتمكن مني فيعزموني.

اقتربيت منه، لم يتحرك، نفثت هواءها في صدره:

. وما لذة الحياة إن عشت فنتصراً لا تنهزه؟

. الناس يأتون المعبد بحثاً عن الشفاء من العشق، وأنا الآن أخطو خطوهם!

. بماذا كنت تداوينهم؟

. بالصلوات والتسابيح.



. هل اختبرتها معّي؟

.منذ رأيتكم أول مرة، ويجب أن أعترف، لم تجدهم معك حتى تلك اللحظة.

. هل تنوي تكرار المحاولة؟

. شفتكم في السفينة، أسقطت آخر حصوني.

قالها ثم لف ذراعيها خلف ظهرها ولثم الشفتين، أغمضت عينيها وغاصت فيه كما لم تغوص في رجل قبله، عصرت أصابع قدميها طمي النهر وأثار ثديها موجة فتحرك القمر من الشمال للجنوب، لم يكن يقبلها، كان يأكل، ينهل، يبارك بلسانه الأسنان والضروس، يسبح في فمها ويصلق فوق لسانها، ثم يمتص الدماء من عروق رقبتها، أصخت الكائنات لصوت اللثم واللھتان حتى عضت شحمة أذنيه فسررت الرعشة فيه، أحاطت خصره بساقيها ونظرت في عينيه آمرة، دون أن ينالها سحبها من شفتها كسمكة ذمرية أنهكتها الموج، استلقيا على العشب فاعتلق سماءها، فرجت جناحيها فاعتصر سحابها حتى برقت وزعدت، ثم أمطرت فأغرقت أسماك النهر، وسال نور القمر على قمم الجبال، ثم ساد السكون، إلا من رعشتها وتهداج أنفاسه، ل ساعتين، شعرا حين استيقظا بعدهما أنهما سنتان.

نظر إليها فمال رأسها بابتسمة كسولة:

. لم أنت صامت؟

. الصمت في معبدك عبادة.

. احك لي عنّي.

. تنشدين المديح ولا أجيده.

. قل ما بخلدك دون مواراة.

.منذ رأيتكم أتساءل عن ذلك النور السابح حولكم، وعن الجنون الذي أراه في عينيك، أما جسدك...



أكمل...  


سحر، كسيحر اللوتس الأزرق على العقول، وعطر كعطر الغزلان.

تجيد الشعرا!

نظر للنجوم:

الإنشاد في المعبد يعود اللسان على التمجيل.

لحنك تحاف العشق.

أحاف لا أستطيع العيش دونك.

لم تفترض السوء؟

طريقي ليس مفروشاً بالورود.

لا تفسد اللحظة.

من متعتي تخيل ضياعها.

تعود أن تستمتع بلا أرق التفكير، فإن كانت تلك آخر أنفاسك فالأفضل لها أن تكون محملة بعيق أنثى.

ala الشاتقين لحياتك السابقة، وفيها ألوان لا توجد في المعابد؟

لم تجده، كانت شاردة في العاهرة التي خرجت من الماء ممسكة في يدها بحبل من الطحالب، تفجرت الأعنات بداخل

ناديا فاعتلت صدر كاي مولية ظهرها للنهر ولمّن خرجت منه:

إن كنت أشتاق ما تركت الإسكندرية.

صوت حبل الطحالب بدا كالجنائزير في أذني ناديا، أغمضت عينيها ودفنت نفسها في حضن كاي.

. ألا تقارن بيني وبين آرام؟

. قالت إليك كفة الميزان منذ رأتك عيناي.

. لكنه فتى ثري وأنا ...

همست العاهرة في أذنها مكملة جملة كاي

. ساحر سيسّم أذنيك بمعسول الكلمات.

لم تعرها ناديا اهتماما، أدارت وجهها للجهة المقابلة فرأتها، تنفس من حبل الطحالب مشنقة، أردفت:

. كاهن ألقى كلماته في أرض لم يطأها غيره، كانها أول مرة لي، لم أحظ بتلك المتعة من قبل.

ابتسم كاي ولم يعقب فاقتربت العاهرة ومسحت بحبل الطحالب ظهرها وهمست في أذنها:

. انظري إلى عينيه، إنهم تكذبانك، تحاول أذناء ابتلاع كلماتك، تحاولن تصدق أنك لم تقولي نفس الكلمات لغيره  
وغيره.

اضطربت ملامح ناديا،

. أنا لم أُعشق قبلك وإن تظاهرت.

. أصدقك يا ناديا.

. حقا؟

. ولم لا أفعل؟

. لأنني امرأة لها ماض.

. كيف أحسبك على ماض لم أشهده؟



لو كنت مكانك ما وثقت فيَ.

علينا أن نثق في شخص ما يوماً.

ضحكـت نادـيا فـهمـست العـاهـرة:

الرـجـل يـفـعـل أيـشـيء ليـحـفـظ بـالـأـنـثـى أـطـوـل وـقـتـ، اـسـأـلـيـهـ، هـلـ يـقـبـلـ أـنـ يـعـيـشـ مـعـكـ أـبـدـاـ؟ هـلـ يـقـبـلـ زـوـجـةـ أـمـامـ النـاسـ؟

وـأـمـامـ الـكـهـنـةـ؟

زـفـرـتـ نـادـياـ ثـمـ سـأـلـتـ كـايـ:

لـنـزـوـجـ، ماـ رـأـيكـ؟

نـظـرـ كـايـ فـيـ عـيـنـيهـ وـتـأـدـرـتـ الإـجـابـةـ فـلـفـتـ العـاهـرةـ حـولـ رـقـبـتـهـ حـبـلـ الطـحـالـ المـجـدـولـ:

هـؤـلـاءـ هـمـ الرـجـالـ، تـبـنـيـنـ مـنـ أـجـلـهـمـ قـصـورـ الزـعـالـ وـتـخـيـلـيـنـ بـسـذـاجـتـكـ أـنـهـمـ سـيـسـكـنـونـ مـعـكـ فـيـهـاـ، إـنـهـمـ يـاـ صـغـيرـتـيـ لـاـ يـرـونـكـ إـلـاـ جـسـداـ، وـمـنـ أـرـادـ تـذـوقـ اللـحـمـ فـلـيـسـ عـلـيـهـ أـنـ يـشـتـرـيـ بـقـرـةـ كـامـلـةـ.

ترـدـدـتـ أـيـهاـ الـكـاهـنـ؟

قالـتـ نـادـياـ وـهـيـ شـارـدـةـ فـيـ المـيـاهـ الـجـارـيةـ.

لـسـتـ حـرـأـ، فـجـمـلـ ظـهـرـيـ ثـقـيلـ.

أـرـدـفـتـ العـاهـرةـ:

الـفـاكـهـةـ الـتـيـ سـقـطـتـ مـنـ الشـجـرـةـ يـعـافـهـاـ الرـجـالـ وـإـنـ تـذـوقـوهـاـ.

قـامـتـ نـادـياـ فـالـتـقـطـتـ العـاهـرةـ رـداءـهـاـ وـوـضـعـتـهـ عـلـىـ كـتـفـيـهـاـ حـيـنـ وـقـفـ كـايـ:

أـيـنـ سـتـذـهـبـينـ؟



رُمِتْ شفتيها بابتسامة:

لا أريد لتلك الليلة أن يشوبها ذكرى سينة.

لتنتفهمي مأساتي.

فهمتها، أنت كاهن، لديك رسالة يجب أن تنجزها، رُك في السماء...

قاطعها:

وأنت في الأرض.

في الحانة، سمعت تلك الكلمات ألف مرة.

أنا صادق.

وأنا أستحق� الاحترام أيضاً.

حالما أنهي ترجمتي سوف...

قاطعته:

سوف تسعى لنشرها، وسيتعقبونك، وسيقتلونك.

عليك أن تثق بي؟

أعطني سبباً.

لم أعد خيانة العهد.

لذلك لا ت يريد أن تعاهدني، لأنك ستنهي ترجمتك ثم تسعى للانتقام ممن قتل أمك.



نجاحي في الترجمة هو انتقامي: أن يعرف الجيبتيون حقيقة المرض المتوجل فيهم.

همست العاهرة:

حالما ينهي ترجمته ويعرف الجيبتيون... سيتزوجك ليهبك الاحترام والقداسة، بعد عشر سنوات.

رمقتها ببغض ثم أردفت:

أشعر بالبرد، سأذهب إلى الخص.

. ناديا.

. أحتاج أنا أكون وحدي.

تركته ورحلت. ظل كاي في مكانه دقائق قبل أن يرتدي إزاره وينتجه إلى المعبد.



♀

♀

♀

. في المعبد.

يختلط البخور بالذكر.

الفكر بالشروع.

والزهد بالرضا.

إلا إذا كنت تجلس على حافة مياه بحيرة مقدسة، هارباً من الدنيا، فَحَدِقَا في انعكاس قمر دون أن يرمي لك جفن،  
مُجتَرًا لحظاتك مع أنتى تعجز الكلمات عن وصفها، فَسْتَعِيدَا وقع كلماتها في صدرك، وآثار قد미ها على قلبك.

الأنثى تسعي لحياة، وأسعى لحتف، تتكلّم بقلب ينبع، وتكلّم بعقل، واثق، أو هكذا تخيل، فكل ثابت تحرك وكل  
محترك دار حول نفسه ثم تفجر وتناثر، فالندي كفر بالأرض التي استقبلته، والمراكب فقدت الإيمان بالرياح الشمالية، أما  
أنا، من أنا؟ لا أكاد أعرف، كاهن يخدم الراعي وفريديه؟ أم رجل، تحركت روحه التي اعتادت الطيران بجانب الملائكة، وراء  
غزال بري متوجّب يفوح منه عبق المسك؟

«سيدي الكاهن، لقد مسني العشق».

سمعت تلك الكلمات وراء الجدران السميكة التي لا تبوح بالأسرار، تناسب من أفواه العشاق إلى أذني، يشكون الوله،



المرض، هكذا كنت أسميه، أربت على الأكتاف وأمسح الرءوس بالزيوت ثم أتلوا متون الصبر عليهم وأمرهم بالتسبيح  
مراراً وتكراراً حتى يزول العشق، كانوا يبتسمون بضعف وأعين زائفة تتلفت، ثم يذهبون، ظننت فيهم الشفاء لما لم  
يعد منهم أحد إلى المعبد ليقدم الشكر والندور.

لم أكن أعلم.

أنهم كفروا بالمعبد.

وكانوا يهونون.

ورب المعبد.

لم يعد من سبيل لقطع الفكر وتخلص القلب من الكدر سوى العودة إلى البوص والبرديات، العودة إلى الكلمات التي  
كتبت نهاية كاهن أكبر، وتحطّط الآن، نهاية تلميذ لا ذكر له.

فالترجمة سَهْم انطلق؛ ومن الأفضل له أن يُصيَّب.





وَدَخَلَ مُوسَى أَرْضَ الْفِيروزِ، أَرْضَ الْحَجَرِ الْأَزْرَقِ الَّذِي ضَمَّنَ لِقَبَائِلَ هُوَارَةَ الْعُلُوِّ مَنْدَ اجْتَاهُوا شَبَهَ جَزِيرَةِ مِصْرَ بِأَرْضِ إِيجِيبْتِ، دَخَلَهَا بِلَحْيَةِ تَنَاثِرِ الشَّبَابِ فِيهَا وَوَجْهٌ تَحْفَنِي تَحْتَ قَلْنَسْوَةِ وَسَنَوَاتِ الْنَّسِيَانِ.

تَغْيِيرٌ هُوَارَةٌ، عَشْرَةُ أَعْوَامٍ كَثُرَتْ فِيهَا صَرُوحَ رُؤْسَاءِ الْقَبَائِلِ وَشَيْدَ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْحَصُونَ الْمَحَاطَةِ بِالْخَنَادِقِ دَرًا لِهَجَمَاتِ الْجَيْبِيَّيْنِ مِنْ غَربِ وَجَنُوبِ النَّهْرِ بِقِيَادَةِ «كَامِس» ابْنِ «سَقْنَنَ رَاعِي»؛ ذَلِكَ الْمَلَكُ الَّذِي يَطْلُقُ عَلَيْهِ النَّاسَ فِي هُوَارَةِ لَقْبِ «الْتَّعْبَانِ». يَحْفَرُونَ صُورَتِهِ عَلَى الْأَوَانِيِّ الْفَخَارِيَّةِ ثُمَّ يَكْسِرُونَهَا بِغُلْ وَحَقْدٍ، أَوْ يَدْفُنُونَهَا فِي الطِّينِ الْفَاسِدِ لِتَتَعْفَنَ، وَرَفِعُ فَرَعُونَ سِعْرَ رَأْسِهِ حَتَّى يَلْعَبَ بِهِ أَلْفَ كِيلَةَ مِنَ الْذَّهَبِ.

فِي طَرِيقِهِ لِحَيِّ إِسْرَائِيلِيَّيْنِ مَرَّ مُوسَى بِالْأَسْوَاقِ، طَرِيقَ طَوِيلٍ مَظْلُلٍ بِالْأَقْمَشَةِ، يَتَرَاصُّ عَلَى جَوَانِبِهِ بَاعِثٌ الْكَرْوَمِ وَالْتَّمُورِ وَالشَّعِيرِ وَجَزَارُو الْلَّحُومِ، قَبْلَ أَنْ يَمْرُ بِسَاحَةِ الْأَسْلَحَةِ الْمُمْتَلَّةِ بِحَدَّادِي الْبَلْطِ وَالْفَنُوسِ وَصَانِعِي السَّيَوْفِ، لِتَنْتَهِي السَّاحَةُ عِنْدَ هَضْبَةِ قَارُونَ الَّتِي تَطْلُ عَلَى فَرْعَانِ النَّهْرِ؛ زَبُوةٌ مَرْتَفَعَةٌ تَحْمِلُ قَصْرًا جَدِيدًا كَانَتْ قَوَاعِدُهُ تَرْفَعُ حِينَ فَرَّ مُوسَى هَارِبًا، بَنَاءً بَدِيعًا مِنَ الطِّينِ الْمَنْقُوشِ، مَرْصُوعًا شَبَابِيَّكِهِ وَأَبْوَابِهِ بِالْأَحْجَارِ، بِجَانِبِهِ سَاقِيَّةٌ عِمَلاَقَةٌ تَرْفَعُ الْمَيَاهَ مِنَ النَّهْرِ بِقُوَّةِ تِيَارِهِ وَعَضَالَاتِ الْثَّيْرَانِ، لِتَصْبِّ في مَجْرِيِّ صَخْرِيِّ مَائِلٍ يَدْفَعُهَا جَارِيَّةً مُنْجَدِّدَةً إِلَى أحْوَاضِ الْقَصْرِ، تَأْمَلُهُ مُوسَى لِلْحَظَاتِ ثُمَّ كَبَسَ قَلْنَسْوَتِهِ فَوقَ رَأْسِهِ وَانْحَرَفَ تَجَاهَ خَرَائِبِ بَنِي إِسْرَائِيلِ، سَارَ حَتَّى كَثُرَ الذَّبَابُ وَفَاحَتِ الرُّوَاحُ الْكَرِيمَةُ قَبْلَ أَنْ يَمْرُ تَحْتَ بُوَابَةِ خَشْبِيَّةٍ مَفْتَسَخَةٍ كَتَبَ عَلَيْهَا بِالْدَّمَاءِ وَبِأَرْمِيَّةِ رَدِيَّةِ «الْأَرَادِلِ»، دَلَفَ مَوْسَى إِلَى الْحَيِّ الَّذِي تَرَدَّتْ حَالَتِهِ مِنْ سَيِّئِ إِلَى أَسْوَأَ بَعْدَمَا انْعَزَلَ عَنِ



أراضي القصر بسُور عالٍ رَشِيقٌ فوْقَه رِماح مَسْنُونَة. نَحْلَت الوجوه وَهَرَّلَت الأَجْسَاد، غَلَقَت الْمَتَاجِر وَتَنَاثَرَ الْمَرَابُون  
وَالْعَاهَرَات، كَثُرَ الذِبَاب وَفَاحَ الْعَرَقُ وَالْمَرْضُ وَالشَّقَاءُ مِنْ كُلِّ رَكْنٍ، لَمَحْ رَجُلًا مَصْلُوبًا مَعْلَقًا عَلَى صَدْرِهِ لَوْحة  
كَتَبَ عَلَيْهَا «ذَلِك جَزَاءُ الْخَائِنِ»، وَآخِرَ وَثْقَ رَأْسِهِ المَقْطُوعِ بَيْنَ قَدْمَيْهِ وَكَتَبَ عَلَيْهِ «كَلْبٌ إِسْرَائِيلِيٌّ»، قَاتَمْ مَوْسَى  
تَقْيِئًا قَبْلَ أَنْ يَسْرُعَ الْخَطْبَى صَوبَ بَيْتِه.

انْتَدَ الأَمْرُ مِنْ هَارُونَ لِحَظَاتٍ حَتَّى تَعْرُفَ وَجْهَ أَخِيهِ، احْتَضَنَهُ بِفَرْحَةٍ حَتَّى يَكْبِيَا قَبْلَ أَنْ يَحْكُمَ إغْلَاقَ الْبَابِ بِالْمَزَاجِ،  
جَلَسَا فِي غُرْفَةِ النَّهَرِ فَحَكَى مَوْسَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ سَنَوَاتِهِ الْعَشْرِ فِي مَدِينَةِ لِيَشْبَعِ فَضُولَ هَارُونَ، قَبْلَ أَنْ يَبْتَرِ  
حَدِيثَهُ عَنْ دَرَّةِ الْعُودَةِ وَمَا حَدَثَ عَنْ دَرَّةِ الشَّجَرَةِ الْعَجِيبَةِ، أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ الْذَهَولَ، التَّعْجِبَ، وَالْأَمْرِ الْجَلْلِ الَّذِي أَتَى  
مِنْ أَجْلِهِ، فَسَأَلَ هَارُونَ عَنْ حَالِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنْ أَبِاهُ قَدْ مَاتَ مِنْذَ عَامِينَ بَعْدَ مَرْضٍ لَمْ يَمْهُلْهُ، تَجَهَّمْ مَوْسَى وَهُوَ  
يَتَذَكَّرُ مَرْوِرَهِ يَوْمِيًّا عَلَى ذَلِكَ الْحَاجِبِ الَّذِي يَبْتَسِمُ لَهُ فِي حَنَانٍ وَوَدٍ فَرِبَتْ هَارُونَ عَلَى كَتْفِهِ لِيَشْتَتِ حَزْنَهُ، ثُمَّ  
حَكَى عَنْ مَرِيمَ الَّتِي تَعِيشُ فِي الْجَوَارِ مَعَ زَوْجٍ مَرِيضٍ، وَعَنْ حَالِهِ:

أَتَزُوْجُ؟ مَنِ الَّتِي تَنْزُوْجُ مِنْ نَحْيلٍ مَثْلِيْ يا مَوْسَى؟

لَكَ عِيْنَا أَبِيكَ وَهَبِيبَتِهِ.

لَمْ يَعْدْ أَحَدٌ يَنْزُوْجُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلِ يَا ابْنَ أَمِّ، فَقَرْعَوْنُ يَحْرُمُ عَلَيْنَا التَّجَارَةَ مَعَ الْقَبَائِلِ وَيَصْلُبُ ذَكْرَوْنَا لِأَنَّهُ  
الْأَسْبَابِ، أَمَا الْفَتَيَاتِ فَإِمَّا يَبْعَنُونَ رَقِيقًا بِأَبْخَسِ الْأَثَمَانِ أَوْ يَحْتَرِفُنَ الْبِغَاءِ، يَا لَيْتَهُ أَهْلَكُنَا أَوْ أَبَادَ ذَرِيتَنَا حِينَ أَتَهُ  
الرُّؤْيَا الْمَلْعُونَةِ، إِنَّهُ فَقَطَ يَسْتَمْتَعُ بِمَذْلَتِنَا.

وَقَارُونَ؟

كَنْوَزَهُ تَتَضَخَّمُ كَبْطَنُ فَرْسِ النَّهَرِ، نَهْمُهُمْ لَا يَكْتَفِي، يَقْدِمُ أَبْنَاءُ قَبْيلَتِهِ حَطَبًا لِنَارِ فَرْعَوْنِ نَظِيرِ اسْتِنَثَارِهِ بِمَنَاجِمِ  
الْفَيْرُورِ.

أَلَا يَتَحَرَّكُ رَءُوسُ الْعَشَائِرِ فَيَسْتَنْكِرُونَ الظُّلْمَ؟



. من ذا الذي يَجْرُؤُ على مُواجهة فِرْعَوْن؟ أنت لا تعرف كُمَّ الغُرُورِ الذي يَلْعُغُ رُغْمَ تَأْكُلِ أَرْاضِيهِ الْغَرْبِيَّةِ لِصَالِحِ  
«كَامِس»، فَالآن يَسْبِقُ اسْمَهُ لِقَبَ «الْرَّبُّ الْأَعُلَى»، يَوْتَدُ الْأَطْرَافَ وَيَقْطَعُ الرِّقَابَ مُتَعَّهَ وَتَنْكِيلًا فِي احْتِفَالَاتِ بَادْخَلَةَ لا  
تَنْتَهِي، يَبْدُدُ قُوَّةَ الرِّجَالِ فِي حَفَرِ الْخَنَادِقِ وَصَنْعِ طَوبِ الطَّمَوِيِّ فِي مَوْقِدِ ضَحْمٍ لَا تَخْبُو نَارَهُ، يَبْنِي الصَّرْوَحَ مُقلَّدًا  
قَصُورَ الْجَيْتَيْبِينَ فِي الْجَنْوَبِ، يَظْنُنَ أَنَّ الطَّينَ سَيَصْمَدُ كَمَا تَصْمَدُ أحْجَارُ سُونُو<sup>(٤)</sup>.

هل ذكر اسمى منذ رحلت؟

. جَابَ جَنْدَ هَامَانَ الْبَيْوَتَ بَحْثًا عَنْكَ، ثُمَّ خَبَّتَ سِيرَتَكَ وَنَسَى أَمْرَكَ، وَقَدْ أَثْلَجَ صُدُورَهُمْ ابْتِعَادَكَ عَنْ رَأْسِ الْعَجْلِ.

. الشُّكْرُ لِلرَّاعِيِّ فِي سَمَائِهِ أَنْكَ عَلَى قِيدِ الْحَيَاةِ.

سَكَتَ الْكَلَامُ وَلَاحَتْ فِي وَجْهِ هَارُونَ بِسَمْمَةِ الْأَطْمَنَنَانِ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ فِي عَيْنِي مَوْسَى كَلْمَاتَ مَحْبُوْسَةِ:

. يَا ابْنَ أَمِّي، مَا سَبِيبُ الْمَخَاطِرَةِ بِزِيَارَةِ الدِّيَارِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ؟

. إِنَّمَا أَرْدَتَ الْأَطْمَنَنَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى فَرِيمِ، وَلِتُعِينَنِي فِي طَرِيقِ عَلَيِّ اجْتِيازِهِ.

. فِدَاكَ نَفْسِيِّ، وَلَكِنَّ أَيْ طَرِيقَ؟

. الْطَّرِيقُ إِلَى قَصْرِ فِرْعَوْنِ.

. تَدَلَّى فَكُّ هَارُونَ وَانْقَطَعَتْ أَنْفَاسُهُ وَزَاغَتْ عَيْنَاهُ شَرُودًا فِي مَا قَالَ أَخْوَهُ.

---

<sup>(٤)</sup> (سُونُو): هو الاسم القديم لأسوان حالياً، ويعني السوق؛ حيث كانت مركزاً تجارياً للقوافل ومحاجراً وفيها للأحجار.



♀

♀

♀

لم يفق هارون من صدمته إلا حين أخرج موسى يده من جيبه بيضاء فضيلة:

.المسها ولا تخف.

اقرب هارون في وجل ولا مس كف أخيه، نظر إليه في شغف فقص موسى ما حدث عند الشجرة بوادي طوى،  
دمعت عينا هارون ثم جثا:

.لقد تكرر حلم عودتك والشمس بين يديك حتى أدركت أن أمرا جللا سيحدث.

.لقد أتت اللحظة الفارقة يا هارون.

كدت أیأس من وجوده في السماء، طالما شردت في سيرة أسلافنا ودعوت أن يخرج منا من يتصل به، لكنني لم  
أكن لأتوقع أن تكون أنت يا موسى ذلك الرسول! هلرأيته؟

.لم أره، لكنني سمعته.

.كيف بـذا صـوـته؟

.كلمات لها وقع مثير تلقى في العقل كما تلقى الشمس أشعتها على الورود، وقد طلبت منه أن تكون رفيق



طريقي، وقد بارك.

تهجد صوت هارون حماساً وخوفاً:

أنا؟ رسول؟

نعم، إلى فرعون.

ويحيى، عقلي لا يحتمل كلماتك!

لن أجد ذيراً من هارون، أخي الحكيم.

ما هي الرسالة؟

أن يفك أسربني إسرائيل ليخرجوا من حلف القبائل.

سيوتد أطرافنا قبل أن نكمل ما نقول.

الرَّاعي مَعْنَا خطوة بخطوة، يسمع ويرى.

أطرق هارون برأسه إلى الأرض في شرود:

لكن، نحن للضعف أقرب، لن تؤازرنا القبائل، وأولهم تلك القبيلة.

لم أقل إن الطريق ميسور.

لم اخترتني؟

ينقصني جلمك وكياستك، لتحفظ زمام غضبي، وتجبر كلماتي إذا تجلجت، كما ساعتمد عليك أن تخاطب

أصحاب الألباب منبني إسرائيل؛ كي ترفع عنهم الذلة والمهانة، ول يعرفوا أن الراعي في السماء هي لم يمت.

نظر إليه هارون وهز رأسه ثم ابتسم:



ما كنت لأذلك يا ابن أم.

في المساء استدعى هارون سيراً زعوس العائلات منبني إسرائيل في بيت رجل منهم، تذمروا من الانتظار حتى دخل عليهم موسى، كشف وجهه فقطبوا جبينهم في اندهاش وتشاؤم، جلس بينهم فساد الصمت قبل أن يتتسألووا عن سبب عودته، حكى لهم عن رحلته إلى مدين ثم عن الرسالة التي حمل ظهره بها، عبس وجهه وتمشى في ملامحها الاستهزاء والاستنكار والوجل. قال كبيرهم:

لقد هبطنَا مصر من قبل يوسف، عيشنا فيها ومتنا، أكلنا من أرضها وشرينا من آبارها، وتحمّلنا هجمات الجيبيتين، الآن تريدنا أن نخرج من أحالاف القبائل إلى الشرق المفتر؟ نعود بدواً رحلاً لا أرض لنا ولا زرع؟

الرب سيتكفل بإقامتكم وماكلكم.

إن كلماتك لا تحمل إلا الهلاك يا ربب القصور.

بل النجاة من المهانة والخروج منها، ما لكم تتكلمون كأنكم أسياد مكرمون؟ إن فرعون لا يزداد إلا طغياناً وغلباً.

نظروا لبعضهم في استنكار، ثم أردف أحدهم:

لم تذكرنا رب الآن؟

ربى وربكم واحد أحد، خالق كل شيء، لا ينسى ولا ينام وكل شيء عنده بمقدار وميعاد.

هل يصدق عقلك أن فرعون سيتركبني إسرائيل يخرجون من مصر إلى الشرق؟

علي وأخي إقناعه، تلك فهمتنا.

سينكل بنا ويصلبنا في جذوع النخل.

كان ذلك لا يحدث لأتفه الأسباب! كلما مر عليه الوقت اشتعل جنونه، القادم أسوأ.



ألا تخافن القتل؟

قال رب إني وهارون ومن أتبعنا غاليون.

وَمَا يَدْرِنَا أَنْكَ رَسُولُ الرَّبِّ حَقًّا؟ لَمْ لَا يَكُونْ عَقْلُكَ قَدْ أَصَابَهُ الْخَيْالُ؟

. ستعرفون حين أعود من بيت فرعون.

ساد الصمت فنظر الرجال لبعضهم ولموسى وأخيه الواقع خلفه، قيل: أن يهزوا رءوسهم وينظروا:

رسند عمك ونؤيدك، ولكن تلك الجلسه لم تحدث، حتى تعود من بيت فرعون على قيد الحياة.

نظر موسى، لعانون الذي هز رأسه مؤيداً ثم مد يده لشيخ القبيلة.

LITERATURE

لما عادوا نظر موسىٰ لحربون

٤٠ أعرف أنهم أصعب لقاء بنو إسرائيل، أم لقاء رأس العد

هـما نفس ، النسخة ، ضياع

مدحت بذكر السلام في عدنا التي يهدونا إلا إذا عذنا أحباء

هذا أقصى طموحى فى دعمهم



♀

♀

♀

لم يصدق الحارس القديم عينيه حين رفع الأمير العارب فلنستوته فكشف وجهه. قطب جبينه وهو يتأنّى عشر سنوات حفرت وجه ابن عمران حاجب بباب الملك الراحل. قبض عضده وغضّ أذيه فانتهي بعدهما جانبًا وهمس مفعلاً:

ما خطبكم؟ أصابكم الخبال أم تسعيان لحتف؟ أنت يا هارون؟ كنت أظنك رشيداً تملك حكمة أبيك!

ابتسم هارون في هدوء:

أبي لم يكن يتحدّث إلا عن إخلاصك وصداقة لن يفرقها إلا الموت.

رجم الرّب أباك، تواري أربعين سنة خلف الباب الكبير فلم يطله من الملك ما قد يطولكم، وأنت يا موسى، أما علمت أن الملا يترقبون عودتك ليقتلوك؟

رُبَّتْ مُوسى على كتف الحارس:

إنّا بعواقب زيارتنا لمدركون.

وعقب هارون:



إن كنت تثق في عمران فلتثق في ولديه.

نظر إليهما الحارس فلم يُؤْتِي أعينهما الجنون والتصميم:

لستما طفلين تنقصهما الوصاية.

تقدّمُهم في أرض القصر التي تغيّرت ملامحها، ارتفعت ثلاثة تماثيل ضخمة في الطريق الصاعد المسوّر بالنخيل، أولها لـ«بَيْت» منتصباً بوجه حنزيز، يضع تاج العجل على رأس فرعون الواقف أمامه، التمثال الثاني لفرعون بزي وتابع الحرب، فمسكاً برأس مقطوع يمثّل ملك الجبيترين «سقnen راعي». أما الثالث فكان صنماً قدّيمًا يعود لموطنه الملك ببرية فاران.

وصل موسى وهارون لنهاية الطريق الصاعد قبل أن يمشيا بحذاء السّور الذي ارتفع حتى بلغ أربعين وعشرين ذراعاً، دلفا من البوابة الكبيرة، وطلبا من الحاجب مقابلة الملك:

أخيره أني موسى، الفتى الذي فرّ من هوارة قبل عشرة أعوام.

انتظرا ساعة قبل أن يؤذن لهم، انحدرا جنوباً خلف الحاجب حتى بلغا نبع الماء الذي تفجر بين الجبال في عهد الملك خيان، فلأبحيرة صافية تصاعد الأخرة من مياهها وينمو حولها النخيل. أمرهما الحاجب أن ينتظرا خلف صخرة ولا يحدثا صوتاً، اختلسا النظر نحو سقيفة يعلوها سعف النخيل فرأيا رجال آل فرعون، بعض الأصدقاء القدامي الذين تملّكوا المناصب، وعلى الوسائل الناعمة تناولت فتيات المتعة في استرخاء، يخدمن الجمع بلا حدود، ثم لمحوا ظهر قارون، زاد شحمة فتدلى على الجنبيين وطالت ضفيرته حتى لامست مؤخرته السمينة، يحيط بذراعيه غلام عاز مكسو بالجواهر، استنكر هارون المشهد ولوى شفتّيه فخمز موسى بعيشه وهو من:

ليست كل الأخبار مكذوبة.

ثم ميزا هامان، يقف قرب البحيرة بجسد صلب مقتولة عصاته رغم بلوغه العقد السادس، ينظر لمياه النبع الساكنة بترقب، همس هارون:



. على ماذا ينظر؟

. سباق التنفس.

لحظات لم تطل حتى خرج رأس الملك من المياه الساكنة، سحّب شهيقاً عميقاً ثم صاح صيحة عالية ردّتها الجبال فضحك هامان في صحب وصقر تشجيعاً ورفع قارون كأس نبيذه في كسل تحية لرئيس الملك، خرج فرعون من الماء عارياً، يتدلّى عضوه المُخضب بمسحوق الكركديه الممزوج بالنحاس المحروق، صرف العبد الذي اقترب منه بالمناشف متعمداً الوقوف عارياً أمام الجميع الذي اتكاً الوسائل، ثم اقترب هامان منه، تبادلاً حديثاً لم يلتقطه موسى الذي تأمل غريميه بعد طول غياب؛ طال شعره وكثرت الحلقات النحاسية التي تصفر لحيته والسلالس الغليظة على صدره، تحمل أحجاراً من مناجم الفيروز وبقايا شهب لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها حين هوت من السماء، وازدادت عيناه حدةً، طال الحديث حتى جفَّ جسد فرعون بحرارة الشمس قبل أن يلتفت تجاه موسى، تأمله للحظات ثم ابتسم وأشار بأصبعه ليقترب، نظر هارون لموسى الذي هزَّ رأسه مطمئناً ثم اتجها لفرعون، اقتربا فاللتفت قارون مُضيقاً عينيه فتحامل على فتاه ليقوم من مكانه مقاوِماً شحوم كرشة، حين بلغا فرعون لكرّ الحارس ظهريهما بعضاه وهمس:

. اسْجُدَا لِرَبِّ الْأَرْضِ.

نظر موسى في عيني الملك ولم يحرك ساكناً، اكفهر وجه هامان وانفجر الغضب فيه فاللتفت خنجرًا من جزاءه حارس قريب فتحفَّزت أسلحة الباقيين، اقترب من موسى وأخيه شاهراً النصل فاستوقفه الملك:

. دَعْهُ يَا هَامَانَ.

كرّ هامان على أسنانه فنفخ أنفاسه في وجه موسى ثم صاح بانفعال:

. لقد قتل ذلك الخائن رجلاً من قبيلتي.

أجاب موسى:



. كُنْت فِي ضَلَالٍ فَقَتْلَتْهُ خَطَا.

: صَاحِ هَامَانَ:

. وَلِمْ فَرَرْتُ؟

. عَلِمْتُ أَنْكُمْ لَنْ تَسْمِعُونِي أَوْ تَصْدِّقُوا.

: مَسْحَ فَرْعَوْنَ عَلَى شَعْرِهِ الْكَثِيفِ:

. دَعَهُ يَا هَامَانَ، فَالْفَتَى الَّذِي رَبَّيْنَاهُ وَلَبِدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عَمْرَهُ مَا لَبِثَ، صَارَ رَجُلًا.

: ثُمَّ التَّفَتْ لِمُوسَى بِابْتِسَامَةٍ:

. لَمْ يَكُنْ لَكَ هُمْ سَوْيَ رَكُوبَ الْخَيْلِ فِي الصَّحْرَاءِ وَزِيَارَةِ الْخَرَابِ، ثُمَّ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ فِي جَنَاحِ اللَّيلِ وَفَرَرْتَ، لَمْ أَرْسِلْ وَرَاءَكَ مَنْ يَقْصُ أَثْرَكَ فِي قَتْلِكَ، وَهَا أَنْتَ تَعُودُ مِنَ الْجَحْرِ الَّذِي كُنْتَ فِيهَا لِمَا ذَادَ؟

. لَقَدْ أَتَانِي رَاعِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَجَعَلَنِي مِنَ الْمَرْسَلِينَ.

نَظَرَ فَرْعَوْنَ إِلَى هَامَانَ وَإِلَى قَارُونَ الَّذِي اقْتَرَبَ، ثُمَّ انْفَجَرَ الضَّحْكُ، حَتَّى الْفَتَيَاتُ وَغَلَامُ قَارُونَ وَالْحَرَاسِ ضَحَكُوا، وَاقْتَرَبَ الْمَلَأُ وَالْأَصْدَقاءُ مِنْ تَحْتِ السَّقِيفَةِ لِيَتَابِعُو الْمَشْهَدَ، تَبَادَلَ هَارُونُ وَمُوسَى النَّظَرَاتِ حَتَّى هَذَا الصَّبَبُ فَقَالَ فَرْعَوْنُ:

. مُوسَى! طَرِيقُ الْمَاءِ، أَصْبَحَ رَسُولًا! رَسُولُ مَنْ؟

. رَبِّ الْعَالَمِينَ...

: اهْتَزَ قَارُونَ:

. انتَظِرَا حَتَّى يَعْرُفَ بَنُو الْقَبْيَلَةِ الْخَرْفَ الَّذِي جَئْنَاهُمْ بِهِ، وَأَنْتَ يَا هَارُونَ، يَا نَاسِكَ الْقَبْيَلَةِ، هَلْ صَدَّقْتَ كَلْمَاتِ



أخيك...؟

قاطعه فرعون:

فَهَلْكَ، انتظِرْ، لِلتو قَالَ: «رَبُّ الْعَالَمِينَ»! أَنَا لَمْ أُرْسِلْ أَحَدًا!

عقب موسى:

أَنْحَدَثُ عَنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبِّ آبَائِكَ الْأَوَّلِينَ.

نظر فرعون لهامان وقارون:

أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟ لَقَدْ قَالَ: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ».

أردف قارون:

لَا بدَ أَنَّ الْجَدَامَ الْمُنْتَشِرَ فِي دُرَابِبِكُمْ تَسْلُلَ إِلَى عَقْلِكُمَا.

وصاح هامان:

دَعْنِي أَقْطِعَ رَأْسِيهِمَا.

رفع خنجره فتحفَّزْ موسى ووضع هارون خلفه:

يَا فِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولُ الرَّاعِيِّ، جَدِيرٌ بِي أَلَا أَقُولُ إِلَّا الْحَقُّ.

أَطْلَلَ الْغَضَبَ مِنْ عَيْنِي فَرَعُونَ:

تَنَادَيْنِي بِفَرَعُونَ دُونَ لَقْبٍ؟

تَقْفَ عَارِيًّا وَتَطْلُبُ لَقْبًا؟



لقد نفد صيري، قل لي ما الذي أتي بك قبل أن يطير رأسك ورأس ذلك التحيل البائس؟

أريد أن ترسّل معيبني إسرائيل.

قارون:

ماذا تعني يا ذاذهب العقل؟

أعني أن ترحل بنى إسرائيل من بين الأحلاف.

إلى أين؟

إلى أرض الرب الواسعة.

أردف قارون:

ومن أنت حتى تتحدث نيابة عن بنى إسرائيل؟ أتستك شمس الصحراء أني زعيم تلك القبيلة؟

وأنا رسول رب العالمين لتلك القبيلة، خير من رجل لا يستحي قتل عشيرته.

اضطررت النار في وجه قارون فنظر فرعون للملأ من الأثرياء الذين وقفوا عن قرب يتابعون:

كنتم تسألونني لم أحقر تلك القبيلة العقينة؟ ها هي النوايا تصعد إلى السطح، يريدون أن يخرجوا من الأحلاف.

لينضموا للجيبيتين في الجنوب حين يقاتلوننا، يقاتلون إخوانهم.

تمكّن الغضب من موسى:

الآن بنى إسرا... ئيل، إخوانكم؟

ضحك فرعون:

تمالك نفسك حتى لا تبتلع لسانك.



همس هارون في أذن أخيه:

.اهدا يا ابن أم.

قال فرعون:

. كانوا إخواناً حتى أدركت نوایاهم حين ملكت العرش، لا يكفيهم الاستئثار بالذهب، ولا ممارسة الriba، بل ويتناسلون كالخنازير، يريدون ليستولوا على حكم مصر، متمسّحين في نسل من الدجالين والمشعوذين ادعوا يوماً اتصالهم بالسماء.

. اتركهم ليرحلوا معي وساكفيك شرّهم.

. إلهك المزعوم هو من أمركم بذلك؟

.نعم.

.أين يسكن الحكماء؟

.أردف هارون مخففاً عن موسى غضبه:

. في كل مكان، هو الذي جعل الأرض ممهدة وسلك لكم فيها الخيرات، هو الذي ينزل الماء من السماء، وهو الذي يخرج النباتات من الأرض، وهو الذي يحيي ويميت، إنَّ في ذلك آياتٌ ل أصحاب العقول.

. وماذا عن الأمم الأولى يا صاحب العقل؟ هل إلهك هو من دمرها؟

.أجاب موسى:

. من كذب وادعى نفسه إلهًا يأتيه عذاب السماء.

. التفت فرعون للملأ الذين تابعوا المحادثة في شغف.



يا أيها المَلَأ، ما علِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي.

ثم نظر لها مان:

لَمْ لَا تَوَقَّدْ عَلَى الطَّيْنِ بِاَهَامَنْ فَتَجْعَلْ لِي صَرَحًا لَعَلَى اَطْلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى؟ إِنِّي لَأَظْنَهُ كاذبًا.

ضحك المَلَأ فالتفت إِلَيْهِمْ مُوسَى:

لَقَدْ جَئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِنْ عَنْدِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَصْدَقُونَنَا.

ابتسم فرعون ورفع حاجبيه:

أَبْلَغُوا الْمُهَرَّجِينَ مِنَ الْأَقْزَامِ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ رَاحَةٍ؛ فَقَدْ أَتَانَا مَهْرَجَانٌ حَدِيدَانٌ.

نظر موسى لأديبه قبل أن يرجع للوراء خطوتين، رفع عصاه فتحفَّ هامان وتوارى قارون خلف كتفه. أما فرعون فداعب عضوه فُسْتَعْرَثًا حين ألقى موسى عصاه، ما إن لامست الصخر حتى تلوّت، ثم استحالت ثعباناً أسود لامعاً في طول رجلين، فزع المَلَأ وركضت الفتيات ومن ورائهن قارون يهز لحمه في حفنة حتى انكفا على وجهه أرضاً، رفع هامان ذنجره وتراجع للخلف، وسجَّدَ الحراس على الأرض باسطين أيديهم فَتَضَرَّعُونَ. أما فرعون فتبَسَّ مَكَانَهُ مِنَ الْخُوفِ، يواجه الثعبان بعينين جاحظتين وفك تدلّى، وارى عضوه المخضب بكفيه حين اقترب الثعبان وانتصب، نافحاً أوداجه حتى باتت عيناه المشقوقتان في مستوى رأس فرعون، أصدر فحيخاً مُقبضاً بلسان مشقوق لونه كالدم، توقف الزمن لدققيقة قبل أن يشرع فرعون في الرجوع للوراء خطوة فأتأى الثعبان بهزة للأمام وصاح بفحيخ مفزع قبل أن يزداد اقتراباً وعلواً. نظر فرعون لموسى دون أن يحرك عينيه عن الثعبان:

موسى، التقطه كما أقيته.

نظر إليه موسى ولم يعقب فنظر فرعون للمَلَأ من حوله ثم ثنى ركبتيه فجئا، فما كان من موسى إلا أن انحنى والتقى ذيل الثعبان فتصالب قبل أن يعود لسيرته الأولى: جذع خشبي عتيق.



قام فرعون والعرق يغرقه، نظر للملا حوله، لهامان الذي جحظت عيناه في غضب مكبوت، ولقارون الذي سقط أرضاً وتهجدت أنفاسه، ثم صاح:

كيف تجرؤ على الإتيان بسحر الجيبتيين إلى قصري؟

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هي ناصعة كان الشمس فيها:

إنما الآيات من عند ربِّي.

ضرب النصوع أعين الناظرين فسحرها، لم ينبس أحدهم بكلمة حتى ضم موسى قبضته وفتحها فرجعت إلى لونها الخمرى. قال هامان:

إن هذا لساحرٌ عليهم.

ال نقط فرعون إزاءاً فوضعه على خصره ثم التفت إلى الملا المسحور وأشار لموسى:

ما لي أراكم لا تنطرون؟ سحرت فأعيل الجيبتيين أعينكم؟ ربِّي القصر، ابن الخراب، يريد أن يخرجكم من أرضكم!

قال موسى مقاوِماً غضبه:

أرض الفيروز ليست أرضكم، إنما هي جَزءٌ من أرض الجيبتيين التي اجتاحها أجدادكم، وإن كُلَّ ما يريد ربِّي هو أن تتركوابني إسرائيل ليخرجوا منها.

قال أحد الحاضرين:

لقد رأيت مثل هذا في ساحات الجيبتيين.

وعقْب آخر:



نعم، إنما هي أفاعيل سحرة «واست».

قال فرعون:

ماذا ترون فيمن يَرِيد شق أحلافهم وذهب قوّتهم؟

قال قارون وقد نفخ ملابسه وإن لم يقترب:

أجلتنا بسحرك لتلفتنا عَمَّا وجدنا عليه آباءنا؟

وعقب هامان:

تكسر أحلافنا فيكون لِهَا المُلْك وكنوز الأرض.

قال موسى:

ما نبغى إِلا ذروج بني إسرائيل من أرض مصر.

قال هارون:

وما جئنا به لا يقدر عليه السَّحْرَة، اسألوهم إن كنتم لا تعلمون.

نظر فرعون للملاً من حوله ثم لهامان الذي أشار له بالاقتراب ثم همس في أذنه:

أريد أن أقتله، لكن تلك العصا...

قاطعه هامان:

لا تقتل اللعين فتعيشه سحر أعين أصدقائنا ولا نملك مثل سحر الجيبتيين لنرد كيده، علينا أن نهزمه أولاً، ثم

نقتله،رأيي أن نرجو تحديه ونرسل إلى مَدْنَةِ الْجِبَتَيْنِ، قرية «أنصنا» تمتلئ بسحرة الثعابين، لنأت بهم

فيكيدوه ويهزموه.



نظر فرعون لعصا موسى ثم قال لها مامان:

وهل ينحيفنا سحرة الجبتيين؟

. سننزل لهم الهبات ونعدهم الحظوة.

. تلك مهمتك.

قالها ثم التفت لموسى:

. سأتركك لتعيش يوماً آخر مع أخيك المهزيل، وسأريك بسحر مثل سحرك، ليظهر للناس كذبك، أجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت.

نظر موسى لهارون ثم أردف:

قبلنا التحدي، أين؟

مكان وسط، بين خرائبكم وقصرى.

عقب هارون:

. ليكن اللقاء يوم العيد، فالناس تحشر وقت الضيق.

. اعلموا، لقد بدأتما حرباً، عليكم تحمل عوقيها، ومن ورائكم قبيلتكم، فثلا تحمل الجبتيون عوائق جنون  
ملکھم «كامس».

هز موسى رأسه ثم مضى فنسحبًا. هز عصاه بالقرب من فرعون الذي رجع خطوتين فكتم الملا ضحكا تهم  
وابعوا موسى وأخاه حتى اختفيما. فالتفت فرعون وسحب الخنجر من يد هامان فأغمده في صدر حاجب الملك  
الذي وقف بالقرب. سقط الرجل على ركبتيه شاهقا فقبض فرعون على رأسه وهمس في أذنه:



. لن تحضر يوم العيد، ولن تسعـد بـعرض السـحرة، لأنك أدخلـت هـؤلـاء الأـرـاذـل إـلـى قـصـري.

قال الحارس والدماء تفـيـضـ من فـمـهـ:

. لم أـكـن... أـعـرـفـ، أـنـهـما سـاحـرـانـ.

. لأنـكـ تـنـتـمـي لـخـرـائـبـ إـسـرـائـيلـ.

في طـرـيقـ الخـرـوجـ رـاـفـقـ الـحـرـاسـ الـأـخـوـيـنـ، عـنـ بـعـدـ، يـنـظـرـونـ إـلـيـهـماـ بـهـيـبـةـ وـلـلـعـصـاـ بـرـعـبـ، حـتـىـ مـرـ مـوـسـىـ  
بـمـسـكـنـهـ الـذـيـ تـرـبـيـ فـيـهـ فـوـقـ يـتأـمـلـهـ، جـنـاحـاـ مـلـحـقاـ باـسـتـرـاحـةـ الـمـلـكـةـ:

موـسـىـ!

الـتـفـتـ فـرـآـهـاـ، لـمـ تـنـغـيـرـ، شـعـيرـاتـ بـيـضـاءـ تـنـاثـرـتـ بـحـيـاءـ، وـتـجـاعـيـدـ خـفـيـفـةـ حـوـلـ الـفـمـ وـالـعـيـنـيـنـ، أـمـاـ الـبـشـرـةـ فـمـالـتـ  
لـلـذـبـولـ وـإـنـ لـمـ تـرـجـعـ إـلـىـ الـمـهـقـ، اـبـتـسـمـ مـوـسـىـ فـاقـتـرـبـ مـنـهـاـ، التـقـطـ يـدـهـاـ فـقـبـلـهـاـ:

. حـسـبـتـ أـنـيـ لـنـ أـرـاكـ ثـانـيـهـ حـتـىـ هـرـعـتـ إـلـيـ خـادـمـتـيـ بـخـبرـ ظـهـورـكـ الـمـفـاجـئـ، أـنـسـيـتـ أـخـتكـ ياـ مـوـسـىـ؟

. عـارـ عـلـيـ أـنـ أـسـاكـ يـوـمـاـ يـاـ رـاحـيـلـ، أـنـتـ كـلـ مـاـ بـقـيـ لـيـ فـيـ ذـلـكـ الـمـكـانـ.

. أـينـ كـنـتـ؟ وـمـاـذـاـ حـدـثـ عـنـدـ الـبـحـيرـةـ؟

نظرـ مـوـسـىـ للـحـرـاسـ الـذـيـنـ حـاـصـرـوـهـ ثـمـ التـفـتـ لـهـاـ:

. لـاـ أـظـنـ أـنـ الـحـرـاسـ سـيـصـبـرـونـ عـلـىـ بـقـائـيـ دـاـخـلـ الـأـسـوـارـ.

هزـتـ رـاحـيـلـ رـأـسـهـاـ مـتـفـهـمـةـ:

. سـنـلـتـقـيـ قـرـيبـاـ.

في طـرـيقـ النـخـيـلـ تـلـفـتـ هـارـونـ خـلـفـهـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ حـتـىـ قـالـ مـوـسـىـ:



.لن يتبعنا.

.للتتو استثثروا جباراً يقتل بلا رادع، لقد كاد قلبي يقفز من صدري في اللحظة التي خرج فيها من الماء.

.لقد عشت في ذلك القصر سنين ولم أعهد إلا جباناً خائباً لا يوتد إلا أعزل أو ضعيفاً.

مشيا للحظات ثم سأله موسى:

.ماذا عن السحر الذي وَعَدْ به؟

.لن يكتفي بصناعة الحبائل البدئية بسوق هواة، سيرسل في طلب سحرة الثعابين من الجنوب، إنهم رجال يقيمون على حدود القرى، لا يدخلونها ولا يأكلون في بيوتها، يدهنون وجوههم بالليلة الزرقاء، ويحملون جوالات حمراء تحوي ثعابينهم وأشیاء أخرى.

.عليهم أن يواجهوا ثعبان الرب.

.له الخلبة بإذنه.

.سمعت فرعون وقد قال إن على الجيبيتين تحمل عواقب جنون ملكهم «كامس»، ماذا فعل؟

.في معركة ببلدة «أمبوس» تلاقي جند فرعون بجند «كامس»، الفتى كان يرفع شعار أبيه «سقnen راعي» ليستنفر جيشه، حاصر البلدة حتى انتصر على جند فرعون، تمثّي بينهم يتفقد القتلى قبل أن تأتيه الطعنة من أحد جرحى جند فرعون لتقضى عليه، ملك آخر للجيبيتين يُقتل على يد فرعون.

.ومن يملك «واست» الآن؟

.أخ له يدعى «أحمس»: اسم يعني بلغتهم «هلال السماء».



♀

♀

♀

في حانة نيلوس.

تعودت الأعين تجنب الرُّكْن الذي يرِبِّض فيه، أسد هربت فريسته؛ غزالته، يلهمث بلا زئير فوق مائدة شمعتها لا توقد، في يده كأس لا تقاد تفرغ حتى تمتلئ، يَعْبُدُ منها ولا يَسْكُر، صامت كمَعْبُدٍ، يَرْفَقُ عَارِفات النَّايم بصدر تحرقه لواعِجَّ الهوى، ففي اللحظة التي رأى فيها آثار قدميها على رمال الشاطئ بجانب خطوات الكاهن، نسي كلابه حتى هَامَت وتفرتقت في الطرقات بحثًا عنمن يطعمنها، نسي حيُّ الذي تربى فيه، نسي الرقص ونسي الطعام، نسي التنفس.

كان يَعْلَمُ أن جذورها متَشَعَّبة في صدره، وأن شعرها مجدول في ضلوعه، لكنه لم يُدرك مدى غرسها حتى انتزعت قلبها ورحلت، اعتلى من أجلها كل أنثى وقعت عليها عيناه، اعتلى بشبق، بقسوة، حتى لم يبق إلا إناث كلابه.

فالأنثى لا يمسح عرقها سوى أنثى مثلها.

ولكن...

هل هناك عَرَقٌ كُعْرَقِ ناديا؟

شفتين كالثُّوت، كشفتيها؟

خصر كُخْصِرَهَا؟



غنج كخنجه؟

ساقين كأعمدة المعبد مثل ساقيهما؟

في كل مرة، وحين يفرغ ما فيه من حزن وغضب وصريح ودفقات، يزبح الأنثى وبشروع، ليدرك رويداً أنه يخدع نفسه.

فما تلبت راحتها أن تنتشر في صدره، في أنفه.

وما بلبت شعرها المموج أن تخرج خصالاته من فمه، أذنيه، من عينيه.

وما تلبت أناملها الصغيرة ذات العظام اللينة، ما تلبت أن تعتصر قلبها بين ضلوعه حتى تتكسر أظافرها.

لو وطئ نساء الأرض.

لو وطئ البخار ذوي اللحى أو وطئ الغلمان.

لو وطئ حيتان البحر، وقواقع الشطآن.

لن ترحل ناديا من صدره، فهـي الهـوى الـذي يـحيا بـه.

ويموت دونـه.

أما الحـلـم الـذـي يـراـه نـائـماً أو مـسـتـيقـظـاً وـيـتـهـلـل لـلـإـلـه أـن يـحـقـقـهـ، هـو أـن يـلتـقط رـيحـها فـيـجـوب الـبـحـار وـيـتـسلـق الـجـبـالـ، فـصـطـحـبـاً مـعـهـ الـمـخلـصـ الـأـخـيرـ؛ سـيـرـيـرـوسـ، حـتـىـ يـجـدـهـ، لـنـ يـعـاتـبـهـ أـوـ يـلـوـمـهـ، سـيـقـبـلـ الثـغـرـ الـذـي قـتـلـ وـيـمـصـ أـنـامـلـ الـبـدـ الـتـي طـعـنـتـ، ثـمـ يـنـعـلـ رـوحـهـ، مـنـ بـيـنـ سـاقـيـهـاـ، ثـمـ يـتـرـكـ كـلـبـهـ لـيـمـزـقـهـ، وـيـتـأـمـلـهـ، حـتـىـ يـأـكـلـهـ الدـودـ وـيـصـيرـ ذـبـابـاً أـزـرقـ،

وـحتـىـ ذـلـكـ الـمـيـعـادـ، عـلـىـ صـاحـبـاتـ الـعـرـوـشـ، صـاحـبـاتـ الـفـروـجـ أـنـ يـعـرـفـنـ جـيـداًـ...

مـنـ هـوـ آـرـامـ،



لم يكن يجرؤ على الاقتراب من المائدة سوى الساقي الذي أشفعه من الألم، وعلى حانته من الركود، يضع أحمامه الكأس تلو الكأس لأيام طالت، حتى جذب الكرسي يوماً وجلس، تأمل آرام لدقائق ثم ربت على كتفه وهمس: . يتتسائل الناس عن فتني الفتىان.

أجاب آرام بعد سنتين:

. قل لهم إن آرام قد مات.

. ومن المائل أمامي إذن؟

روح ڪلب تتلپس جسدا۔

لا يقبل النساء إلا النساء، وليس في اليوسبيس أكثر منهن، اعترف ما شئت حتى تمتلئ.

. أصمت، يكفي أنك آويت الحبشي في حانتك.

لم اكن اعلم انه ساد للنساء

أمسك آرام بتالب الساقى وشد حتو التفت رواد الحانة

ناديا ليست نساع، ناديا خلقت لها

تركه بعدما هز رأسه مؤمناً هندي الساقو، قميصه ثم همس لدئشوع قد ينفعك

نظر الى الامام فهو نفاد صبر فارادی

لبعث علينا آلام وسذب رئاته نفساً عميقاً لم يملئها من ذنب، ثم قاهر فاتح الساقو

♀

♀

♀

«هناك شاب في الخارج يقول إن لديه معلومات عن الكاهن».

حين مثل بين يديه جثا في إجلال ثم وضع البرديات، التقطها فرداً يائياً بشغف، قلبتها بعينيه فقرأ همسات من ألف وثلاثمائة سنة، همسات القيمة، المدونات التي خطّها موسى فترة إقامته بأرض الفيروز. اضطرب قلبه فرحاً وهو يتصفّحها قبل أن يلمس نصّها ويُتّسّع صفحاتها، التفت آرام:

من أنت؟

آرام بن عازور الإسکافي، السيدة راعوث هي زوج جدي، وشاعول كان صديقي.

نعم، شاعول، أنت ابن شانا المخبولة؟

هز آرام رأسه وكَبَّ على أسنانه:

نعم يا سيدى.

امرأة جميلة رغم ما أصابها، أورثتك شعرها وعيّنها، لا زالت على قيد الحياة؟

نعم يا سيدى.



. أدعوا الرب ألا يطول نسلك ما طال عقلها من خبال.

زفر آرام ولم يعقب، استطرد مُرَدْخَاي:

. أين بقية البرديات؟

. هذا ما تركه الجِبِيْتِي في الحانة قبل الهرب.

. تركها؟

. وجدها الساقِي ملِقاًة في ركن وراء برميل، لم يدركها في الظلام حين فرق في عجالة.

. لم تأتني لأنك مهتم لأمر البرديات؟

. الفتاة التي صاحبت الكلب الجِبِيْتِي، كانت حبيبتِي.

هز مُرَدْخَاي رأسه وقام:

. هل تعرف لهما وجهة؟

. أرادها أن تذهب معه إلى الجنوب لتقابل أبيها. مجرم قتل أحد أبناء «دلتا» ثم فر إلى المستنقعات.

. ممم، هل تكلمت مع الجِبِيْتِي؟

. عرض على ذهب المعبد نظير خروج ناديا معه، وعدني بسرقة إن وافقت.

. ذهبَ معبد سمنود؟ لن يذهب إلى المعبد، ماذا سمعت أيضاً؟

. قال الساقِي إن الجِبِيْتِي أسر له بأنه يرغب في تلقي العلم في معبد «أون».

لم يعقب مُرَدْخَاي، اقترب من آرام حتى رأى انعكاس وجهه في عينيه:



. أكانت الفتاة چيبيتية؟

. عازفة ناي من راقودة.

. الفتيات لا ينفخن الناي إلا لمن يتقن الغناء.

احمر وجه آرام غضباً فابتسم مُرْدَحَايِّ

. مؤلم؟ أتحدث عن فقد، لكنه أمر متوقع، أنت لم تكن لتتزوج منها على أي حال أليس كذلك؟

. لا، أنا أذهب للمعبد في كل سبت.

. وليس بك علة تحملها على الفرار؟

انتفخ أنفا آرام فاردف مُرْدَحَايِّ

. ماذا تعمل يا آرام؟

. أخوض المصارعات بـكلابي المدرّبة.

. كلاب، ممم، لقد جئتني لأنقذك من لهيب الاستياغ، آتياك بالكلبة التي هربت منك، الكلبة التي أحرقتك، العيب عيبك

أن ترك فتيات «دلتا» المكرمات لتطأ كلبة من راقودة، لا بأس، ليكن ذلك دافعاً لك كي تصل إليها، وللكاهن الذي...

أعجبها، أو يكون ما حدث لك عاراً على عار أمك.

لمع الخبال والحنق في عيني آرامِ:

. سادرق راقودة إن أمرتني، أسأل عنى حي «دلتا» وستعرف من هو آرام.

. وفَر طاقتكم وكفَ عن الغضب، الكلاب عالية النباح تموت في الحلبات أولاً. اسمع وأنصت، فالليوم سيكون أول أيام

عمرك، وما سأقوله قد يطفئ ناراً لا يطفئها بحر.



سكنت أطراف آرام وأحنى رأسه احتراماً.



♀

♀

♀

«بنداء كنداء حوريات البحر لم تكف ناديا يوماً عن مُناداتها، رائحتها تراود صدري منذ رحلت مغاضبة، صوتها المبحوح خلقة يهمس في أذني، يمزقها، حتى كدت أكتب اسمها بين حروف قصةنبي الرعاء، فهي الشجرة، وهي نار الجبل، وهي الثعبان الحامي، يا ناديا، يا رسولة الغزلان، لتكفُّ عن إرسال موجات الزيد الخمرى، لتكفُّ عن إرسال ردِيك الذى أسكر تماسيخ النهر، لتكفُّ عن غنجك الذى أخرج جذور الأشجار من الأرض وأنصَّح الثمار حتى سقطت، فالترجمة التي بين يديِّ وصية كاهن، لن تتحمل أوراقها المهترئة نارك، أو ماءك، ستذوب على شفتيك أخبارها وستحترق البرديات، وصاحب البرديات، فالنبض لا يكُف عن تردید اسمك، والدم الذى يدور في العروق يكاد من فرط سخونته أن يحرق جلدي، جلدي الذى باركته مسحًا وتقبيلًا، حتى امتألت المسام منك وفاقت».

أغمض الأجيافن فاحتبرقت عيناه، ثم فتحهما فوجدهما، تستند بكتفها على الباب، ذهل فقام:

ناديا! كيف دخلت إلى المعبد؟

أجابت بهدوء:

.تسألقت الأسوار.

جذبها كاي وأغلق باب الخص:



. إن رأك الكهنة فسيقولون...

:قاطعته

. سيقولون زوجة زوجها الذي تركها حزينة بعد أول لقاء.

. لم أقصد أن...

:أغلقت فمه بقبضة مضت فيها شفتيه السفلوي ثم أردفت

. لم آتِ هنا لاجترار الأحاديث، لقد جئت لأقول لك... إنني مخطئة، ليس عليك تحمل عاري، ورغبتني الحميمة في الخروج بروحى من ذلك الجسد المدنس، لقد فكرت فيما حدث بيننا، ولا أجد تبريراً لما فعلت إلا غضباً لا يجب أن ينصب عليك، ففي النهاية أنت لم تعدني بشيء.

الجمته الكلمات، كأن واحدة أخرى تتكلم، نظرت في عينيه فقرأت ما يدور بخلده فابتسمت:

. كأن واحدة أخرى تتكلم هه؟

ابتسمت ملء فمها الواسع وأحاطت بذراعيها رقبته وتنفست فيه:

. ألا تعرف أن في جسدي تعيش امرأتان؟

. مع من قضيت ليلة أمس؟

. سأحلق شعري وأجدع أنفي إن مستك العاهرة يوماً.

. وأين هي الآن؟

أشارت ناديا إلى حيث ترقد العاهرة في ركن الغرفة، تسيل من أنفها الدماء:

. ها هي، صفعتها من أجلك.



نظر كاي للركن الفارع ثم التفت لناديا مبتسمـاً:

كفاك لهواً.

لتنس أمر الزواج، ولنستمتع باللحظة التي نحيها كأنها آخر لحظاتنا.

نتربي في المعابد على صدق الوعود، ما كنت لأخذلك أو أخذل وعداً قطعته في المستنقع مع أبيك.

وَمَاذَا عَنْكِ؟

أنت سكنت السمع والبصر والفؤاد، ولم أكن لاتخذك عشيقه دون أن تناول بيته بليق بك ولقياً، لكنو...  
.

البرديات، زوجتك التي تخلص لها أكثر من أي شيء في هذه الأرض، شششش، اصمت يا فمي، لم أسلق الأسوار حتى أتكلم عنها، لم بعد يعنيني إلا أن نبقى معاً.

قالتـها ودفعـته فوقـ الحـصـير ثم جـلـست فـوـقـه فـارـدـفـ كـاـيـ

الْحَبْ مُحَرّمٌ فِي الْمَعَابِدِ.

لستا في المعبد، نحن أمام البَحْرَة، قدس الأقداس وراءك، والجنة أمامك.

خلعت ثوبها وألقته فوق وجه العاشرة النازفة خامسة بحدة.

لا أريد أن أسمع لك صوتاً.

التفت كاي إلى حيث تنظر:

ماذا قلت؟

. لا تعبأ، إنها تلك اللعينة التي تجلس في الركن.

ابتسہم کاٹ:



أنت مجنونة بحق!

تهدجت أنفاسها.

. جُننت بعشقك أيها الكاهن.

قالت لها ثم سجدت بشفتيها على شفتيه، أحاطتهما، ابتلعتهما، ثم أفرغت عسل نحل الأرض في جوفه.

قبل همسات الفجر فتح كاي عينيه، التمسها بجانبه فلم يجدها، جلس فشك عينيه قبل أن يراها، تجلس عارية فوق المصطبة، فوق البرديات! في يمينها بردية وفي يسارها البوصة:

. ماذا تفعلين؟

بعينين لا ترميان رمقته للحظات ثم ابتسمت:

. ألن تعلمني القراءة؟

نظرتها بعثت التوتر في صدره، قام بهدوء فاقرب منعا:

. بلـى، ستتعلمينـ.

. خطـك يـشبهـكـ، نـحـيفـ.

التقطـ كـايـ منـهاـ البرـديـةـ فأـرـدـفـتـ

. سيقول الناس عن ناديا إنها تركت زينة اليهود لتحبـ كـاهـنـاـ.

رمـقـهاـ كـايـ قـبـلـ أـنـ تـسـتـدـركـ

. بلـ تركـتـ زـينـةـ اليـهـودـ لـتحـبـ رـجـلـ حـقـيقـيـاـ. لـتـكـتبـ ماـ شـئـتـ أيـهاـ الكـاهـنـ، ولـتـبـقـ بـقـرـبـيـ، فـلـمـ أـخـلـقـ إـلـاـ لـكـ.

ثم قبلـتـهـ فـعـضـتـ شـفـتـيـهـ حـتـىـ تـأـلـمـ صـافـتـاـ، ثـمـ وـضـعـتـ ثـوـبـهاـ وـرـحـلـتـ، تـجـرـ خـلـفـهـ نـادـيـاـ التـيـ تـكـوـمـتـ فـيـ رـكـنـ، مـنـ



شعرها.

قاوم كاي عبقيها، طعم شفتيها، وسياط شعرها التي أهبت صدره. ثم نزل مياه البحيرة، جلس فيها بشroud حتى صفعت الشمس وجهه. فتح عينيه فرأى أنه مائلة أمامه، تجمدت أطرافه، تأمل ابتسامتها البيضاء، عينيها الحنون، ضوء الشمس على شعرها الأسود الحالك. اقتربت، تدفع الموجات الرقيقة نحوه، تخرج يدها من المياه مقلدة ثعباناً كبيراً يتلوّى، الثعبان الذي هاجم سفينة البحار الثانية، دارت من حوله هامسة بالقصة التي طالما روتها بشغف،

حين هبت العاصفة غرقت سفينة الكاهن الطيب ولم ينج سواه، تشبث برمث خشبي فالقته الأمواج في بحيرة غريبة، وجد فيها المأوى والطعام، وأنهى، خيل إليه أن فيها كل ما يتمناه، وبينما كان يصلوي للراعي شكرًا ويقرأ البرديات، اهتزت الأرض، وفجأة، برع من المياه ثعبان عملاق، تقدم نحوه فسأل: ما الذي جاء بك إلى الجزيرة أيها الكاهن؟ ارتعد كاي، ثم تشجع ورفع صوته: أحمل وصية للكاهن الأعظم، ولا شيء سوف يمنعني من تنفيذها. ضحك الثعبان: أيها الكاهن، أنت شجاع، لكنك لست في مأمن، لست في مأمن.

سكتت فالتفت حوله يبحث عنها فلم يجدها، اختفت كأن التمساح ابتلعها، غاص في هلع يبحث عنها قبل أن ينتشر له صوت:

ـ كاي، ماذا تفعل؟

ـ أفاق كاي من شروده فوجد كاهن المعبد يقف على ضفاف البحيرة، خرج إليه فجئ:

ـ لم تحضر صلاة الشروق؟

ـ سهرت على البرديات فغلبني النعاس.

ـ ألم تذهب إلى زوجك؟

ـ سأطمئن عليها بعد الغروب.

ـ أريدك أن تترك البرديات التي أنهيتها في قدس الأقدس خشية التلف.



نعم، لكن... أخشى انتهاكًا مثل انتهاك معبد الأسوار السبعة.

كلماتك تحمل رائحة غير محببة، هل حام الشك حول أحد كعنزة معبد سمنود؟

انقبضت رئتا كاي واندفع الدم إلى جبهته:

لا يا سيدي، لكن مقتل الكاهن الأعظم يوجب الحذر، لم تعدد لي ثقة حتى في نفسي.

الكافن الأعظم لم تكن لتختفي عليه هيئة النجوم.

تعني أنه أدرك مقتله؟

وإلا ما أخفى البرديات؟

شرد كاي فاسترجعت عيناه جسد الكاهن وعنقه المفتوح بين يديه فانتابتة رعشة:

لِمَ الموت يا سيدي؟ لِمَ اختار الرب تلك الوسيلة لينهي وجودنا في الحياة؟

نظر الكاهن للسماء ثم ابتسما:

لِمَ خلقنا من الأساس؟ ذلك هو السؤال الأصعب.

لِمَ نبن تلك المعابد لنجد الإجابات؟

لقد بُنيت المعابد لأن فقراء العقول لا يقنعون بأن الراعي لا يحدُه مكان، بل ولا يحد حياته موت، لذا كان على القدماء أن يبنوا له بيئاً وينحتوا لملائكته تماثيل تماثيل ليعرف الناس هيئتهم فتؤمن الأعين فالقلوب.

وكيف نعبد بلا معابد؟

أهو في حاجة لعبادتنا؟

لقد خلقنا لنعبد.



. أيفتقر إلى عباد يجلونه ويوقرونه؟ فهو في حاجة لنا وهو الكمال في ذاته؟

. إذن لقد خلقنا فقط، لأنه يحبنا.

ابتسם كاهن «أون»:

. نعم، إنه الحب فقط ما يجعل أفعاله غير المعقولة، فبررة وفنتقية، هذا إن استطعت أن تبرهن أنه هو من خلقنا.

أجاب كاي بعد صمت:

. ربما لا أستطيع.

. لكنك تستطيع أن تبرهن أننا نحن البشر قد خلقناه، بالحب أيضاً.

. نحن؟ خلقنا الإله؟ كيف؟

. اليهود خلقوه غضوباً خطاء، ملائماً لطبيعتهم، وأسموه «يهوه»، واليونانيون خلقوه عاشقاً يهوى النساء، منافساً لشهواتهم، وأسموه «زيوس»، ونحن، خلقناه في الماء وجعلنا له عرشاً يحمله ثمانية من الملائكة المقربين، وأسميناه الراعي.

. من فيهم هو الراعي الحقيقي؟

. أتعرف قصة الأسود الثلاثة؟

. لا.

. حبس الحراس ثلاثة أسود في غرفة مغلقة يتواطئها غزال مذبوح، اقترب أول الأسود وأكبرها من الغزال لينهشها، فصب الحراس ماء ساخنا فوق الأسود كلها، احترق فروتهم فتفرقوا، ثم اقترب الأسد الثاني من الغزال فتلقوها جميعاً دفقة الماء الساخن نفسها، ثم اقترب الثالث فزار الأسدان الآخران تهديداً، تردد وابتعد، لقد فهمت الأسد أن الاقتراب من تلك الغزال يعني الحرق بالمياه، ومرة يومان والأسود تتضور جوعاً، حتى انفتح الباب وسحب الحراس أسدًا من الأسود



قبل الدفع بأسد جديد إلى الغرفة، وإذا به بتلقائية يقترب من الغزالة لينهشها، فما كان من الأسددين إلا أن ضرباه وهدداه بالزئير، فهما يعلمان أمر الماء الساخن الذي سيضررهم جميعاً ولا يعلمه الوارد الجديد الذي اتّخذ ركناً لا يعلم ما جريمته، بعدها بيوم، سحب الحراس أسدًا قديمًا ودفعوا بأسد جديد، ففعل نفس الشيء، اتجه للغزالة فهدده أسد قديم وأسد جديد، ثم تم سحب الأسد الوحيد الباقي من الأسود التي ذاقت المياه الساخنة ودفع بأسد جديد، هكذا أصبح في الغرفة ثلاثة أسود لم تحرقها المياه الساخنة، فما كان من الأسددين إلا أن ضرباً الأسد المستجد وهدداه مخبة الاقتراب من الغزالة، دون أن يسأل أحداً، لماذا تخاف تلك الغزالة؟ وماذا سيحدث إن أكلناها؟

. إذن... لا أحد يعرف الراعي حقيقة.

. سيظل اسمه [هـ] لكل نفس لم تتخذ طريق البحث عنه، لكن إن ملأك اليقين بأنك ستصل، فالمعلم لا يظهر إلا إذا تجهَّز الطالب للعلم واشتق إلية، هكذا قال إدريس المعلم، الإجابة هي «الاشتياق» لمعرفته، تلك السخونة التي تعتري أسفل رئتيك وتثبت في العروق هاجساً واحداً لا يتبدل أو يخفت، أن تدركه، وتتبع خطواته، حتى وإن تحطممت أعمدة معبدك، حتى وإن أغرق النهر إيمانك القديم، إيمانك المرighb.

قالها ثم وضع يده على كتف كاي

. لا تدع أفكاري العجيبة تزيد تخبيطك، فأمامك كهل تخطى السبعين، البرديات الآن في عهدة معبد «أون»، المعبد الذي يحج إلية حكماء الأرض منذ عهد المعلم ثلاثة إدريس، لا تخش عليها شيئاً، أسرع في ترجمتها واقرأها على أذني، فالبصري يكف والعمري يطوى طي البرديات، وكم أشتاق إلى سماع كلمات مانيتون.

هز كاي رأسه وانحنى في تبجيبل، قبل أن يعود إلى غرفته.





يوم العيد كان حدثا سنويا، تحتفل القبائل فيه بيوم الانتصار على الجيبتيين وقتل ملکهم «سقnen راعي»، تملأ القبائل ساحات هوارة والأسواق منذ الشروق، يعلقون الزينة ويرفعون الأعلام، وينصبون التمثال الخشبي الذي يجسد ملك الجيبتيين فوق ظهور الحمير، يضعون على رأسه تاجا من الفخار، في العينين بيضتي نعام، وحول الصدر قطعة من لحم عجل مكسوة بثوب ذهبي، يزفونه بالدفوف والنایات ويمرون في الحارات لترش عليه النساء زخات الغيط والحدق، ثم يتوجهون بالتمثال إلى شاطئ البحر المزدحم حيث يلهو الأطفال ويتراحم الباعة والعائلات في انتظار نفخة البوّق، بعدها تنهال الجموع على التمثال فيسقطونه ويركلونه ويكسرون تاجه، ثم يطعنون لحم العجل على صدره بالسيوف والسكاكين، ويفوز من يكسر بيضتي النعام في فحجري العينين تمثيلا لما حصل يوم المعركة، قبل أن يحرقوا الرفات ويلقوه إلى البحر.

حين أضحت النهار نفخ في البوّق ثانية، نفخة طويلة فمizza تعني أن ما سيعلن أمر ملكي، انتظر الناس حتى لام الموكب عن بعد، يسبقه حراس يفرقون الناس إلى أطراف ساحة السوق الكبيرة ويأمرونهم بالسجود، توقفت عربة هامان فنزل منها ثم عربة قارون يجرها ثمانية عبد أشداء، ثم اقتربت العربة الملكية، نزل فرعون بزي مركب مرصع بالفیروز والعقیق، فوق رأسه تاج العجل وأمام أنفه وفمه فكأسد مشدود برباط خلف صدغه، نظر للرسوس الساجدة قبل أن يتوجه إلى منصة خشبية فرشت بالسجاد، جلس على عرشه المذهب ومن ورائه على منصة أصغر جلست راحيل وراء حجابها، أشار فرعون لحامل البوّق فنفخ نفخة رفع الناس بعدها رءوسهم



دون أن ينظروا إلى وجه ملوكهم الذي اقترب منه هامان وهمس:

السحرة الجيبيتون ينتظرون إشارة.

.أئنني بهم.

وأشار هامان للسحرة السبعة فاقتربوا داعسين. نظر فرعون في وجوههم:

.هل تعرفون ما سيحل بكم إن ثذلتمنا.

قال كبارهم:

.يا أيها الملك...

نخذه زميله فاستدرك:

. يا رب القمر والصحراء، نحن خيرة سحرة الثعابين في إيجيبت، جحورها منازلنا وجلودها ملابسنا، هزمنا سحرة الكوشيين، وطمسمنا الأعيب الليبيين، لنا الخلبة أينما حللنا، لكننا قوم طالنا الفقر وضيق الحال، هل لنا أجر إن كنا نحن الغالبين؟

.نعم، ستتركون أرض إيجيبت وتعيشون في مصر، بجانب القصر، وسيجزيكم قارون الجواهر والأحجار.

وأشار لقارون الذي جلس فوق كرسي منخفض محشو بالريش فهز رأسه مؤمنا.

أجاب كبير السحرة:

.سندخل السرور إلى الأعين والقلوب.

قالها ثم انحنى وابتعد. توسط هامان الساحة ثم أشار للحارس فسمحوا لموسى أن يدخل الساحة ومن ورائه هارون، أمّا مريم فراقبت ما يحدث من بين الرءوس المتزاحمة. رفع هامان صوته:



. أيها الناس، هل تتذكرون ذلك الفتى المدلل؟ ربب القصر الذي فرّ من هوارة يوماً، فربعدما قتل رجلاً من يهودا، قبيلتي، ها هو الآن يأتي على قدميه، بعدما عاش بين قبائل الحاقدين في الشرق عشر سنوات، أنعرفون ما الذي أتى بهاليوم؟ أتى وأخوه الهزيل الواقع خلفه ليخرجكم من أرضكم.

سررت الهممـات وتنافست الرءوس ارتفاعاً فأردفـ:

. نعم، ابنا بيت عمران، ابنا خرائب المنبوذين، تعلما السحر الجبيـتي وطلبا خروج قـبيلـتـهـمـاـ منـ بيـنـكـمـ، لـتـنـفـكـ عـرـوـتـكـمـ وـتـذـهـبـ قـوـتـكـمـ، لـيـنـضـمـواـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ أـعـدـائـكـمـ فـيـ حـرـبـهـمـ.

صاحب موسى:

. ويـلـكـ! أـنـفـتـرـيـ عـلـىـ رـاعـيـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ كـذـبـاـ؟ سـيـهـلـكـ العـذـابـ.

قال هامان:

. هـاـ هـوـ اـبـنـ الـخـوـنـةـ يـنـضـحـ بـمـاـ فـيـهـ، يـدـعـوـ إـلـهـ الـجـبـيـتـيـنـ وـيـعـدـكـمـ العـذـابـ.

قال هارون:

. إنـماـ الرـاعـيـ هـوـ رـبـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ، إـلـهـ الرـعـاهـ وـالـجـبـيـتـيـنـ، وـإـلـهـ الـأـرـضـ.

رفع هامان عصانه الذهبية:

. هـاـ هـوـ يـبـتـغـيـ لـكـمـ إـلـهـاـ غـيرـ إـلـهـكـمـ، رـبـ الصـحـراءـ الـذـيـ تـجـسـدـ فـيـ جـسـدـ مـلـكـهـمـ، فـرـعـوـنـ.

علت أصوات العامة:

. الـمـاجـدـ لـفـرـعـوـنـ، رـبـ الرـعـاهـ وـالـصـحـراءـ وـرـبـ الـقـمـرـ.

هدأت الهمـاتـ فـرـفـعـ هـامـانـ صـوـتهـ:



.اليوم نزل الرب من قصره ليشاركم يوم عيدهم، يوم مقتل ابن آوى الجبتي، وليستعيد معكم انتصاره الأخير على ابنته «كامس» بطعنها من أضعف جندها، وليرىكم في ذلك الفتى عبرة، لتدركوا أن عين الله لا تنام، تراكم في منامكم وفي يقظتكم، وحين تصطادون السمك في النهر أو البحر، وحين تزرعون التمر والكرز، تدرسكم، وتحافظ على رابطة الأحلاف، رابطة الدم التي عقدها «ساليبيس» يوم أورثنا رب الصحراء والقمر تلك الأرض.

قالها ثم نظر للملك:

ليأذن لنا الرب في بدء التحدّي...

قطّعه موسى رافعا صوته:

وماذا إن كنا الغالبين؟

ساد الصمت، اتجهت الأعين لفرعون على عرشه ولهامان الذي بُهت، لم يكن لهزيمة موسى وأخيه بديلا، قام فرعون من فوق عرشه ونظر للناس ثم قال:

على الناس أن تستمتع بالسحر، وعلى الرب أن يقرّ أمركم.

ثم أشار فرعون للسحرة فالتفوا حول موسى في نصف دائرة، وأضعين أجولتهم الحمراء بين أرجلهم، ساد الصمت والترقب حتى صفق كبارهم فضررت الدفوف والنایات في نغمة جببية غريبة على الآذان، ثم خرجن من بين الأكتاف ثلاثة فتیات لم تخف جلود الثعابين أثداءهن، تمايلت ذصورهن والأطراف ثم رقصن بحركات الثعابين، قبيل أن تلقي إحداهن بقنية فخارية بين موسى والسحرة، انكسرت فأصدرت دخاناً أبيضاً له رائحة طيبة عطرت الأنوف وأغشت الأعين، حينئذ فك السحرة أجولتهم، وضعوا أقنعة جلود الثعابين على وجوههم انقاءً لتأثير الدخان والتقطعوا عصيهم والحبال، تقدم كبارهم من موسى الذي اضطرب صدره من تلك النغمات الغريبة ورقص الفتیات حوله:



أَتَلْقَى أَمْ نَلْقَى؟

نظر موسى إلى قناع التعبان فوق وجه الرجل ثم التفت لهارون الذي هز رأسه تجاه الساحر فابتلع موسى ريقه وقال:

بَلْ أَلْقَوا.

هَمْسُ السَّاحِرِ:

إِنَّكُمَا مِيَتَانٌ.

ثُمَّ رَجَعَ لِلوراءِ خُطْوَاتٍ وَنَادَى بِأَعْلَى صُوْتِهِ:

بَعْزَةُ فَرْعَوْنٍ إِنَّا لِنَحْنُ الْغَالِبُونَ.

ضَرَبَتِ الطَّبُولُ بِهَدِيرَهُ الصُّدُورَ وَنَفَخَتِ النَّايَاتِ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى السَّاحِرُهُ بِالْعُصَبِيِّ الْمَرْبُوَطَةِ بِالْحِبَالِ، سَكَنَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَرَفَعُوا أَيْدِيهِمْ لِلسماءِ بِقَبَضَاتِ مَغْلَقَةِ، رَدَّدُوا حِروْفًا مَبْهَمَةً بِلُهْجَةِ جَيْبِتِيَّةٍ ثُمَّ فَتَحُوا كَفَوْفَهُمْ فَنَثَرُتِ الْأَصَابِعُ أَلْوَانًا شَتَّى، وَإِذَا بِالْحَرْكَةِ تَدَبَّرَ فِي الْعُصَبِيِّ وَالْحِبَالِ، اهْتَرَّتْ ثُمَّ تَمَوَّجَتْ فَتَلَوَّتْ، بَيْطَأَتْ كَائِنَهَا حَيَّةً تَتَنَفَّسُ، ضَرَبَتِ الْدَّهْشَةُ الرَّءُوسَ وَعَقْلَ مُوسَى، عَيْنَاهَا لَا تَكْذِبُانِ، الْعُصَبِيُّ تَسْتَحِيلُ ثَعَابِينَ لامِعَةً، تَتَحَرَّكُ، يَرْفَعُ أَصْحَابَهَا أَيْدِيهِمْ لِلِّيمِينِ وَلِلشَّمَالِ فَتَتَبَعُ أَوْامِرَهُمْ، ثُمَّ يَنْزَلُونَهَا فَتَسْكُنُ، قَبْلَ أَنْ يَوْجِهُوهَا إِلَى الْأَمَامِ، إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ، زَحَفَتِ الثَّعَابِينَ مَقْتَرِيَّةً، حَاصِرَتِهِمَا، أَمَا الْفَتَيَاتِ فَاقْتَرَبْنَ وَفَتَحْنَ أَفْوَاهَهُنَّ بِالسَّنَنِ مَشْقُوقَةً الْأَطْرَافِ مَصْبُوَّغَةً، يَصْرُخُنَ بِصَوْتِ صَمَّ الْآذَانِ، انْجَبَسَتِ الْهَمَمَاتِ، وَوَقَفَ فَرْعَوْنٌ وَاضْعَافَ يَدِيهِ فِي ذَصْرِهِ فَخَرَأً، وَنَثَرَ قَارُونَ الْعَمَلَاتِ تَحْتَ أَرْجُلِ السَّاحِرِهِ وَهَمْسُ هَامَانَ فِي أَذْنِ أَحَدِهِمْ بِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ ابْتَسَمَ مِنْ أَجْلِكُمْ، وَسَقَطَ قَلْبُ مُوسَى تَحْتَ وَطَأَةِ الشَّكِّ، فَإِذَا لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ السَّاحِرَةِ قَدْ سَمِعُوا نَفْسَ الصَّوْتِ؟ أَوْ رَأَوْا نَفْسَ الشَّجَرَةِ الْمُضَيَّنَةِ؟ كَانَ ذَلِكَ حِينَ رَنَ الصَّوْتُ فِي عَقْلِهِ، الصَّوْتُ الَّذِي سَمِعَهُ عِنْدَ الشَّجَرَةِ: «لَا تَخَفْ».

تَلَفَّتْ حَوْلَهُ بِغَتَّةٍ فَلَمْ يَرِفِّي الدُّخَانَ أَحَدًا: «إِنْكَ أَنْتَ الْأَعْلَى».



سَمِعَهَا فَأَغْمَضَ عَيْنِيهِ وَسَحَبَ نَفْسًا لَصَدِرِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ عَصَاهُ إِلَى أَعْلَى ثُمَّ يَلْقِيَهَا، بَيْنَ النَّعَابِينَ. نَظَرَ السَّحْرَةُ إِلَيْهَا وَتَرَقَّبَتْ أَعْيْنَ النَّاسِ، وَمَدَ فَرْعَوْنَ بَصَرَهُ مِنْ تَحْتِ التَّاجِ، لَحَظَاتٍ مِنْ السُّكُونِ أَيَقْضِطُتُ الْهَمَّهَاتُ بَيْنَ النَّاسِ وَرَسَّمَتِ الْبَسْمَةُ عَلَى شَفَّتِي فَرْعَوْنَ قَبْلَ أَنْ تَضُطُّرِبِ الْعَصَا بِحَرْكَةٍ خَفِيفَةٍ أَخْذَتْ تَنْزَيْدَ قَبْلَ أَنْ تَلِينَ وَتَنْتَفِعَ فَتَتَحَوَّلَ لِثَعَبَانِ أَسْوَدَ لَامِعَ بَيْتِ الْفَحِيجِ بِلْسَانِ مَشْقُوقٍ، اضْطَرَّبَ قَلْبُ فَرْعَوْنَ وَتَبَسَّسَ السَّحْرَةُ، نَظَرُوا لِبعضِهِمْ غَيْرَ مُصَدَّقِينَ، تَحْفَزُوا، ثُمَّ رَكَضُتِ فَتَيَاتِ الرَّقْصِ وَعَلَتِ الْهَمَّهَاتِ حِينَ انْقَضَ ثَعَبَانِ مُوسَى عَلَى أَحْدُهُمْ قَابِلَتِهِ، ازْدَادَ هَيَاجَ السَّحْرَةِ فَتَخْبَطَتِ أَيْدِيهِمْ وَالْأَكْتَافُ، وَاشْتَبَكَتِ خَيُوطُهُمُ الشَّفَافَةُ، ثُمَّ التَّقَمَ ثَعَبَانِ مُوسَى وَاحِدًا آخَرَ فَصَرَخَ النَّاسُ تَشْجِيعًا، ثُمَّ الثَّالِثُ فَالرَّابِعُ فَاهْتَزَ فَرْعَوْنَ عَلَى عَرْشِهِ وَصَرَخَ فِي هَامَانَ الَّذِي ضَرَبَ ظَهَرَ أَحَدَ السَّحْرَةِ وَتَوَعَّدَ زَمَلَاهُ، ثُمَّ التَّقَمَ ثَعَبَانِ مُوسَى الْخَامِسُ وَالسَّادِسُ قَبْلَ أَنْ يَحَاصِرَ السَّابِعَ، نَظَرَ السَّحْرَةُ لِمُوسَى الَّذِي لَمْ يَحْرُكْ سَاكِنًا، وَلَفَرْعَوْنَ الَّذِي اشْتَعَلَ غَضَبَهُ فَخَلَعَ فَكَ الْأَسْدِ، ثُمَّ لِثَعَبَانِهِمُ الْآخِرِ الَّذِي أَكَلَهُ ثَعَبَانِ مُوسَى قَبْلَ أَنْ يَزْحَفَ رَاجِعًا لِصَاحِبِهِ الَّذِي انْحَنَى فَالْتَّقْطَهُ، تَبَسَّسَ وَتَصَلَّبَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَحِيلَ عَصَا خَشْبِيَّةً كَانَتْ يَوْمًا جَذْعًا فِي شَجَرَةٍ.

ذَرَ السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ وَالنَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ، سَحَبَ فَرْعَوْنَ ذِنْجِرَهُ وَتَحْفَزَ الْحَرَاسَ إِنْ لَمْ يَجْرِءُوا عَلَى الاقْتِرَابِ، صَرَخَ فِيهِمْ أَنْ اقْتُلُوهُمْ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْحَرَاسُ وَلَمْ يَتَحْرُكُوا مِنْ الرُّوعِ، رَكَلُوهُمْ هَامَانَ فَفَرَّ الْيَانِسُونُ مِنْهُمْ وَحَاصَرَ مِنْ بَقِيِ السَّحْرَةِ الَّذِينَ قَامُ كَبِيرُهُمْ وَاتَّجهَ لِمُوسَى، رَفَعَ قَنَاعَهُ الْجَلْدِي وَقَالَ:

ما جَئَتْ بِهِ لَيْسَ سِحْرًا نَعْرِفُهُ أَوْ لَا عِيبٌ بِصَرٍ، ما جَئَتْ بِهِ لَمْ يَأْتِ بِمَثْلِهِ إِلَّا إِدْرِيسُ الْعَظِيمِ.

ذَلِكَ فِعْلُ خَالِقِ إِدْرِيسِ.

انْحَنَى السَّاحِرُ،

الْجَلَالُ لَهُ وَلِرَسْلِهِ وَلِلْجَذْعِ الَّذِي بَوْرَكَ.

لَمْ يَمْهُلْهُ حَرَّاسُ الْمَلْكِ، سَحَبُوهُ فَكُومُوهُ فَوْقَ زَمَلَائِهِ أَمَامَ قَدْمَيِ فَرْعَوْنَ وَحَاصَرُوهُ مُوسَى وَهَارُونَ عَنْ بَعْدِ قَبْلِ أَنْ يَشَتَّتُوا دَائِرَةَ النَّاسِ ضَرَبَنَا بِالْعِصَيِّ.



يَعْزِمُكُمْ فَتَسْجُدُونَ! دُونَ أَنْ أَمْرُكُمْ بِالإِذْعَانِ! إِنَّهُ لِكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلِمَكُمُ السُّحْرَ.

قال كَبِيرُ السُّحْرَةِ:

لَمْ نَقْابِلْ رَسُولَ الرَّاعِيِّ مِنْ قَبْلِ.

رَسُولُ! صَدَقْتُمْ مِزَاعِمَهُ؟ سُحْرُكُمْ يَا خُبْرَاءِ السُّحْرِ؟

مَا أَتَاهُ لِيْسَ بِسُحْرٍ، وَأَنْتَ لَسْتَ بِاللهِ؟

كَيْفَ تَجْرُؤُ؟

صَرَخَ فَرْعَوْنَ حَتَّىْ طَارَ لِعَابَهُ:

إِنَّهَا لِمُؤْمَنَةٍ وَمَكْرٌ ضَمْرَاهُ فِي مَدِينَتَهُمَا.

عَقْبُ هَامَانَ:

بَلْ سُحْرُهُمْ مُوسَىٰ وَأَخْوَهُ لَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ.

قال كَبِيرُ السُّحْرَةِ:

لَنْ نُمْلِيَ إِلَيْكُمْ بَعْدَمَا رَأَيْنَا عَلَامَةَ الرَّاعِيِّ.

نَزَلَ فَرْعَوْنٌ عَنْ عَرْشِهِ وَأَمْسَكَ بِتَلَابِيبِ كَبِيرِ السُّحْرَةِ.

تَلَكَ الْأَرْضُ الَّتِي تَقْفَ عَلَيْهَا لَا يَظْلِمُهَا إِلَّا ظَلْمِي. سَاقْطَعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجَلَكُمْ مِنْ خَلَافِ وَسَأَصْلِبُكُمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ

لِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُ عَذَابًا وَأَبْقَى. وَلِتَدْعُوا رَاعِيَكُمْ أَنْ يَأْتِي فِينَقْذِكُمْ.

اقْضِ مَا أَنْتَ قاضٍ، لَنْ تُكَرِّهَ سُحْرَةٌ إِيجَبَتْ عَلَى عِبَادَتِكَ، فَالْعُمَرُ مُضْعَى. رَأَيْنَا فِيهِ مَا رَأَيْنَا، وَحَقِيقَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْهَا

بِشَرْفِ.

التفت فرعون لحراسه:

. عند الغروب سامر بطريق النخيل، أريد أن أطلع إليهم مصلوبين، وسأشرف بنفسي على تقطيع أمعائهم وإطعامها للكلاب.

سحبهم الحراس والوجل يملؤهم، نظروا لموسى وهزّوا رءوسهم، فنظر فرعون لموسى والغل يفيض تحت قدميه، أشار لهامان وقارون، ابتعد بهما عن الحراس ثم التفت:

. قلتما إن هؤلاء هم ذيرة سحرة إيجيبت!

. للوَغْدِ عِلْمٌ لَمْ يَبْلُغُوهُ.

. لنسجنه أو ننفيه بعدها نسلبه عصاه.

. كيف وما إن تغادر العصا يده حتى تستحيل ثعباناً يصرع ثعابين السحرة؟

. لقد فر الدم من رأسني حين نظرنا حيتي.

. لنقتله ونصليبه في بوابة الخراب.

. بل نغرقه في اليم بعصاه بعدها نربطها في يده بحبل غليظ.

. إن أمرت بقتله لا أضمن أن يهرب ثعبانه فيتسلل لفرشنا، ولن يستطيع ذلك الشاحم منه هرباً.

. لنحرق العصا ونحرقه.

. ونقتل أهل بيته حتى يكون عبرة.

. ماذا لو كان الصوت الذي سمعه حقيقة؟

التفتا إليه:



. مَاذَا تقول يَا سَمِينَ الْكَرْشِ وَالْعُقْلِ؟

. أَقُولُ إِنْ رَبِّيَا. أَنِّي إِلَهُ الْجَيْبَتَيْنِ قَدْ...

. قَدْ يَطْؤُكَ خَيْرٌ مِنْ فَتَاكَ الْمَدْلُلِ.

. لِمَ لَا نَخْرِيهِ بِالْجَوَاهِرِ؟

. سَاضِعُ تَلْكَ الْجَوَاهِرَ فِي مَؤْخَرِتِكَ، أَيْبِدُو لَكَ الْفَتَى مَمْنَ تَلَهِي أَعْيَنَهُمُ الْجَوَاهِرُ؟

. إِنَّهَا لِعَنَةُ قَبِيلَتِكَ الَّتِي لَا تَزُولُ.

. تَرَبَّى ذَلِكَ الْفَتَى فِي قَصْرِي، لَمْ أَعْرِفْ عَنْهُ سُوَى الْعَنَادِ وَالْجَنُونِ، كَانَ يَخْتَلِي بِنَفْسِهِ فَوْقَ الْجِبَالِ وَيَكَلِّمُ الْخَيْلِ

. وَيَعْطُفُ عَلَى أَرَادِلِ الْعَبِيدِ، وَحِينَ أَعْنَفُهُ يَضِيقُ صَدْرُهُ فَيَحْتَسِ صَوْتَهُ.

. تَلَكَ عَلَامَاتُ الْجَنُونِ.

. مَاذَا سَنَفْعُلُ فِي الْعَصَمِ؟

. وَيَدِهِ النَّاصِعَةُ الْمُضِيَّنَةُ؟

. لِنِبَرِهِا.

. لِمَ لَا تَقُولُ شَيْئًا مُفْبِدًا؟ نَحْنُ لَا نَعْرِفُ مَا يَخْفِيهِ فِي أَكْمَامِهِ مِنْ سِحْرٍ.

. وَقَدْ فَضَلَ السَّحْرَةُ الْمَوْتَ عَلَى أَنْ يَطْبِعُونِي!

. سِحْرَهُمْ.

. نَعَمْ، وَسَيَبْقَى السَّحْرُ حَتَّى تَصْلِبَ أَطْرَافَهُمْ.

. أَرَى أَنْ نَتَرَكْهُ حَتَّى نَتَدْبِرَ أُمْرَهُ.



بعدما أفقدنا هيبتنا؟

إن الحراس يخافونه، إن عصوا الأوامر فسيستفحـل الأمر ويتفاـقم.

نظر إلى موسى فلمح في عينيه تحدياً، وفي الحراس رعشـة، ثم التفت فإذا براحـيل تنـظر إليه من وراء حـجابها. قال هامـان:

إن الشعب لا يصدقـ، وإذا صـدقـ فإنه ينسـى، مثل طـفل يـبكي بحرقة ويـصرخـ، ثم يـضـحكـ بعد لـحظـةـ، كـأنـ شيئاـ لمـ يـكـنـ.

راـحـيل تـحبـ الـوـغـدـ.

وـسـتـنـسـاهـ كـمـاـ تـنـسـىـ خـيـولـهـاـ التـيـ نـفـقـتـ.

سـادـ الصـمـتـ لـحـظـاتـ حـتـىـ قـطـعـهـ فـرـعـوـنـ:

اـتـرـكـوـهـ.

ثـمـ هـمـسـ فـيـ أـذـنـ هـامـانـ:

لا يـمـسـهـ أـحـدـ بـسـوءـ حـتـىـ لـاـ يـلـقـيـ عـصـاهـ.



♀

♀

♀

في جنح الليل تسالت راحيل إلى الخلاء ملثمة، سارت بدمارها حتى اقتربت من اليمامة: صخرة أطلق عليها ذلك  
الاسم لأنها على هيئة طائر راقد، انتظرت تحت نور القمر للحظات قبل أن ترفع صوتها:

أعرف أئك هنا.

خرج موسى من دلف الصخرة فابتسمت:

أتيت بعضا السحر؟

قبل أن تصير ما صارت كانت عصا لغنمى.

تزوجت؟

ولي ولدان وبنت.

ابتسمت راحيل:

لا أنسى يوم التقطناك من الماء، الآن يا صغيري لك أولاد هم لي كالأحفاد.

لم تتزوجي؟



. ومن يجرؤ؟

حك جبته في حرج فأردفت:

. لن أسألك عما حدث أمس، لكنني أسألك عما أتيت من أجله، ولا تقول لي إنك أتيت لإخراجبني إسرائيل من الأحلاف.

هذا ما أرسلتَ من أجله.

. وما شأن إلهك بالمنبوذين؟ قد كانوا يوماً ذوي شأن حتى فسقوا.

إلهي يتوب على ظالمي أنفسهم كي لا يظلموا غيرهم.

ونحن، آل فرعون؟

. كل من آمن له الحرية في الخروج معنا.

أنت تعرف أبي، وتعرف أنه لا يذعن.

أعرفه كما تعرفين أنت أنه ليس إلهًا.

لمعٌ علينا في نور القمر:

. وإن لم يوافق يا صغيري؟

سكت موسى ولم يعقب. أردفت راحيل:

. سيلدغه ثعبانك؟

ثعباني آية له كي يصدق.

. ستمزق دعوتك وحدة القبائل.



. هو من فرّق بين القبائل، تحالف مع يهودا لكتّرة جندها، ومع قارون ليُقهر بنى إسرائيل ولسيطرته على  
مناجم الأحجار، أما بقية القبائل فيُوَقِّع بينهم ويُبَيِّثُ الفرقـة ليُضْعِف شأنـهم ويُثْبِت عـرـشه.

ـ دعـه يـتـحـمـل تـبعـات ما فـعـلـ، وـمـن رـضـيـ الذـلـ فـلـيـتـمـرـغـ فـيـ الطـينـ رـاضـيـاـ.

ـ إنـها رسـالـة ربـيـ لا مـفـرـ منـ تـبـلـيـغـهـاـ.

ـ وهـل وـافـقـكـ كـبـراءـ بـنـىـ إـسـرـائـيلـ؟ـ

ـ الذـلـ تـمـكـنـ مـنـهـمـ وـغـلـفـ الـقـلـوبـ، مـاـ إـنـ يـخـرـجـواـ مـنـ تـحـتـ نـيـرـ أـبـيـكـ وـيـتـبـعـونـيـ حـتـىـ يـدـخـلـ الإـيمـانـ قـلـوبـهـمـ.

ـ إـنـ لـمـ يـقـتـلـكـ أـبـيـ فـسـيـكـوـنـونـ هـمـ قـاتـلـيـكـ.

ـ سـأـبـلـغـ رسـالـتـيـ وـلـوـ لـمـ يـتـبـعـنـيـ أـحـدـ.

ـ بـنـوـ إـسـرـائـيلـ لـاـ يـعـبـدـونـ إـلـاـ الذـهـبـ.

ـ أـنـاـ مـنـهـمـ.

ـ إـنـهـمـ يـدـعـونـ قـرـابـةـ جـدـكـ يـعـقـوبـ.

ـ صـارـ بـيـنـنـاـ مـصـاهـرـةـ وـقـرـابـةـ.

ـ أـنـاـ مـنـ رـبـيـتكـ.

ـ لـمـ أـنـسـ يـوـمـاـ مـاـ فـعـلـتـهـ مـنـ أـجـلـيـ أـنـتـ وـأـمـكـ.

ـ سـتـحرـقـ نـارـكـ سـتـائـرـ غـرـفـتـيـ.

ـ اـتـرـكـيـ الـقـصـرـ وـاتـبـعـيـنـيـ.

ـ اـبـنـهـ فـرـعـونـ تـسـيرـ بـيـنـ بـنـىـ إـسـرـائـيلـ.



. لن يمسوك بسوء ما دمت حيَا أتنفس.

. أنت حَالِمْ يا صَغِيرِي، سَيُوتَدْ أطْرَافُك فِي نَخْلَةِ أَهَامْ بَابِي كَيْ يَشْمَتْ بِي.

. إِنْ مَعِي رَاعِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

زَقْتْ شَفَتِيهَا فِي ابْتِسَامَةٍ قَبْتُورَةٍ ثُمَّ نَظَرَتْ لِصَخْرَةِ الْيَمَامَةِ خَلْفَهُمَا:

. أَنْذَكَرْ تِلْكَ الصَّخْرَة؟ كَنْتْ أَلْعَبُك عَنْدَهَا كُلَّ يَوْمٍ لِعَبْتُكَ الْمُفْضَلَة، لِعَبْةِ الْاِخْتِبَاءِ، كَنْتْ تَسْتَرِ خَلْفَهَا، وَكَنْتْ أَدْعُي جَهْلِي بِمَكَانِكَ حَتَّى تَسْعَدِ، كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى جَاءَ صَبَاحٌ، ذَهَبَتْ فِيهِ لِأَبْحَثَ عَنْكَ خَلْفَهَا فَلَمْ أَجِدْكَ، جَلَسْتَ أَنْتَظِرُكَ، حَتَّى بَرَزَتْ مِنْ خَلْفِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْكَبِيرَةِ وَأَخْرَجْتَ لِسَانَكَ.

ابْتِسَامَ مُوسَى فَأَرْدَفَتْ:

. كَنْتْ تَنْطَنِ خَدَاعِي وَقَدْ أَدْعَيْتَ الدَّهْشَةَ، لَكِنْ عَقْلَكَ لَمْ يَفْطُنْ وَقْتَهَا أَنْ فِي ذَلِكَ الْوَادِي لَمْ يَكُنْ هَنَاكَ إِلَّا، تِلْكَ الشَّجَرَةِ.

قَالَتْهَا ثُمَّ أَسْدَلَتْ قَلْنَسُوْتَهَا وَرَكَبَتْ جِمَارَهَا فَرَحَلَتْ. نَظَرَ مُوسَى لِلصَّخْرَةِ ثُمَّ لِنَجْوَمِ السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ طَرِيقَهِ إِلَى خَرَابِ الْمَنْبُودِينَ.



♀

♀

♀

في اليوم التالي وقف موسى وهارون أمام القصر الذي أغلقت أبوابه فزعاً، نادى في الحراس بأنه يريد مقابلة الملك، لم يجرأ أحد على إجابتته فضرب الباب بعصاه مرات ومرات:

إن لم يقابلني فسأترك العصا عند الباب.

بعد دقائق فتح أحد الحراس كوة بالباب فاقترب موسى، تلجلج الرجل ثم قال:

سيكلمك الملك من الشرفة الغربية المطلة على النهر.

هز موسى رأسه ثم سار بأخيه غرباً جذاء سور القصر.

الشرفة الغربية كانت تطل على فرع النهر، مساحة واسعة تقع فوق السور على ارتفاع عشرين ذراعاً، تطلّلها شمسية كبيرة وعرشة عنب متسلية الأغصان، وتمثالان كبيران لـ«إله سبت» على الجانبين، هامان وقارون وشيوخ العشائر كانوا مجتمعين، استدعاهم فرعون منذ خرج موسى من خرائب الإسرائيليين، خرج عليهم ولم يكن النوم قد زاره في الليلة السابقة، محتقن العينين ثائر النفس يحتسي مزيج اللوتيس لتهدا نفسه وتسبح في الأحلام، قاموا تبجيلاً وانحنوا حين حضر فلم يلق سلاماً، جلس ثم أشار لهم فجلسوا، عدا كبير قبيلةبني عَبِيل.

قال:



. لقد جاءت رسلي بالأخبار من عند صاحب الثعبان، عرضاً عليه الذهب والفضة نظير رحيله أو تسليم العصا فوجدوه راسخ العزم عصبي المزاج لا تثنية الكلمات. أغلق الباب في وجههم فاختلوا بهارون أخيه الذي قال إن رحيلبني إسرائيل أمر لا يقبل المجادلة.

أردف كبير قبيلةبني عفار:

لم لا نتركهم فيخرجون من بيننا وراء ذلك الفتى؟

وعقب كبير قبيلةبني نظرون:

. ما هم إلا وباء، ستأكلهم شمس الصحراء أو تقضي عليهم قبائل الشرق.

صاحب فرعون:

أنتما قبيلتان من الخصيان، تريدونني أن أترك الفتى وقومه الأراذل ليفسدوا أرضي ويفكوا تحالفنا؟

ثم قام فرسن إباء فخارياً كبيراً فكسره:

. أفيقوا.

قال هامان:

. ندبح الأعناق حتى نستأصلهم.

وعقب كبير قبيلةبني خبر:

. ما رأي كبيرهم؟

قال قارون دون أن يقف:

. ليس لي فيهم إلا عمال مناجم الفيروز، أما الباقيون فلا دية لهم، ولكن ماذا عن الثعبان؟ وذلك النور الذي



يَضِيءُ يَدَهُ؟ أَخَافُ أَنْ يَصِيبَنَا الْمَوْتُ أَوْ تَطَارِدَنَا لَعْنَةً.

كَانَ ذَلِكَ حِينَ دَخَلَ الْحَاجِبُ وَأَسْرَ فِي أَذْنِ الْمَلِكِ بِكَلْمَاتٍ دَفَعَتْ بِالدَّمَاءِ إِلَى وَجْهِهِ، نَظَرَ إِلَيْهِ فِي ذَهُولٍ ثُمَّ قَالَ لِلْمَلَأِ:

إِنَّ الْفَتَنَى وَأَخَاهُ يَقْفَانُ بِالْبَابِ.

ضَرَبَ الاضطرابُ الوجوهَ وَتَمَلَّمَتِ الْمُؤَخَّرَاتُ عَلَى الْكَرَاسِيِّ، يَرْمَقُونَ مَلَكَهُمْ وَيَنْتَظِرُونَ قَرَارَهُ، نَظَرَ لِلْحَاجِبِ وَقَالَ:

اَصْرَفْهُ، لَا، اَنْتَظِرْ، دَعْهُ يَأْتِي مِنْ خَارِجِ الْقَصْرِ، لِيَحْدِثَنِي مِنْ تَحْتِ الشَّرْفَةِ.

قَالَ هَامَانُ:

مَاذَا يَرِيدُ؟

سَلَّتْ فَرَعُونَ رَمْحًا مِنْ يَدِ حَارِسٍ:

الْخَنَازِيرُ تَتَبَعُ مَصَانِرَهَا.

صَاحَ هَامَانُ:

نَعَمُ، وَلَنْسَتِدُّ الْجَنْدُ فَيَمْثُلُوا بِجَثَتِيهِمَا.

هُنَا قَامَ حِزْقِيلُ الَّذِي لَمْ يَجْلِسْ مِنْذَ بَدَائِهِ الْلِّقاءِ:

أَتَقْتَلُونَ الرَّجُلَ لِأَنَّهُ اخْتَارَ رَبَّ الْجَبَّارَيْنِ؟

قَالَ فَرَعُونَ:

لَأَنَّهُ كَاذِبٌ، أَلِيْسَ لِي مَلْكُ مَصْرُ وَأَنْهَارِ إِيجِيْتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي؟ إِنْ كَانَ لِلْجَبَّارَيْنِ إِلَهٌ فَأَيْنَ هُوَ؟

لَقَدْ جَاءَكُمْ بِآيَاتِهِ.



. ساحر كذاب.

. إن كان كاذباً فعليه كذبه.

. قال كبير قبيلةبني نعيف:

. قول لا بأس به.

: صرخ فرعون

. أتريدني أن أعفو عن ذلك المُهين مُضطرب الكلام؟

. إني أخاف أن يطولنا ما طال آباءنا، أنسيتم قوم نوح وعاد وئمود؟ وقد قال يوسف صاحب الخزائن يوماً نفس

. الكلمات ثم قُتِل... .

. على أيدي المنبوذين.

. ولم يبعث الله رسولًا منذ ذلك الحين، الآن يأتيانا ذلك الفتى فنستهين بما يقول؟

. ما أشير عليكم إلا بحكمة القمر والصراء، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

. قال حزقييل:

. لتقروا كلماتي يوماً.

قالها في اللحظة التي التقط الجموع فيها صوت الطرق المنتظم، طلوا برسوسيهم من الشرفة مُزدحدين، قبل أن يفسح لهم فرعون بطرف الرُّمح، لمحوا فوسى يسير أمام أخيه، يضرب السور بعصاه في طرق منتظم، أصابهم الوجل وتهدّج الأنفاس، يرمقون الأخوين بفزع بدا في ملامحهم كلما اقتربا، فلت من موسى ضحكة:

. عصا الغنم أخافت الرُّعَاة.



أجابه هارون:

عصا الغنم لا تخيف إلا الغنم.

اقتربا حتى وقفوا تحت الشرفة، رفع موسى صوته:

الخوف لا يضرب إلا صدور الكافرين.

ألقى فرعون رمحه فاستقر على بَعْد أذرع من موسى:

سيشّق الرمح التالي صدرك إن فسّت كلماتك رءوس العشائر.

لا أتحدث إلا إليك.

قل لي إذن، كيف كان صوت إلهك؟ أكان يشبه صوتي؟

الراعي يتحدث إلى العقل.

المجدوبون يدعون اتصالهم بالسماء، تأتיהם العلة حين يقضون الليل في الخلاء، مثلك، ولكن ماذا عن هارون؟ هل يكلمه رب المزعوم أيضاً؟

قال هارون:

من ازدرى الراعي ورسله ثاب سعيه وهلك.

كم أنا مشفق عليكم، فمن جميع قبائل العماليق لا تختاران إلا المنبوذين فتطلبان خروجهم!

ذلك أمر ربي.

دع ربك يقول كلماته أو يرينا جسده أو أطراقه، إنني أدعوه إلى وليمة.

قال موسى:



. ومن الذي أخرج الزرع وخلق الماشية التي ستقدمها في الوليمة؟

قال فرعون:

. روح رب القمر والصحراء التي تسكن جسدي

عقب هارون:

. لم لا تخلق لنا الآن ناقه أو عجل؟ أو تحيل ماء النهر حمرا؟

لم يجرؤ أحد من الملا على النظر في وجه فرعون، صمت للحظات ثم قال:

. ولم لا تحيل ربك المزعوم ذلك الماء حمرا؟

نظر إليه موسى بصمت حتى ضحك الملا. أردف فرعون:

. هيا، إنني أنحدأه أن يربينا قدرته.

تلقي عقل موسى الصوت فأغمض عينيه للحظات، ثم فتحهما ورجع للوراء خطوات، رفع عصاه فوق المياه الجارية ونظر إلى فرعون:

. لقد قبل الرب التحدي.

وضرب بعصاه سطح الماء الجاري، رجع فرعون للوراء خطوة، ينظر لموسى وعصاه، وللنهر الذي لم يحدث شيئاً، ساد الترقب لحظات قبل أن يرفع فرعون صوته:

. لعل الشيخوخة طالت إلهك فضعف سمعه.

صاح قارون:

. اذهب يا ابن عمران، فبطن السوء التي أنجبتك لن تحمل روبيتك، سودت وجه إسرائيل يا كاٍل البشارة.



نظر موسى لهارون بعينين سبح فيهما الغضب، قال من بين أسنانه:

. عابد العجل يسب أمنا، سامِرْقَ أمعاءه إن طالته يداي.

. اهدأ يا أخي، فقباع الخنازير لا يرد عليه.

قالها ثم التفت لقارون:

. وإن الرب لا يحب الخائبين.

عقب همامان:

. سنتبع نسيك ونسلك حتى نفنيهم عن بكرة أبيهم.

التفت موسى لهارون ثم هز رأسه:

. هياً بنا.

إلى أين؟

. إلى مكان لا يطوله الماء.

صاح فرعون:

. إلى أين يا سحرة السوء؟

لم يُجبه موسى، ابتعد ومن خلفه هارون. ضرب الضحك جلساً الشرفة ورفع فرعون صوته:

. أخبر إلهك أن الدعوة قائمة، وأني لا أنام، وبلغبني إسرائيل السلام، أخبرهم أن بقاءهم في الجلف لم يكن يوماً اختياراً، فالدبابير التي تغادر أعشاشها تقتل.

انحرف موسى وأخوه عند زاوية السور فالتفت فرعون للملأ:



بل انتظر حتى يقابلا أهليهما بالخيبة فينفجر الخوف فيهم، ساحاصل خرائطهم وأحرقها على أهلها، ولتستبدل عمالك يا قارون من قبيلة أخرى، ستكون أنت آخر إسرائيلي على قيد الحياة، والمفارقة، أنت لا تهوى النساء.

ضحك قارون واهتز شحمه قبل أن تنقلب سحنته حين نظر خلف كتف فرعون، رفع سبابته:

النهر.

التفت فرعون فوجد الماء وقد انحسر، تراجع حتى ظهرت الأرض من تحته، نظر الملا بعضهم إلى بعض وإلى فرعون الذي تابع السمك يتلوي فوق الطمي، ثم اقترب من السور فتدلى، يحدق في النهر الذي تعرى، قبل أن يلتف للملا الذي ضرب الوجل قلوبهم وتعالت أهتممات بينهم وتخبطت الأرجل:

لقد سحر الملعون ماء النهر.

قبل أن ينهي جملته التقطت الآذان هدير مياه، موجة كبيرة اقتربت باندفاع، تحمل فوقها أحشاب قوارب، بقايا منازل وأسماكاً نافقة، ضرب الهلع صدور الحاضرين وتعالت أصوات الحراس، يأمر بعضهم بعضاً بغلق أبواب لم تمنع اندفاع الماء إلى أرض القصر وجنباته، تأمل الملا عرباتهم والخيول تنجرف قبل أن يفروا ناحية الجبل محتمين، يرمرون الناس على الصفا، يبتعدون في يأس، يطاردهم الماء مكتسحاً البيوت والمواشي من حولها، صرخ فرعون فيمن حوله وركل الحراس ركلًا، ثم صعد إلى قمة قصره ليتابع أبنيته التي غرقت، الخيول التي نفقت، منازل عشيرته التي تسأوت بالأرض، تماثيله التي سقط اثنان منها وتصدع الثالث، صعد الناس فوق



النخيل يستغيثون، وبدأت الجثث في الطفو على سطح المياه الغاضبة.

عند الغروب ضعف اندفاع الماء، علِم فرعون أن النهر قد أغرق هواة وما حولها، شرد عشر قبائل يدينون له بالولاء وأغرق بهائمهما، أُسْقط ساقية قصر قارون العاملقة وتخلَّل الغرف الفخمة، في طوفان لم يطال أرض جasan العالية التي سكنتها العبيد والأرذل من بني إسرائيل، أمرَ عماله بتوزيع الأغذية والأقمصة على المشردين الذين صعدوا المرتفعات، وقع في شرفته يطحن الضروس ويتابع الماء المندفع، حتى أسرقت الشمس عن مشهد صادمٍ: هواة غارقة حتى مستوى صدور الرجال، يعومون عموماً وسط صرخات تأتي من كل صوب وعوبل يصم الآذان، الأرض تجاهد في شرب المياه، الابتهاالت ترتفع إليه كي يرحم شعبه من غضب لا يعرفون سببه، لا يجرؤ على إبداء الأسباب أو تبرير غضبة ليس لها دافع، كما لم يملك أن يجبر النهر على التراجع أو الانحسار، يقاوم السخرية التي تحرق صدره، فالحائط الذي أمر ببنائه ليعزل أراضي الإسرائيликين وذرائبهم هو ما حماهم من بطش المياه، ولم يجرؤ على كسر الحائط لتندفع المياه فيخرج الثعبان عائماً ليلتهمه، ضرب الحائط بسيفه وحطَّم الأثاث قبل أن ينظر لمراة من الفضة انعكست فيها صورته:

«ذلك الذي أتى من العدم بثعبان فَبَيْنَ وَيْدِ مُضيئَةٍ كَانْ جَرَوا صَغِيرًا في قصري يلهم بين الأقدام، كيف تجرا؟  
كيف أظهر السحر الجيبي في قصري؟ اللعين أحيا ثعبان الجماية الذي يعلو تيجان الجيبيين، الثعبان الذي كسرته جنودي على رأس «سكنن راعي»، أ تكون تلك هي النبوءة التي أتنى في المنام يوماً؟ نهايتي على يد طفل يولد في ظل حكمي؟ في بيتي كيف لم أتبه؟ لم لم تهرسه عربتي يوماً أو تأكله سباعي؟ لأنني أطعنت زوجة سقيمة وطفلة برقاء، أخذت مائي فأصبحت من بعدها عقيماً، وحيداً على عرش تتربص به القبائل وتحفي خناجر الغدر، فالملعونون قبلوني إلها ليحاصروا عرشي، يسجدون لي بقلوب ساحرة ونظارات شامته، يستخفون بي ويتحينون ارتخاء ذراعي».

ضرب المرأة فكسرها:

«لن أسمح لهم، ولن أسمح لثعبان أسود أن يهزِّم رب الأرباب».

في الأيام التالية ازداد الأمر سوءاً وتواتت النكبات، تفسخت أجسام الموتى وملايين العفونة هواء المدينة، ربط



والفجوات التي تثقبها، كنت أظن أنني سأرى عين الإله تطل منها أو أصابعه تمتد، حتى راودت نفسي يوماً أن ألقاه، فعلى أن أعرفه ويعرفني، أو يلعنني ويُسحق عظامي فتكف الأسئلة في رأسي، انتظرت الليل أن ينزل وتسقط الجبل فدخلت فجوة صغيرة قادتني إلى نفق مظلم، جثوت على أرضه ورفعت يديّ مبتهلاً بالأسماء التي أعرفها، منتظرًا لإجابة، انقضت الساعات والخوف يملأ جنبات صدري، صوت الريح ينفر جلدي وعواء ذئب ينفض ظهري، قبل أن أفتح عيني بحذر، ولم أجد شيئاً، قمت، مشيت فتعثرت في بقايا عظام، ثم تجرأت فرفعت صوتي في الفراغ: «رب، رب الجبل، رب السماء، جئت إلى مسكنك لأعرفك، دعني أراك حتى يطمئن قلبي، أو أقبضني إليك فلا أطلع لذلك الجبل الذي خلب لبني واستحوذ على عقلني، إن كنت موجوداً فأصدر صوتك، قل شيئاً، تذمر، هز جبلك بغضب، إن كانت لديك رسالة فرسالها، أو تراء لي فأنت هيئتك لقومي لعلهم يعبدون، أتعرفان ماذا حدث؟ لم يحدث شيء! أسرقت الشمس فلم ألا التراب والعظام الباقي، حفرت اسمي بسکیني على حجر، ثم نزلت من الجبل قاصداً الإجابات الشافية، حتى وجدتها عند شيخ تخطى المائة عام، قال لي يومها: «يا فرعون، إن حكايات الآباء الأولين تحكي لتخيف الأطفال، والكبار الذين ينورون فساداً، إنما الرب يعيش فيك، بداخل صدرك وراسك، أنت الخالق والمخلوق، القوي والضعيف، أنت الفاعل والمفعول به، إلى أن يتجلّى الله من العدم ويظهر عليك فتسجد».

قال موسى:

ها هو قد تجلّى وبعث إليك بالآيات.

عن أيِّ إله تتكلّم؟ إله يُبَيِّد عباده ويُغرقهم بالماء والمرض؟ ذلك ليس بإله، بل شيطان يفسد القرى ويفرق بين القبائل، أثبتنا لك أنه موجود، ليظهر بجسده في تلك القاعة، أو في الخلاء إن كان ضخماً، أو ليتحدث فأسمعه، أم أنه خجول لا يستطيع؟

نظر موسى لهارون الذي أجاب:

الراعي قادر على كل شيء.



لِمَ لَا يقتلني إذن؟

لا يسأل عن حكمته في بقائك، ولكل أجل ميعاد.

تلك إجابات العاجزين.

أرنا قدرتك إذن، روض النهر الغاضب، أقشع السماء التي امتلأت جرادة، وأؤمر الضفادع والأسماك فتكتف عن التكاثر، وأرجع الماء شفافاً كائساً كما كان.

بُهت فرعون، نزل الدرجات فاقترب منهما غير عابئ بعصاة موسى أو يده، وضع قوسه على الأرض ورفع قناع العجل عن وجه ملأته البثور؛

إِلَهٌ يَعِيش خلف ذلك الوجه الذي أفسدَ سحركم.

قال موسى:

اتركبني إسرائيل لتغادر الأرض فنتركك في سلام.

لم أعرف التهديد يوماً ولم ينزل مني وعيد، فجندى سياكلون المنبوذين إن أمرت كما يأكل الجراد الزروع.

قال هارون:

ألم تر ما حدث لصاحبك قارون ولداره؟ وقف في شرفته بغزور، نظر للسماء وتحدى الراعي فتصدعت الأرض من تحته وخُرِّ البناء فانكسفت به الأرض.

قارون كان خنزيراً غبياً، ترك قصر رب القمر واحتمى بقصر البشر.

لتبقى على عرشك، ولترحل بنو إسرائيل.

إن خرجمت بنو إسرائيل انفرط العقد، ستتجراً الأحلاف أن تنفصل أسوة بقبيلتكم.



. ذلك أمر ربّي، ودين في رقبة الرّعَاة عليك تسديده.

. تلك ليست كلماتكما، تلك كلمات فتى «واست» صاحب الأسد، بعد مقتل أبيه وأخيه يخوض معركته بالسحر بدلاً من القوس والفرس.

. إنَّ ملْكَ الْجِبَابِيُّونَ الطَّوْفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقَمَلَ وَالضَّفَادِعَ لَأَرْسَلُوهَا قَبْلَ مائَةِ عَامٍ.

. وإن لم أذعن لكم؟ سيفقتل ربّكم المزبد من الناس؟

كَزْ مُوسَى أَسْنَاهُ:

. كأنك تعبا بهم وقد فرقت بينهم وقتلت منهم!

. أقتلهم كي لا يقتلوا بعضهم.

. وتحبّل زوجاتهم كي يحمدوك؟

. أنتما تريدان ذلك العرش، ليقول الناس إن فتبي الخرائب أخضعا فرعون؟

. إنَّ خَضَعَتْ لِلرَّاعِي خَضَعَتْ النَّاسُ لَكُمْ، وَلَا نَبْغِي إِلَّا الرَّحِيلُ فِي سَلَامٍ.

. سكت للحظات وأطرق برأسه للأرض ثم قال:

. اكشفوا سحركما فأرسل معكمابني إسرائيل.

. نظر موسى لهارون ثم هزَ رأسه:

. سنبتهل للراعي رفع عذابه، وسنمهلك ثلاثة أيام حتى تأمر برحيلبني إسرائيل.

. رفقهما فرعون للحظات ثم أسدل القناع فوق وجهه وانسحب.

. خلال ثلاثة أيام انقضت الغيم وأرسلت الشمس أشعاعها فجفت الأرض، عاد النهر لسريانه المنتظم وتسللت



الطيور والكلاب بأكل الصفادع والأسماك النافقة، ورجع الناس للأسواق يفترشون بضاعتهم ويتحاورون في أمربني إسرائيل وفرعون، فتحاشين الاقتراب من منازل المنبودين التي تأوي موسى، الأمير المتمرد الذي اجتمع مع أخيه برعوسبني إسرائيل ليقتربا عليهم طريق الخروج إلى الشرق، ترك موسى لهارون الكلام، فهم يعرفونه وهو يعرفهم:

لقد اتّخذ أخي طريقة منذ عشر سنوات إلى الشرق، يُعرف مسالك الوديان والطرق الممهدّة، سنتجه بعدالالتفاف حول اليم جنوباً ثم للشمال الشرقي فوق البحر، ثم ننتظر أمر الراعي.

تبادلوا النظارات في وجوم ثم قال كبيرهم:  
انتظار أمر الراعي كان تطار المطر في ميعاد، لن يصبر الأطفال والنساء والعجائز.

الراعي لن يتركنا بعد ما أمرنا بالخروج من الأدلاف،  
نقدر الآيات التي أتيتنا بها ولكن...

قال موسى:

لكنكم تقبلون الذل على الخروج لأرض الرب الواسعة.  
نظر كبير العشيرة لمُوسى بغضب مكبوب ثم وجه كلامه لهارون:  
قل للأمير السابق إن عشيرتنا التي تربى بعيداً عنها عاشت في تلك الأرض مائة عام، مشينا على أرضها وشرينا ماءها، استنشقنا هواءها وقرأنا سحابها، وعرفنا، بالتجربة، أن كل من غادرها إلى الشرق، ضاعت سيرته واندثر أثره، إن كنا سنغادرها مطرودين...

قاطعه موسى متحققاً:

بل ستغادرنها محظيين، تبيعون القمر لتشتروا رب القمر.



التفت إليه:

ـ تظن فرعون سيصدقك الوعود؟

ـ قال هارون:

ـ عليه أن يواجه الراعي إن لم يصدق.

ـ وعقب موسى:

ـ وعليكم أن تواجهوا انتقامه إن رضيتم بالذل والهوان.

ـ فار وجه كبير العشيرة:

ـ من أنت لتتكلم عن الذل والهوان؟

ـ رسول الراعي إليكم.

ـ ضغط هارون على يد أخيه وتوسط المجلس:

ـ فلتغذروا أخي، فما يحمله ثقل تنوء به الأكتاف، الراعي يفضلنا على القبائل بالإيمان والوصال، أمرنا أن نخرجكم

ـ لتكونوا أحراراً، ليورثكم ما جاء به إبراهيم يوماً.

ـ أرض الفيروز؟

ـ بل بالإيمان، الملة الحنفية، ملة إدريس.

ـ ساد الصمت للحظات قبل أن يقول كبير العشيرة:

ـ والسيادة؟ ستكون لكم؟

ـ سيكون الأمر شوري بيننا من بعد أمر الراعي.



تبادلوا النظارات ثانية ثم قال كَبِيرُهُمْ:

. سناً مُرْأَةً أهْلَنَا بِالرَّحِيلِ، وَهِينَ نَامَنْ طَرِيقَنَا وَنَبْتَعِدُ عَنْ هَوَّارَةِ، سِيْكُونْ بِيَنَنَا حَدِيثَ آخِرِ.

قاموا فرحاً بلا سلام، التفت هارون لأذيه:

. كَيْدَتْ أَنْ تَحْدَثْ صَدَعَّا يَا ابْنَ أَمِ.

أَسْمَعْتَ قَوْلَهُمْ؟ يَمْنُونْ عَلَى الرَّاعِي الاتِّبَاعِ؟

. عَقُولُ الشَّيْوخِ لَا تَأْمُنُ إِلَّا بِمَا تَعْرِفُهُ.

. لَقَدْ جَالَسْتَ شَبَابَ الْعَشِيرَةِ فَوُجِدَتْ فِيهِمْ آذَانًا مَصْغِيَّةٍ وَرَغْبَةٍ فِي الاتِّبَاعِ عَنْ هُؤُلَاءِ الْمُخْرِفِينَ.

. يَجِبُ عَلَيْنَا تَجْنِبُ الصَّدَامِ، شَبَابُ الْعَشِيرَةِ لَا خِبْرَةُ لَهُمْ، وَهَامَانِ يَعْدِقُ الْأَمْوَالَ لِيَشْتَرِي وَلَاءَ الْكَبَارِ الَّذِينَ يَحْرُكُونَهُمْ، لَوْلَا خَوْفَهُمْ مِنْ فَرْعَوْنَ لَأَذْعَنُوا وَتَرَاجَعُوا.

. مَنْ يَتَخَلَّفُ فَسَيَقْنُنِي وَيَنْدَثِرُ.

لَمْ يَكُنْ يَنْهَى جَمْلَتِهِ حَتَّى ارْتَفَعَ صَوْتُ رَسْلِ الْمَلَكِ، رِجَالٌ يَسِيرُونَ فَوْقَ الْحَمِيرِ وَيَنَادُونَ بِالْأَخْبَارِ فِي الْأَبْوَاقِ؛ النَّحَاسِيَّةِ:

. يَا أَهْلَ هَوَّارَةِ، لَقَدْ صَدَعَ رَبُّ الْقَمَرِ وَالصَّحَّرَاءِ عَلَى فَرْسِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَمَرَ السَّحَابَ بِالانْقِشَاعِ، وَالْأَرْضَ بِالابْتِلَاعِ، وَالنَّهَرَ بِالسَّكُونِ، ثُمَّ أَبْطَلَ سُحْرَ ابْنَيِ عِمَرَانَ الَّذِينَ يَرِيدُانِ إِخْرَاجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمُ الَّتِي أَوْرَثَتُمُوهَا أَبَا عَنْ جَدِّهِ، فَلَتَبْتَهِلُوا لِرَبِّ الْقَصْرِ، وَتَخَافُوا فَلَا يَفْتَنُوكُمْ سُحْرُ الْجَبَيْتَيْنِ، إِنْ تَكْرَرَتِ النَّكَبَاتُ فَخَاصِرُوكُمْ خَرَابِ إِسْرَائِيلِيَّيْنِ وَأَحْرَقُوكُمْ أَفْنُوْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً، حَتَّى لَا يَزُولَ الْمِصْرُ الَّذِي وَهَبَهُ لَكُمْ رَبُّ الصَّحَّرَاءِ سُوتُخُ الْمَتَجَسَّدُ فِي قَلْبِ مَلِيكِكُمْ.

التفت هارون لِمَوْسَى:



. غدر بنا رأس العجل.

. سيشمت بنا شيوخ العشيرة.

مسح موسى رأسه ثم زفر غضباً:

. سأضرب بعصاى النهر ثانية.

. إن فعلت ستتحذّب القبائل ضدبني إسرائيل ليؤازروا إلهم المزعوم، سأذهب إلى الشيوخ فامرهم بسرعة التجهيز للرحيل.

. انتظري يا هارون، لن يترك القبيلة لترحل، هو يعلم أن في ذروجها نهاية.

. ماذا سنفعل إذن؟

ساد الصمت، ثقيلاً مقبضاً للقلب، استمعا لنداء المبلغين مرات ومرات قبل أن تلمع عينا موسى، قام مصوّفاً فلف عصاه بقماش كثيف وأخفى وجهه تحت قلنسوته:

. اذهب إلى شيوخ العشيرة وشبابها فأبلغهم أن أمر الرب قد أتي ولا تراجع، ليحزموا أمتعتهم ولينتظروا عودتي.

. أين ستذهب؟

. فتح موسى الباب وخرج دون أن يجيئه.



♀

♀

♀

وتراؤده ناديا.

مرات ومرات، تنتابه بلا ميعاد، تُمْزق خلوته وتبعثر البرديات لتعتليه، كطير يقبض على فريسته، تلتهم شفتيه قبل أن تستلقي، في حقل العنب، في البحيرة، في الخلاء وفوق الجبل، أو حتى فوق البرديات، تسقيه الغرام كألف امرأة تموح في جسد واحد، شبقة راضية، متاججة هائمة، خاضعة حرون، صارخة هامسة، من يقف في وجه الشمس حين تشرق؟

من يقف في وجه النهر حين يغصب؟

من يقف في وجه العشق إذا تملّك قلباً وتغلغل شغفاً؟

ثم تفيق ناديا...

من سكرة الغرام فتشرد، تحدّث نفسها همساً ثم تصرخ، ثم ترقص قرب النهر بعاطفة ترکّع الأشجار، حتى تتصلب عرقاً، فهي دون الرقص نحلة دون الزهر، قبل أن تنزويء إلى ركن، تجحظ عينها وتمتنع عن الرعش، ثم ينساب الدمع في صمت حتى تمسك بصدرها ألمًا وتشتكي مرضًا في القلب ولدت به، يحتويها كاي ويربت على ظهرها فتدھب في ثبات يحبس الدم في ذراعه، يتأملها وهي نائمة فيبيتسن، فساقيه عقلها لا تكف عن الدوران، والثور المائح الذي يجرها أعمى يصارع الذباب.



ثم تفيق من سكرتها فتتحدث عن الهروب والزواج وأسماء الأطفال والحب في أطراف الأرض وفي مياه النهر، ثم تأتي سيرة البرديات، ضرّتها التي لم تخف يوماً عن مراقبتها، ضرّتها التي تمنعها عن كاي، تدفعه دفعاً أن ينهي ترجمتها، أو أن يحرقها، فالبحر لن يتذكر حين يقرؤها، والإسكندر العظيم لن يعود إذا سمع عنها، واليهود لن يتركوا الإسكندرية إذا انتشرت سيرتها بين الناس، اترك البرديات في المعبد لكاهن يكملها، فلم تخلق للكهانة بل خلقت لحضني، لنرحل إلى المستنقعات، نلقى أبي فيباركنا، ثم نتجه جنوباً، إلى الصعيد، نسكن بجانب النهر وندير حانة أو نزل، نشاهد النجوم كل يوم، ونمارس الحب فوق التلال وفي الغيطان وبين عيدان القمح، حتى نشيخ معها، ونموت معاً فن遁ن معها، ينظر إليها كاي ولا يعقب، يبتسم، ثم يحكى لها عن أمر النبي الرعاة فتعقد ساقيها وتنتبه، جادحة العينين كفرد حذر، تهيم في القصة كأنها تعيش أيامها، تسب فرعون وتضحك على سيرة قارون، وتتوحد مع امرأة موسى رجل السماء، قبل أن يطلب كاي الخلوة ليتمم ما عزم أن ينهيه وأقسم، تركه بعد قيلات حارة فيذهب إلى بردياته.

لتظهر عاهرتها قرب العرائش.

حبل في الشهر الأخير، تسير بصعوبة متكئة على عصا موسى، تقرب وتقترب، ثم فجأة، تسحب من ثوبها كرة ليف منتفضة فتلقيها في وجه ناديا وتضحك بصخب، ثم تزعق في أذنها: ما فتات آتيك بالغيب الذي تظننه ضرباً من العبث حتى يصيب.

إن كنت تبحثين عن السعادة لتلتهميها فارحلـي، عشق الفتى ضرب جذوره حتى حشاشة كبدـي.

إنما جئت لأبشرك، أنت حـبلـي.

ارتـعشـتـ عـيـنـاـ نـادـيـاـ

أـنتـ كـاذـبـةـ.

تأخرـتـ دـمـاءـكـ.



ذلك أمر يحدث.

نادراً، ماذا ستسمي الطفل إن صدقت نبوءتي؟

لاح التصديق على وجه ناديا فانعقد لسانها ونظرت إلى بطنها. أردفت عاهرتها:

سميه آرام، اسم الرجال، أو كاي على اسم والده، فالكافن لن يرى ابنه طالما البوصة والدواة بين يديه، لكن، ربما كان للخبر وقع مثير في أذنيه، وقع قد يقنعه بالالتفات إليك.

كاي دون الترجمة لن يعيش.

وأنت دون كاي لن تعيشني، احرقني الترجمات، دون أن يدري، حادثة سيدزن بعدها قليلاً، ثم يتوجه إليك، ستكونين محراكه ومذبحه، ستكونين قدس أقداسه.

لكنه لن يصبح كاي الذي يحب.

سيكون كاي الذي تحبين.

ألقت كلمتها ثم انسحبت، تاركة أناهل ناديا تداعب سرتها.



♀

♀

♀

. منتصف الليل.

لم يأت تلك المرة بعبيبته المعمودة، لا حرس، لا خيول ولا عربات. اقترب من الباب فقرعه قبل أن يفتح كاهن شاب، رفع شمعته فأضاءت الوجه قبل أن يفتح الباب على مصراعيه وينحدري إجالاً. تقدم الضيف حتى مسكن كاهن المعبد مختار، دلف غرفته وانتظر حتى فرغ من صلاة الليل ثم أسر إليه:

. رئيس القصر بالخارج.

لم يكدر الكاهن الصغير ينهي كلمته حتى دلف مُرْدَخَى إلى الغرفة الصغيرة:

. الكاهن الأكبر مختار.

ضيق مختار عينيه الضعيفتين:

. سيدتي، يا لها من مفاجأة.

. ليحرص ذلك الشاب على أن يُبقيها مفاجأة حتى أرحل دون أن يستيقظ أحد.

نظر مختار إلى الكاهن الصغير:



التزم الصمت، وآتنا بمشروب.

قرب مختار كرسيّا لمُرْدَخَاي ورفع فتيلة المصباح:

كيف حال الملك؟

بخير، يرسل إليك تحياته المحمّلة بالود.

لِمَ لَمْ تنبئنَا بقدومك حتى نعد استقبالاً يليق برئيس القصر؟

الأمر الذي جئتكم به لا ينبغي أن يُعلن.

ملا الاهتمام وجه الكاهن:

أرجو أن يكون ذيراً.

جنازة الكاهن الأعظم اقتربت، ولم تعلن بعد عن تنصيب كاهن للجيبيتين.

المراسلات تفيد بتنصيب «متري» نائب معبد الأسوار السبعة كاهناً أكبر.

لقد جئتكم لنسوي هذا الأمر، فالكافن «متري» تدور حوله شكوك.

أي شكوك؟

منذ سنوات ونحن نتبع أثر خائن نشك في انتماشه للسلوقيين.

ضرب القلق ملامح الكاهن:

ما تقوله أمر جد خطير.

ما قلته يجب أن يظل سراً حتى لا تضطرب قلوب الفقراء. مقتل الكاهن الأعظم، سرقة البرديات، اختفاء ذهب خزينة

المعبد!



غامت عينا الكاهن في شرود قرأه مُرَدْخَاي فالالتزام الصمت حتى غمغم:

. أي لعنة أصابت الكهانة، أي عارا تلك ليست أفعال رحال الراعي، أنا أعرف متري، تلونا صلواتنا تحت النجوم يوماً، أكاد

أجزم أن في الأمر سوء فهم، هذا رجل صالح وديع، ما كانت يداه لتريق الدم.

. بالطبع لم يتورط الكاهن متري في إراقة الدماء، فهناك كاهن صغير يدعى كاي، تولى تنفيذ تلك الفعلة الشنعاء.

ارتعشت يدا الكاهن وتهجدت أنفاسه فأكمل مُرَدْخَاي بنفس المهدوء الذي بدأ به:

. لذا كان على القصر تحري السرية والدقة في اختبار المخلصين من الكهنة لمنصب الكاهن الأعظم، تمهدياً لمسح

المعابد وتطهيرها من جرذان السلوقيين، وقد وقع الاختيار عليك لما عرفنا فيك من سيرة ندية ومن حكمة و...

بتر مُرَدْخَاي كلماته ثم استطرد:

. يجب أن نتحلى بقوة التحمل والصبر في مثل تلك الظروف السيئة.

ساد الصمت، لم ترمي عينا الكاهن اللتان تروان مُرَدْخَاي طيفاً ملؤنا بتحرك، اقترب الأذير منه وهمس:

. أم أن... صدرك يخمسه أمر لا تفضل البوج به.

ساد الصمت لحظات أدرك خلالها الكاهن أن مُرَدْخَاي لا يسأل، مُرَدْخَاي يختبره:

. البرديات أنت إلى المعبد مع بحارة في مركب، تركوها ورحلوا.

. جيد جداً، أين هي؟

. في خزانة قدس الأقداس.

فض الكاهن مختار قفل الخزانة وأخرج البرديات، وضعها بين يدي مُرَدْخَاي الذي جلس فقلب الأوراق فحصاً، أدرك بدايات

قصة موسى حتى تفاصيل «الخروج» من مصر، نظر للكاهن:



أين بقية البرديات؟ والترجمة؟

ذلك كل ما جاءنا...

لم يلتفت إليه مُرَدْخَاي، كأن لم يسمعه. طقطق فقرات رقبته ونظر في البرديات، مشي بعينيه على كلمات مانيتون:

«إنبني إسرائيل فرزوا سير رسول السماء الأقدمين واستحوذوا على نسل آدم، أول من ملك اللغة من ساللة البشر، ثم نسل نوح، استأثروا به واستبعدوا كل من عداهم من البشر. سفهوا أصولهم ولطخوا سيرتهم واستولوا على بركة إلههم المزعوم يهوه الذي ادعوا أنه أغرق الأرض كلها في حين لم يطل الغرق سوى قوم نوح، فكيف يغرق الراعي الأرض بمن عليها من أجل حفنة من العصاة؟ وما ذنب الذين لم تأتهم الرسالة؟ وما ذنب الجيبيتين الذين اتبعوا إدريس؟ لم لم يغرقوا وتغرق أرضهم؟ وكيف لمركب ما صنع قبلها مركب، أن تحمل دواب الأرض كافية؟».

لم يكن مُرَدْخَاي يرى حروف مانيتون، كان يرى اللوحة التي طالما رأها في بيت أمه، لوحة «نوح» في قاربه المستدير ورعوس الحيوانات تطل من الفتحات. طالما سأل نفسه تلك الأسئلة: كيف وضع «نوح» حيوانات الأرض جميعاً في قارب؟ هل وضع دببة الشمال ونمور الشرق وأفيال الغرب والأسود؟ هل وضع الناموس والديدان والفراسات والنحل والنمل؟ هل أغرق كل مسطح في الأرض وكل زرع؟ كيف وصف إدريس الثلاثون لم تذكر أن الطوفان قد زار إيجيبت، صحف إدريس التي ترجع إلى خمسة آلاف عام! اللعنة على مانيتون، اللعنة على راسم تلك اللوحة، اللعنة على من كتب أساطير الأولين.

مسح مُرَدْخَاي رأسه ثم اقترب:

أين كاي؟

رمقه الكاهن بصمت طال فابتسم مُرَدْخَاي ومد أصابعه إلى صدر الكاهن. أزاح بهدوء السبحة التي تتدلى من رقبته، السبحة التي تتدلى أمام القلب، ارتعشت عينا الكاهن واضطربت أنفاسه قبل أن يكبس مُرَدْخَاي باليد الأخرى على فمه بغتة ويضرب بقبضته موضع القلب، صرخ الكاهن صرخة مكتومة فأبركه مُرَدْخَاي على الأرض بهدوء حتى لا يسقط



فتنكسر عظامه الهشة، استوى الظهر المحنى على الأرض فاستعمل مُرْدَخَاي ثقله في الضغط على الصدر وسط مقاومة ذراعين فقدتا القوة، لحظات من الألم والارتعاش حتى ارتخت القبضة، تعانقت الأصابع المعروقة في وداع أخير وجحظت العينان، أسللهما مُرْدَخَاي في عطف وربت على خد الكاهن قبل أن يسوّي السبحة فوق صدره، لحظات ثم قام فأعاد المنضدة إلى قواعدها وهندي ملابسه، قبيل أن ينادي خادم الكاهن، أتى الفتى مُهرولاً فصعقه المشهد، انحنى فوق معلم فحصاً فلم يمهله مُرْدَخَاي خلق الفكرة:

. المسكين حين سمع أمر الكاهن الذي سرق البرديات وتسلل إلى المعبد لم يتحمل قلبه الصدمة، شهق شهقة أخيرة وانسابت روحه.

رفع الخادم عينيه المذهولتين في خشوع:

أتقصد كاي يا سيدي؟

ابتسم مُرْدَخَاي وهز رأسه إيجاباً.



♀

♀

♀

تسلىت تماسيخ مُرَدْخَاي لأول مرة إلى بحيرة المعبد، يجيدون السباحة دون صوت والغوص تحت الماء، حاصلوا على الخص الشببي من جهاته الأربع. قبل أن يخرجوا زحفاً شاهري سكاكيين مسنونة، اقتربوا من الأخشاب المتلاصقة فتسلىت الأ بصار ذلالها تلتمس أثر كاي، الظلمة كانت سائدة والشمعة لم تزل تصدر دخانها. قبل أن يهوي أحدهم على باب الخص فيكسره، جاسوا خلال الغرفة فلم يعثروا على مرادهم، لا برديات ولا بوصات ولا كاهن قبل لهم إنه شرس يقاوم، ضربوا بأيديهم أبواب الغرف الخشبية فأخرجوا الكهنة تحت تحديد السلاح، جمعوهم في بهو الأعمدة قبل أن يمر عليهم مُرَدْخَاي واحداً واحداً، نظر في الوجوه فلم يجد لكاي أثراً، قبل أن يميل عليه خادمه:

لا بد أنه ذهب لأمرأته يا سيدى.

قبل عشر دقائق.

بزرت المائلة إلى البياض توهّجت الجوزاء على وجه البحيرة، نجم حار فتى العمر لم يخل كاي يوماً، تعودت عيناه في جلسات التأمل رؤية النبض الثابت فيه والاهتزاز الطفيف، تلك الليلة كان الوهج يميل لصفرة غير محببة، صفرة لا يأتي بعدها ذير، نبض طويلاً متبعاد كنبض كهل يموت، تامله كاي لدقائق حتى التقط جلبة في المعبد وصوت أقدام تتحرك في همة، هناك زوار مفاجئون، تلا متن الحماية في سرّه وهو يململ بردياته من الخص، ثم ركض فتسلى من المعبد، قفز السور واهتدى بنور القمر حتى وصل عرائش العنبر، أيقظ ناديا هامساً:



.استيقظي، علينا أن نرحل الآن؟

بفزع فتحت عينيها:

.ماذا حدث؟

.تغير لون النجم.

رمقته باستنكار ولم تملّك إلا اتباعاً، سارا بخطوات ممدوحة كي تبدو طبعة أقدامهما خارجة من النهر وليس متوجهة إليه، حين بلغا الضفاف حرر كاي المراكب الراسية قبل أن يقفزا في واحدة، ضرب المجاديف بعزم حتى ابتعدا، ترمقه ناديا بوجل وأنامل ترتعش، وتتابع أعين التماسيح المضيئة التي تتبع المركب في خشوع، لم تتحدث ناديا حتى رأت البرديات بين قدميه، اعتربت جسدها رجفة ففهمست:

.أنا حبلٌ...

توقف كاي عن التجديف، وتوقف عقله عن التسبيح، سحب نفساً إلى صدره ثم نظر إلى عينيها للحظات قبل أن يكمل التجديف بهمة، رمقة لثوان ثم أردفت:

.كنت أدخل تلك المفاجأة لوقت أفضل، لكن، لا أعرف ما حملني على البوح! سيكون طفلًا مثاليًا، ابنًا لكافاهن وراقصة، يا لها من خلطة! أعتقد أن بذورك أقيمت يوم النهر، مثل النبي الرعاة الذي تتبع سيرته، أليس ذلك ساحرًا؟

كز كاي على أسنانه ثم زفر تعباً فأردفت:

.ماذا سنسميه؟ ربما عزيز على اسم والدي، لا، انتظر، أريدها أنثى، وسأسميها مليكة، لطالما أحببت ذلك الاسم،

لاحظت شروده المتعمد فبددت الصمت بضحكه عصبية:

.سأعلمها الرقص ونفح الناي، وستصير محور حياتي وأمالئي، لن أتركها لحظة، ولن أسمح لرجل بجرح قلبها.

لم يجد كاي ما يقول، فصدره متخم بالوجوم وفائض بالاضطراب رغم هدوء ملامحه، الجوزاء لم يخذه يوماً، يوم تصرف



أشعنته تصير الأحداث إلى غرابة وتخبط، إلى جنون، رصدها قبل مقتل الكاهن بأيام واليوم يتبعها وهي تأتيه بنباً  
وليد في الغيب، ابن لطربد يحمل لعنة. أردفت:

لولا البرديات التي بين قدميك لعلت وجهك الابتسامة التي أعشقها.

لنؤجل فرحتنا حتى نصل إلى برآمن.

قمت من فورها فرحة فاحتضنته وقبلت شفتيه حتى مال المركب، توقف عن التجذيف وتركها تنهي ما تفعله حتى  
عادت لمكانها بابتسامة واسعة، وعينين لا ترمشان.





حين علم فردخاي باختفاء كاي وفتاته حمل بنفسه جسد الظاهر مختار، سجاه بالكتان الأبيض فوق سريره، وأمر بتحضير الجسد لجنازة تليق به، ثم ضم برديات مانيتون بالحزام ودلف إلى الخص الخشبي الذي سكنه كاي قرب البحيرة، جلس على كرسي من القيش وسحب نفسا طويلا فاشتم رائحة الفتى الجيبيتي، تفقد دواة الحبر والبوصة التي تركها في عجلة، أمسكها بيده ولامس الحبر الأسود ففركه، ثم تفقد العلامات والأرقام على الجدار، علامات تنظيم الكتابة وعدد الأيام، الفتى يكاد ينهي ترجمته، ملحمته، ترك البرديات الأصلية في خزينة المعبد لكنه احتفظ ببردياته، لم يعد يؤمن بأحد، لا بكمونة المعابد ولا بآله المعابد، «كم يعجبني إصراره، يدهشني، يذكرني بنفسي حين كنت أجمع قصاصات التوراة من الصدور والبيوت لحفظها في بيتنا لحين يأتي الوقت للنشرها في هي بلقي بها، كنت أجمعها في صندوق خشبي يشبه النعش في بيت راعوث؛ أمي الفاضلة التي لم تذخر وقتا ولا جهدا لرفع شعبينا المقدس في السماء، الملعون في الأرض، من عبيد الأرض، كنت أفعل مثلما يفعل ذلك الجيبيتي، أجري كان الأسود تطاردني، فالمعابد فقدت قدسيتها، ووهن حراسها، تخروا عنها كما تخلى الإله عنها، هجرها من أجل الإله اليونانيين، وسيعترضها الإله اليونانيين من أجل الإله آخر، فحرروف البرديات المقدسة إما تستحيل توراة يسيرا وراءها شعب يستحق نعمة الإله، وإما قصصا شعبية وما ثار متوارثة تحكي على آذان الناس فيذكرون بها مجدًا لن يطأولوه، ولن تزيدهم إلا تخبطا وجنونا، قبل أن تمتد يد الحذف والإضافة والتحسين، لتحول الكلمات إلى أوعية جوفاء، فتفقد قدسيتها وقيمتها، في صدور أصحابها»...



زفر مُرْدَخَىي بصبر، تأمل الورود التي زينت النافذة الصغيرة، والقماشة الموضوعة تحت مخدّة الفراش، التقط منها شعرة أنثى فاحمة واحتسم عرقاً شهياً، ماءً عذباً يأثر الرجال «تلك أصعب ابتلاءاتك أيها الكاهن المسكين، أن تأتيك الدنيا بين فخذَي امرأة، تسقيك رحيقها حتى تتملّ، تصير إلهك الذي تعبد، حتى تغيب شمسك فتسقط، في هاوية لا قرار لها».

ابتسم مُرْدَخَىي وضم برديات مانيتون وغادر الخص.



♀

♀

♀

في الطريق، وبين معبد «أون» والمستنقعات، أوى كاي وناديا إلى قرية نائية استطعما أهل بيت فيها فضيقوهما، أكلا بنهم وحكيما قصة مزيفة عن رحلة عودة مزعومة لسمنود، ثم ظهرت ابنة صاحب البيت، فتاة ناهدة، جميلة باسمة وإن كانت لا تشبه ناديا، صبت اللبن لهما ووضعت الفاكهة فأثنى كاي عليها أدباً، ثم طلب منها حبراً فاعتذر، فهم أهل بيت لا يعرفون الكتابة، خرج كاي من البيت فبحث بعينيه في الحقول حتى وجد شجرة «سنط» باسقة، مسح من جذعها الصمغ وخلطه فوق نار بهباب إناء طبخ، حتى صار المزيج حبراً تشربه البرديات، التقط من الأرض بوصة، شدّ بها بسكتنه وشرع في العودة للبيت الذي آواه حين وجد ناديا واقفة وسط الحقل، تهتز ساقاها باضطراب والحمد من عينيها تتطاير، اقترب:

. ما بك؟

. أعجبتك ابنة صاحب البيت؟

. ماذا تقولين؟

. رأيت الشغف في عينيك، أثنيت على الطعام وعلى اللبن الذي قدمته، كأنها أخرجته من ثدييها!

. ضحك كاي من قلبه:



. أيتها الغيور! كيف النظر إلى غيرك وعشقك يملؤني؟

أزاحت يده بغضب:

. لقد ابتسمت لها ثلاثة مرات وابتسمت، أجدكما منسجمين.

. ليست في جمالك؟

. لم؟ فهي بيضاء وثديها ناهد، تجيد الطبخ وصوتها رقيق حين تغنى بالكلمات لابن شقيقتها، العاهرة كانت تثيرك.

. ناديا الفتاة ليست عاهرة، لم تتعد ما للضيوف من حق إكرام ولم تتعذر حدود المجاملة.

. ما بالك اغتنست حين قلت عاهرة؟ لأنها ابنة لأب يرعاها وأم حنون؟ لأن لها بيتا له سقف وباب يحميها؟ أم لأن شعرها  
ناعم؟

ال نقط أنا ملها:

. ناديا، لا أرى إلا سواك، إن اشتعلت بي رغبة فلم أكن لأظهرها أمامك.

. لقد رأيت بعيني كيف تنظر إليها، تحاد تلتهمها.

. هذا لم يحدث.

تقلىت أنا ملها بغضـب:

. وشقيقتها أيضاً قد لاحظت، نحن النساء نفهم بعضنا بعضاً من نظرة عين، أما الرجال فهم الرجال، تظنون أنفسكم  
أسوداً وأنتم الضباء... .

. ناديا، احذري يا حبيبتي، فإن غضبي داكن كلون شعرك.

. الآن تهددنـي!



بل أحذركِ مغبةً أن تثيري بركاناً خاماً.

بركان! ما أنت إلا كاهن بارد المشاعر، ساقضي ليلى في ذلك البيت، وسأتسلى برؤيتك وأنت تنهل من ابتسامات  
بيضاء البشرة.

وأندفعت مغاضبة إلى البيت. وقف كاي في الحقل لدقائق محاولاً تهدئة أنفاسه التي تهدجت، وإطفاء النار التي  
أشعلتها ناديا بلا داع في صدره. استيعاب تلك الروح النارية لا يخلو من حريق للقلب والعقل، فهي الماء والنار معًا.  
والناس عندها إما أحباء أو أعداء. تابع مشيتها التي تهز كل ذلية في جسدها حتى أغلقت الباب في غضب، استدار  
مبعداً، حتى إذا أتى الغروب أوى مختنق الصدر إلى مذود البقر، تنحى في ركن فأشعل الخطيب وشرع يكمل ترجمته  
حين اقتربت ناديا كقطة ذمرية، قطة دائفة تتسلل، نظرت إليه للحظات ثم جلست فكومت ساقيها ودفنت جسدها  
في حضنه، قبل أن تغط في سبات عميق. تأملها كاي للحظات ثم قبل مفرق شعرها حين لاحظ خطأً جديداً، تحت  
ثنصرها في طرف الكف، خطأً غائراً لم يره حين كانت تحت آرام، لم يكن ذلك الخط سوى حفر لاسمها في قلبها، رفع  
كفه ولنظر لنفس الموضع مقارنة، فوجد خطأً يماثله، له نفس الانحناء ونفس العمق، ذلك خط ناديا. رغم الوهن ابتسماً،  
ثم وضع قلم البوص على الورق وشرع يترجم:

ها أنا أخرج منكِ مرةً أخرى يا هؤارة.

يا عوازة.

يا مدينة الظلم والجبروت.

يا حرفاً في قدس الملوك.

لا تسأليني لماذا ضاق صدري وتحجر لسانني.

لماذا كرهت أرضكِ التي سار عليها جدي، ولماذا ماتت الأمانى.

صدقيني.



لا أحمل ضعينة.

سوى أنك أسلمت نفسك رهينة.

للغرور.

للسقوط.

للفناء والثبور.

فصرت مهينة.





الزئير كان هادراً، سمعه حرس الأبراج وصيادو البحيرة الشمالية فتبادلوا النظرات، ثم ترجموا على ملكهم الراحل وأبيه من قبل، فالحزن هازل يملأ الصدور والغيل ينعشها نعش الضياع، فمن شهد المعركة حكم الآخرين، الملك الشاب: كامس، ابن سقون الراعي، بعد ظفر على جيش فرعون يسير بين أسرى الرعاة، يتأملهم، يلتقط بعض أقواسهم ليفحص صنعتها، وينظر في الأعين والأطراف، والغائط المتختلف منهم، ثم يملي لكاتبه ملحوظات، فلون الأعين يفصح الأمراض، والأطراف تكشف سير الدماء في العروق والقدرة، أما الغائط فيشير لنوعية الطعام وطبعاته قضى الساعات في تفقد الجرحى ثم اقترب من الموتى المكذبين ليفحص أصحاب المقاعد منهم، وإذا بجسد يتحرك، في سرعة عقرب، بلا نذير، يغمد الخنجر المسنون في فخذ الملك الذي تراجع خطوة فهو بسيفه على رأس الغدر ففصلها، ثم نظر لجرحه، وللدماء التي فاضت على ساقه، سبّ رب الرعاة ثم سقط، حمله الحراس إلى مقعد مريح تظلله شجرة، وجاء طبيب، قبل أن ينظر في الجرح هزّ الملك رأسه في يقين، الجرح عميق، طال عرق الحياة في الفخذ، مسألة وقت... قبل أن تنحدر الشمس ارتحت القبضة، بين يد أخيه الصغير الذي ولد في وقت العمال فسمى باسمه: أحمس، بكى أخاه الأكبر ثم دفنه، ودفن معه خنجره، ثم اعتلى العرش ولم يبلغ العشرين، بعد أبو وأخ قصمتهم المنون، تؤازره أم مكلومة اسمها «إياح حتب»: أي قمر الزمان، فقدت حبيبها فخافت المعارك من فوق العربات خلف بكريها، ضد رعاة الشمال، تسترجع قطعة أرض فتعود مستبشرة، تسبقها الأخبار الحسنة، ليتهلل الناس حين يرون موكبها وابنها فيهتفون باسمها «وحوي وحوي، إياحة»، أي مرحباً مرحباً بالقمر، ثم يغتال بكريها، فتخرج «إياح حتب» للناس بزيها الأبيض



وعقد الفيروز، تبتسم بعينين دامعتين، تحمل اللوتس وتفرق أقماع العطور، وتضع ابنها في قبره، ثم تلتفت لأخيه الأصغر فتضع التاج على رأسه وتأمر الناس بالدعاء، من القلب.

لم يكدر الحاجب يقرأ الرسالة التي أنتهت من الحراس حتى خرج إلى الطرقة التي تنتهي بغرفة الملك، سار على البلاط الملمس حتى بلغ الباب فطرقه مرتين، التقاط صوت السلالسل تكيل عنق الأسد ثم أذن له بالدخول ففتح الباب وكان الملك يفحص أنبياب الوحش الرابض.

لقد أمسك الحراس بعين من أعين الرعاة.

دون أن ينظر إلى حاجبه أجاب:

.أثنتني به.

هنا؟

نعم، فربما رغب الأسد في وجبة تخفف ألمه.

حين انفتح الباب عن الأسير هاله المشهد، الملك الذي يتrepid اسمه في هوارة يجلس القرفصاء ليداعب أسدًا هائل الحجم داكن اللبدة غزيرها، لم يبدِ كما وصفته رسول الجزية، فهو متواسط الطول خمري البشرة واسع العينين كثيف الحاجبين رقيق الشفاه، وشعره أبعد قصير، فرغ من فحص أسنان الأسد ثم التفت إلى الأسير المكبل، تأمله للحظات طالت ثم أمر حراسه وال حاجب بالانصراف،

ما اسمك؟

فوسى بن عمران.

من أين جئت؟

من هوارة.



تتكلّم الجيبيّة بلّكنة أهل البلد!

تعلّمت الحِكمَة في معبد «أون».

ما الذي أتي بك إلى وَاسْت؟

جئت إلى وَاسْت، رَسُولًا.

قام الملك من رقدته فاقترب بيد تقبض على طوق الأسد:

لا يكُفُ الخنزير عن مُفاجأةِي، يقتل أخي ثم يبعث الرسل بالشروط.

لستَ برسول من فرعون، بل أنا رسول له.

رسول له ممن؟

من راعي السماوات والأرض.

حَكَّ الملك ذقنه ثم ابتسَم:

هل تعرّف عدد أسنان الأسد؟

نظر إليه موسى ولم يعُقب، قبض أحمس على فك الأسد ففتحه ثم أردف:

للأسد ثلاثة سنّاً، تلك الأنابيب الكبيرة يقبض بها على فريسته، يخنقها حتى الموت ويُمزق لحمها، وتتوالى

تلك القواطع اخترق الجلد وقطع العضلات وفصلها عن العظام، ليبتلع اللحم في كتل كبيرة، فلا وقت

للمضغ، لأن الضّباع ستتجمّع، والنسور ستتهافت، عادة لا يأكل الأسد إلا حين يجوع، لكنه يميل لنهاش العظام

وتكسيرها إن كان في أنابيبه ألم.

لستَ رسول الراعي إليك، بل لفرعون، ملك مصر.



نظر إليه أحمس ثم هز رأسه:

لم يعد للصبر احتمال.

ترك الطوق، ارتعدت فرائص موسى حين تحرك الأسد تجاهه، بهدوء، عابسًا متألماً يكز أسنانه ويصدر زئيراً مكتوماً.

لا زلت تصر على أنك رسول الراعي؟

أهلهلني.

الأسد لا يمهل.

ودوّي الصوت في صدر موسى:

أغمض عينيك.

سحب موسى نفساً طويلاً ثم أغمض عينيه، اقترب الأسد حتى بات على بعد ذراع منه، ثم توقف، ثنى قائمتيه الخلفيتين وألصق صدره بالأرض وسط دهشة أحمس الذي صاح في وحشة:  
انهض.

لم يستجب الوحش، أمال رأسه في استرخاء وسكن إلا من تنفس يخفض بطنه ويرفعها، نظر أحمس لموسى الذي فتح عينيه وأخرج يده من جيبه بيضاء مضيئة:  
أرجو أن يكون ذلك مقنعاً لك فتصغي.

واستمع أحمس خاسعاً لكلمات موسى بعدما ربط وحشه وهدأت أطرافه، لم يقاطعه ولم يعارضه، حتى سكت، أطرق برأسه إلى الأرض ثم نظر لضيفه وقال:



. يا خادِم الراعي، ما قلْتَه جدٌ خطير.

. على يديك قد تكون بداية النهاية.

. لكن الماذا الآن؟ ولماذا أنا؟

. لا يظهر الراعي إلا إذا تجهز الطالب للعلم واشتق إلَيْهِ، وما جئتُ إلَيْكَ إلا لمعرفتي بسيرة أبيك وأذيك،  
ولانتصارات جندك المتّوالبة على مَلِك الرعاة.

. كم نفساً في قبيلتك؟

. ستمائة وخمسون شاباً في سن الجنديّة، وألف وأربعينانة ما بين النساء والشيوخ والأطفال.

. أطرق برأسه للأرض ثم سأله:

. هل أمرك الراعي بزيارة؟

. إنما على التدبّر وعليه المباركة.

. قام أحمس فمشى حتى الشرفة، فتحها وخرج فتبعه موسى. أشار أحمس لمدينته المضاءة بالشمع:

. عند تلك المدينة توقف جُند الرعاة، مات من شعبها الكثيرون حتى لا يتقدّم «ساليتيس» فيسحق، البقية  
الباقيّة من الصعيّد، ثم ضيق الأمر على أعناقنا حتى رضخ الآباء لجزية الأرض، وافقنا على السلام حتى ترجع إلينا  
القوّة التي فقدناها، ثم رفض أبي تسديد خراج الأرض، ناوش الخنزير فاختبر قوّته ثم هاجم بجيشهنا بعد عقد  
تحالف مع مدن الجنوب، لكنه قُتل، بيدي تلك وضعته في التابوت مشجوج الرأس، فاقداً عينه مُشوّهاً. فتح أخي  
كميس شفتي أبينا بالخطاف ليتكلّم في السماء، وتولى من بعده المَلِك سنوات، ثم قُتل غدراً. هل تظن أن  
في الأمر اختياراً؟ فالآم مكلومة والقلب محزون، والناس يسيرون في الأرض بين الوجوم واللهم، يكاد قلبي  
يتوقف عن النبض ورئتي عن التنفس حتى أعود برأس فرعون إلى «واست».



ما مدى استعدادك؟

نظر إليه أحمس ثم ابتسם:

تعال معي.

قرب إسطبلات الخيل أخرج الحراس عربة حرب، تأملها موسى في إبهار حين مسح أحمس على ظهر الحصان:

عدم توافر الخيل واحتياط هؤلاء للبوابة الشرقية لإيجيبت دفعنا لتقليل قوة عرباتنا من ثلاثة خيول لاثنين، مما أجبرنا على تقليل عدد الراكبين من ثلاثة رجال إلى اثنين، على أن يقوم السائق بدور حامل الدرع ليتفرّغ الرامي لعمله، باتت العربات أسرع وأخف، وأقدر على المناورة والالتفاف، خاصة بعدما استبدلنا الألواح الخشبية الغليظة بألواح رقيقة تنثني بالحرارة، ثم دعمتنا الجدار الخارجي للعربة بطبقة رقيقة من البرونز، ومؤخرًا استبدلنا الحربية بالقوس المركب، باتت الرميات عالية السرعة بعيدة المدى، تصل إلى أربعين متر ذراع، تقضي على العربات المعادية قبل أن تصل إليها، ثم بدأنا في تطوير صندوق الركوب، لم يكن ثابتاً أنباء الركض في الأرضي الوعرة بما يسمى برعى السهام، لذا حركنا محور العجلات من منتصف صندوق الركوب إلى مؤخرته بحيث يقع مركز ثقل العربة الجديد هنا، بين المحور والخيel، وهو ما زاد من ثبات العربة تحت رامي السهام، بقي لدينا أمر آخر، فصلنا العجلتين عن المحور الخشبي بحيث تدرك كل عجلة بشكل مستقل عن الأخرى، تمتص الصدمات وتقاوم الوعورة.

أطلَّ الانبهار من عيني موسى:

انتقلتم من الدفاع إلى الهجوم بذكاء!

المُضطرب يعبر البحر سباحة، لقد أقسمت يوم قتل أخي أن أوتد أطراف فرعون بلبوصاً.

ماذا تعني بلبوصاً؟

بالجيبيتية تعني عرياناً كما ولدته أمه.



ضحك موسى ثم أردف:

احرص على سرية الزيارة، فبعض اللحظات الفارقة لا تأتي في العمر مررتين.

هذا صحيح، بقي أن نختار وسيلة تواصل.

موعدنا السبت، وحين تتأهب، سأعرف.

هز أحمس رأسه موافقاً ومدد يده بسلام، نظر موسى إليها فأردف أحمس:

ذلك سلام الجيبيين.

وضع موسى يده في يد أحمس مبتسمًا فشدد عليها ولم يعقب.



قبل الفجر بساعات تسلل نصفبني إسرائيل في جماعات صغيرة كما تسللوا يوماً خلف جند أول ملوك الرعاعة إلى أرض الفيروز، تاركين خلفهم من لم يؤمن بدعاوة الأخوين، يحملون أمتعتهم وأطفالهم، وصراً صغيرة تحوي ما كنزوه تحت أخشاب الأرضيات وفي شقوق الحيطان، خرجن عبر حرق ضيق فتحوه في الجدار العازل لذرائهم، ثم اتجهوا شرقاً، يتلفتون خلفهم ويترىصون المتطفلين، متحاشين حراس القصر والأعين التي لم تنم، حتى بلغوا حدود هؤلاة خطب موسى فيهم بأن الطريق طويل، وأن الراعي يسير معهم، وأن يتوقعوا الشر من فرعون فلا يتراخوا أو ييأسوا حتى يخرجوا من أرضه، رفع الشباب أيديهم مؤمنين ورمقه الشيوخ بشك، كان ذلك حين وصلت الأنباء فرعون، دخل هامان القصر فحدث جلبه:

أتيتك بالبشري، لقد خرجن.

من الذي خرج؟

المنبوذون.

كر فرعون على أسنانه في صمت وضد الدم إلى رأسه، توقف عقله عن التفكير فتحجرت عيناه وتبيست أطرافه إلا من أصابعه، يداعب بها شعر ذقنه الكثيف والحلقات النحاسية فيه، تأمله هامان ثم قال محاولاً كسر شروده:

تخلصنا من الجذام والأحقاد، لم يعد علينا حصارهم أو تحجيمهم، لنحرق ذرائهم ونورث أرضهم قومنا المخلصين.



. تخلصنا من الجذام والأحقاد، لم يعد علينا حصارهم أو تحجيمهم، لنحرق خرائبهم ونورث أرضهم قومنا  
المخلصين.

أجاب فرعون بعد صمت:  
أرسل في المدائن فاحشد الجندي من كل قبيلة.  
نحشد جندنا للمنبوذين؟ إنهم لشريمة لا يخطئون الألفي نفس، ستبتلعهم الصحراء؟ أو يقضي عليهم  
الفلسطينيون إذا عبروا إليهم أحياء؟

ضرب الشياط أنف فرعون:  
شريمة يريدون أن يسخروا مني، قد يستعينون علينا بقوم آخرين، سنتبعهم، ربما نجد الفرصة فلنقضى  
عليهم في الخلاء، انفع بوق الاستنفار في القبائل.

خرج هامان فانتفتحت عروق الكرباء في رقبة فرعون، قام لخزانته فارتدى درع الحرب وخدودة العجل الذي تمثل  
قرونها هلال رب القمر، التقط فأسه وقوسه ثم خرج يضرب الأبواب والجدران ويصرخ في الحرس ليحشدوا الجندي  
من قبيلته وجند القبائل المجاورة ويعددوا الخيال. اعتلى عربته فترافقوا خلفه استعداداً، قبل أن يصبح صيحة  
مدوية ويضرب ودك الحصان.

كان ذلك حين شارف موسى شاطئ البحر، أشار بيده للقبيلة أن تتبعه شمالاً ليلتلفوا حول الجبل متجمبين  
المستنقعات، متذذلين الممر الضيق الذي يُفضي إلى الوادي، انحرف السير ما بين شيوخ متذمرين يركبون  
الحمير، وشباب متهمس يدفع العربات في صمت ويحملون المتعاع، والكل في شرود ينتظرون لبعضهم بعضًا  
في تساؤل، ولم يossى وأخيه في أمل وشك، لم تنسَ أعينهم الآيات التي أتى بها في ساحة الاحتفال، لكن كيف  
لعلهم أن تسلم بما يقول، كيف يعبدون ربًا لا يرونوه؟ ربًا لا يعيش في القمر! ربًا ليس له تمثال ولا حجرًا لولا  
اضطهاد فرعون لهم والعصا التي يحملها موسى لتركوه وأخاه ليصلبا في جذوع النخل، ثم يمرروا عليهم  
فيسترقوا النظر ويذكروا عبوبهما، ثم يطرقوا برعوسهم أرضاً ويغتصبوا البصر، كما يفعلون كلما ذبح فرعون



من قطبيعهم شاة.

بعد دقائق من الانحراف جنوباً لاح الفتى المتأخر، شاب له ساقان خفيفتان يمشي في مؤخرة الركب ليطلعهم على من يتبعهم، شق الصفوف بأنفاس متهدجة حتى وقف أمام موسى:

. فرعون وهامان وجنددهما يتبعوننا بالخيول والعربات.

. كم تبعد المسافة بيننا وبينهم؟

. ساعة.

انتشر الخبر في لحظات فسّار الارتكاك في نفوس القبيلة وعلت الهمممات، ثم رفع كبير العشيرة صوته:

. هذا ما حذرتكم منه، لن يهدا بالرأس العجل حتى يحاصركم فيدبركم ويُلقي بأجسادكم إلى البحر.

صَرخ موسى:

. اخْرُسْ يَا عَبْدَ الطَّاغُوتِ.

استنكرت الأعين وهزت الرؤوس فأمسك هارون بعهد أخيه وهمس:

. اهـدا يـا موسـى، ذـلك كـبير العـشـيرـةـ.

: ارتفع صوت من بعيد

. لنسلم أنفسنا إليه ونبدي الندم لعلنا نرجع إلى منازلنا.

وصوت آخر:

. بل يتقدّم الأخوان فيقابلان فرعون ليصدوا عنـا الأذـىـ.

تطاير لعاب موسى غضباً وثقل لسانه:



إن نطق أحدكم باليأس، سأسلط عليه ثعبان الرب فيلتهمه، ما لكم ترثون بالذل وتذعنون لشياطينكم؟ من لم يؤمن بالراعي الذي أخرجه فليبعد إلى الخراب، وليرقبل أن يقتل أبناه وتستحي زوجته لخدمة فراش فرعون.

ضرب الصمت أبناء القبيلة، ينظرون لموسى والخوف يتسلق سيقانهم ويعبث بالقلوب. بدأ البعض في حمل أمتعته وبكت النساء في عويل وعفرن بالتراب رءوسهن. صاح كبير العشيرة:

البيم عن يمينكم، والبحر أمامكم، أما قمر الجبل فيلزمنا يوم لنعبره. لتسألوا رسول الراعي أين نذهب ما دمتم تصدقونه.

همس هارون في أذن أخيه:

ماذا سنفعل؟ تكلم يا ابن أم، إن شيخ القبيلة يبتون الفرقة ويمزقون القوم، لنأمرهم فيحتموا بالجبل ولننتظر أنا وأنت، لتلق عصاك أمامه ولتخرج يدك لعله يتقهقر.

نظر إليه موسى ولم يعقب، ثم أعرض وابتعد موليا وجهه للبحر، ناداه هارون ولم يلتفت فرجع إلى الجميع محاولاً بث الصبر في النفوس:

يا قوم، كنتم تتمنون زينة قارون وداره،وها هي قد انخسفت في الأرض وغارت به وبكنوزه كان لم تغنم بالأمس؟ لم يكن منكم قبل أن يكذب علامات الراعي؟ طغو وتكبر واتبع سبيل الجنون، هكذا فعل الآباء يوماً، قوم عاد وثمود وأصحاب الشجرة، أين هم الآن؟

علا صوت:

تفتأ ذكرنا بالبائدين وفرعون يقترب بعرباته!

التفت هارون لأخيه الشارد في البحر كتمساح ميت، فغمض العينين لا يلتقط هممات ولا عويلاً، لا نداء استغاثة ولا صياح شيخ العشيرة. فقط صوت الموج العادئ يضرب أذنيه في رتابة، ينتظر وينتظر، في سكون عجيب لم يختبره من قبل، سكون من لم يعد يعبأ أو يخاف، سكون من أيقن الموت واستعد لاستقباله، فقد



الإحساس بالوجود من حوله لا يشعر إلا بقدميه المغروستين في الرمال ويديه القابضتين على العصا، العصا التي ستستحيل ثعباناً وتهرب إلى البحر حين يأتي جند الملك «يا ليتها تبتلعني أو تلدعني». كان ذلك حين شعر بيدي تلامس كتفه فانتفخ، التفت فرأى مريم تمد يدها بتمرتين:

كُنْتَ تطلب التمرات حين ينتابك الحَزَنِ.

هز رأسه في الماء:

جَسْدِي يفُور يا مريم، لم ينتبني يوماً غضب كغضبي على هؤلاء اليانسين.

آفتهم أنفسهم، أورثتهم المهانة لؤماً وخشنة ودناءة، لكن، عليك الآن أن تقرّر أمرهم، فكلمات هارون لم تُعَدْ تؤثر أو تصد الكاذبين.

فجأة تعلّلت الصرخات واضطربت الجموع، الغبار تصاعد في الأفق خلف عربات تهرس الأرض هرساً، قالت مريم، إنّا لمُدركون.

نظر موسى للسماء وهمس:

لا تترّكني.

فجأة شعر بنبيض قلب يضرب عصاه، يهزها، التفت للبحر وسط الهلع والركض، سمع الصوت فانصاع دون تردد، خاض المياه المالحة حتى منتصف جسده، نادته مريم فلم يستجب، ركب هارون ناحيته ليجذبه، كان ذلك حين رفع عصاه عالياً، وهو يها على رأس موجة تقترب.

وانفلق الماء بين قدميه في هدير صمّ الآذان، تباعد كأن سكيناً خفية تشقه شقاً لتتكشف الرمال والقواعد والأحجار، التفتت القبيلة فخرست الأصوات وانحبست الأنفاس، الشق يزداد اتساعاً، حائطان من الماء جرت الأسماك فيهما، لم يملك فما ليتكلّم أو عيناً لترمش، الثعبان بدا لعبة أمام ذلك السحر العظيم، بلغ حائطاً الماء ارتفاع تل، فهضبة، فجبل، جبل راسخ مُستحيل التسلق، دس هارون فيه يده فاخترقـت، التفت موسى



للقبيلة ينظر في وجوه حيرها الروع، بدت عربات فرعون أقل رهبة في النفوس، يرمقون الماء بأعناق تلوّت، حتى

صرخ فيهم موسى:

سنعبر البحر، من هنا.

ساد الصمت لحظات قبل أن يفيق أحد الشيوخ:

ما أتيت به شيء عظيم، لكن، أتأمرنا أن نخوض بحراً؟

بل بأمركم الراعي، إن كنتم له مؤمنين.

وقال آخر:

ألا ننتظر؟ ربما سقط علينا الماء؟

نظر موسى لهارون الذي تبلى جسده ولمريم التي بكى أطفالها ثم رفع صوته:

ساسير في طريقي، من أراد أن يتبعني فليفعل، ومن لم يرد فليبق ليواجه رأس العجل.

تبادلوا النظارات ثم تلفتوا حولهم ينظرون لغبار صار عاصفة.

على بعد ساعة كان فرعون يتقدم العربات، تشد يمينه لجام ثلاثة أحصنة هوجاء، في يسراه خنجر، وفي فمه كلمات تخرج من بين الضروس: «طفح الكيل، أقسم أن أغمد ذلك النصل في قلب المتعلق عليهم على مرأى ومسمع من قبيلته المنبوذة، قبل أن أبقر بطونهم وأوتد أطرافهم في الأرض ثم أحرقهم أحياء، شرذمة رعاع يقودها ساحر مجنون تشمّت بي القبائل وتلبستني لباس المهانة والتحقيراً لأجعلنهم عبرة للقبائل ليعرفوا من هو بهم الأعلى، ول يعرفوا أن الأحلاف لن تتفرق، الأرض أخذناها بشرف وكانت صدراً جرداً، ثم فضّلناها فجعلنا فيها سكناً وزرعاً وحيثنا وتجارة، مصرًا تتحاكي بها أمصار البلاد، الآن يريدون أن يعودوا بنا للبدو؟ لتنكحهم معيزهم وذرافهم».



ثم أشار لهامان وكان في عربة تجري بجانبه فجذب لجامه يميناً فاقترب، رفع فرعون صوته:

حاذِ وجَندك ناحية اليم وساحاصرهم من ناحية البحر في حِمَاشة، ولا يمسن أحد الفتى.

هزَ هامان رأسه ورفع علمًا صغيرًا فيه رسم تماسح فاغر فاه، ثم انحرف بعربته يساراً فتبعده جَند قبيلته في ذراع ستقابل ذراع فرعون بين البحر واليم.

في تلك الأثناء كان موسى وهارون ومريم بأبنائهما قد خاضوا أرض البحر، ساروا فوق الصخر الناعم مُتّقين قدر الإمكان الانغراص في الرمال المبللة، أول من تبعهم كان الشباب، ساروا بحذر يتجنبون لمس حائطي الماء، ثم تبعهم الناس بتrepid، وكان آخر من استجاب الشيوخ فوق عرباتهم المجرورة، لم يكن من الصعب إدراك الشاطئ المواجه، ففي تلك البقعة يضيق البحر في قناة صغيرة قبل أن يصب مياهه في اليم، أخذت رءوسهم تتلتف بين الشرق والغرب، بين جبال الشاطئ الآخر وغيار عربات فرعون، وأصوات طبول يضربيها جيشه ترويعاً، لم يختلف أحد عن اتباع موسى ولم تملك العقول حلاً آخر حتى وإن كان رسولهم مجنوناً، حين بلغوا نصف المسافة وصلت عربة فرعون أمام البحر المشقوق، حاله المشهد وجنوده ورفعت الخيال قوائمها في خوف وفزع، نظر لهامان الذي اقترب بجنته قبل أن ينزل عن العربة، لاهس الماء الصاعد بأصابعه ثم صاح ليسمع فرعون:

جعبة ذلك الفتى لا تنتهي.

أطرق فرعون للأرض برأسه وكَرَّ على أسنانه.

أرسل جنديين، إن عبرا بسلام فستتبعهما.

وأشار هامان لجنديين فوق عربة فاقتربا:

استكشفا الأرض.

نظر الجنديان إلى بعضهما البعض بتrepid قبل أن يقول أحدهما:

سيدي، قد ينهمر علينا ماء الساحر.



تلقي الجندي طعناته في الرقبة فسقط بين قدمي هامان الذي التفت للأخر:

هل علي أن أكرر كلماتي؟

تقدّم الجندي مرتعشاً صوب الماء، دلف إلى الشق في حذر، سار فوق الأحجار متوجهاً الرمال المبللة، يتلفت خلفه

فيري وجه فرعون فيهرب بعينيه إلى الأمام في روع، حتى ابتعد لمسافة أربعين ذراعاً فنظر هامان لفرعون:

لا آمن مكر الساجر، ولا آمن الأرض المبللة.

داهمك الجبن ألم نال ابن الخراب؟

بل العربات ثقلة برجالها والخيول فنهكة.

لينزلوا عن العربات فيسيراً بجانبها.

لِمَ لَا تلتف خلف اليم فنلحق بهم.

ستتحاكي القبائل بأني حفت خوض البحر وراء المنبوذين.

هذا خير من أن يطبق علينا الماء فنصير حكاية شعبية.

إن لم أتبع هؤلاء المخذومين فلن أعبد في تلك الأرض أبداً.

نظر فرعون للبحر في وجّل حين تعلّلت أصوات جنده وتوتّرت الخيول، اتخذوا وضعيات دفاعية وضيقوا

انتشارهم حين شق الصفوف جندي كشاف، اقترب فقفز من فوق حصانه والجروح تملأه والتعب، نطق بأنفاس

مقطوعة:

عربات الجيبيين اجتاحت هوارة، حرقوا الحصون وجاسوا خلال الديار، تصدّت لهم بنو «الأزرق» وبنو «عبددين

ضخم» وبنو «قطران» فأسرروا منهم رجالاً وقتلوا الكثير.



نهش الغضب ملامح فرعون:

. من قائدتهم؟

. ملك الچيبيين، أحمس، ترك قواته في المدينة وخرج بجيش من العربات قاصداً اللحاق بنا.

نظر فرعون في الأفق فلمح الغبار، نفس الغبار الذي أثاره جنده منذ ساعات، ثم ميزت عيناه العربات والخيول، وميزت أدناه زئيرأسد، نظر فرعون لهاaman في هلع ثم نفع صدره وصرخ:

. خيانة، إلى البحر، إلى البحر.

قالها وقفز فوق عربته، ضرب الخيل فصعلت وتحركت، تحاد تطير من غضب أمرها وخفة العربية بعد أن أسقط منها الرامي وحامل الدرع، ثم تبعه جنده وهامان ومن ورائه جند قبيلته، كان ذلك حين شارف موسى الشاطئ المقابل للبحر وكان أول الخارجين في سلام، التقط يد مريم وحمل عنها أطفالها، ووقف هارون ليُساعد الشيوخ والنسوة في الخروج، في تلك اللحظة كان أحمس فوق عربته طائراً، يراقب مؤخرة جند فرعون يتزاحمون أمام شق بالبحر لم ير له من قبل مثيلاً، ملأه التساؤل وراودته نفسه أن يبطئ فيرسل كشافاً ليخبره بما رأى، لكنه تذكر مقابلته برسول الراعي، وتذكر ما قاله وما فعله من الآيات، فرفع شعار أبيه وأخيه على الأعلام وضرب أوراك خيله مردداً،

. بعض اللحظات الفارقة لا تأتي في العمر مرتين.

كان جند فرعون قد بلغوا متصف المسافة حين وصلت عربات أحمس أمام شق البحر، رفع شارته فتوقفت العربات، نزل بين ذهول جنده فلامس الماء الصاعد، اقترب مساعد:

. ماذا ترى؟

. أرى أن ننتظر هنا، فالنزاع لم يعد بين رجل الرب ورجل العرش، لقد تدخل الراعي.

على الضفة الشرقية نظر موسى للسماء ولآخر أبناء قبيلته الذي خرج من شق البحر، اقترب هارون والتعب



يأكله:

. ماذا ننتظر؟ اضرب بعصاك البحر فيصير الماء حائلاً بيننا وبينهم فلا يصلوا إلينا.

هم موسى بضرب عصاه حين تلقى الكلمات:

. اترك البحر على حالته.

أنزل موسى عصاه وهز رأسه نفياً فنظر إليه هارون وقد أدرك أن الرب قال كلمته. اقترب رجال القبيلة ينقلون أصارحهم بين جيش فرعون الذي خاض الماء وراءهم، وموسى الذي أمرهم بالابتعاد عن الشاطئ، ثم أخذهم الهلع فركضوا حين لاحت عربة فرعون، يضرب خيلها بقوة وفي ملامحه الرعب والغضب يتصارعون:

. يا ابن أم، إن خرج من البحر فسيأكل لحمنا أحياء.

. رأس العجل دخل البحر صاغراً، لقد حضر فتى واست.

. أتعني أن هوارة...؟

. سقطت، إن لم يعبر فرعون البحر فلن يعود لمدينته.

. اضرب البحر إذن كي لا ينتقم منا.

. لن أدعه يقول إن موسى فر من مواجهتي.

. سأبقى معك.

. بل اذهب فطمئن القبيلة واعتن بالضعفاء.

هز هارون رأسه ثم ابتعد، كان ذلك حين رفع فرعون قوسه وسد سهمه نحو صدر موسى، فجأة ضربت عجلته صخرة قاسية فانكسرت وانقلبت العربية وسقط الخيل بعضه فوق بعض. تدرج فرعون فوق الرمال قبل أن



يقوم وقد أصيب بجرح في خده وانكسرت قوسه، ألقاها تحت قدميه واستل خنجره في غل واقترب، بات على  
بعد عشرين ذراعاً من موسى:  
ألق عصاك ولتواجهنِي رجلاً لرجل.

نظر إليه موسى وابتسم، ثم ألقى عصاه، فجأة ارتجت الأرض وارتفع هدير المياه، ثم انهمر الماء من حول فرعون فاختلط صرخ الجند بصوت تكسير العربات بصفيل الخيال، نظر خلفه فهاله المشهد، حوائط الماء تتكسر وتتساقط، أفق فركض نحو موسى والهلع يملؤه، قبل أن تضرره موجة عاتية فتطوي جسده.





حين عاد البحر لحالته وهذا الموج خرج بنو إسرائيل من خلف الجبل وحاذوا شاطئ البحر شمالاً حتى وصلوا إلى مصبه في اليم، متبعين اتجاه الموجة الهائلة، العربات المحطمـة والخيـل الغارقة والدروع كانت تزاحم الجـثـ الطافـية، مـنـتفـخـة، مـبـسوـطـةـ الذـرـاعـينـ، أـعـيـنـهـاـ بـيـضـاءـ وـلـحـمـهاـ مـتـهـتكـ، وـقـفـواـ لـدـقـائـقـ يـنـظـرـونـ لـبعـضـهـمـ غـيرـ مـصـدـقـيـنـ، قـبـلـ أـنـ يـهـمـ الفـتـيـةـ بـالـبـحـثـ عـنـ الـمـلـكـ فـرـعـوـنـ، انـقـضـتـ السـاعـاتـ فـيـ فـحـصـ الـجـثـ وـإـدـراـجـهـ لـاـنـتـزـاعـ ماـ يـمـكـنـ اـنـتـزـاعـهـ مـنـهـ، قـبـلـ أـنـ يـصـرـخـ أـحـدـهـمـ حـيـنـ عـثـرـ عـلـىـ جـثـةـ هـامـانـ، أـخـرـجـوـهـ فـجـرـدـوـهـ مـنـ مـلـابـسـهـ وـأـسـلـحـتـهـ، فـقـلـوـاـ عـيـنـيـهـ وـقـطـعـواـ خـصـيـتـيـهـ قـبـلـ أـنـ يـنـهـاـهـمـ هـارـونـ عـنـ الـعـبـثـ بـالـجـسـدـ لـأـنـهـ عـهـدـةـ الـرـبـ، عـلـقـوـهـ مـنـ قـدـمـيـهـ فـيـ جـذـعـ نـخـلـةـ ثـمـ شـرـعـوـاـ بـالـغـوـصـ بـحـثـاـ عـنـ فـرـعـوـنـ، جـلـسـ مـوـسـىـ عـلـىـ صـخـرـةـ يـتـأـمـلـ قـوـمـهـ وـمـاـ يـفـعـلـوـنـ حـيـنـ أـتـاهـ هـارـونـ فـجـلـسـ بـجـانـبـهـ صـامـتـاـ حـتـىـ تـكـلـمـ:

. الشـبـابـ يـصـارـعـونـ النـهـارـ لـلـعـثـورـ عـلـىـ جـثـتـهـ، لـكـنـ الـيـمـ يـعـيـدـ الـقـعـرـ، أـمـاـ الشـبـيـوخـ فـيـقـتـرـحـونـ الـعـودـةـ إـلـىـ هـوـأـرـةـ حـيـنـ تـتـأـكـدـ أـعـيـنـهـمـ مـنـ مـوـتـهـ.

. هـؤـلـاءـ الـمـخـابـيلـ! كـيـفـ نـعـودـ وـقـدـ أـمـرـنـاـ الرـاعـيـ بالـرـحـيلـ عـنـ أـرـضـ الـجـيـبـتـيـيـنـ؟

. مـاـذـاـ عـنـ باـقـيـ الـقـبـائـلـ؟

. سـقـوطـ هـوـأـرـةـ سـقـوطـ لـكـلـ الـقـبـائـلـ، مـسـأـلـةـ وـقـتـ أـنـ تـبـقـىـ فـيـ تـلـكـ الـأـرـضـ.



. مَاذَا عَنّْا؟

. سَنَكُمْلُ فَسِيرَتْنَا مَعَ شَرُوقِ الشَّمْسِ وَ...

بَرْ مُوسَى كَلْمَاتِه شَرُودًا، عَيْنَاهَا كَانَتَا تَرَاقِيَانْ فَتَوْ تَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ:

. مَنْ هَذَا؟

. أَحَدُ أَبْنَاءِ سَامِرَ، أَمْهُ مِنْ بَنْيِ إِسْرَائِيلَ، يَحْفَظُ كَلْمَاتِكَ وَيَقْلُدُ نَبْرَةَ صَوْتِكَ وَيَتَّبِعُ خَطَاكَ.

. مَاذَا يَفْعُلُ؟

سَأَلَ مُوسَى وَلَمْ يَنْتَظِرْ جَوَابًا، نَزَلَ مِنْ فَوْقِ الصَّخْرَةِ فَاقْتَرَبَ، الْفَتَوْ كَانَ يَخْطُبُ فِي الْجَمْعِ بِغَضْبٍ وَالْوِجْوهُ مِنْ حَوْلِهِ بَيْنَ مُصَدَّقٍ وَفَسْتِنَكَرِ:

. تَلَكَ زِينَةٌ تَحْمِلُ اللَّعْنَاتِ، سِيَصْهُرُهَا الرَّبُّ وَيَصْبِحُهَا عَلَى رَءُوسِكُمْ...

. مَاذَا تَقُولُ أَيُّهَا الْفَتَوْ؟

تَفَرَّقَ الْجَمْعُ احْتِرَامًا فَوَقَفَ مُوسَى أَمَامَ الْفَتَوِيِّ الَّذِي انْحَنَى ثُمَّ سَجَدَ عَلَى الْأَرْضِ:

. سَيِّدِي، كَلِيمِ الرَّاعِيِّ، أَسْجُدُ إِلَيْكَ تَبَجِيلًا وَ...

قَاطَعَهُ مُوسَى:

. قُمْ يَا فَتَوِي، مَاذَا تَفْعُلُ؟

جلس السامری على ركبتيه:

إِنَّ الْقَوْمَ حِينَ حَزَمُوا أَمْتَعَتْهُمْ لِيَعْمَلُوْهُ هَوَارَةً، لَمْ يَرْدُوا الرَّهُونَاتِ إِلَى أَصْحَابِهَا، وَلَمْ يَعِدُوا زِينَةَ الْقَبَائِلَ الَّتِي آمْنَوْهُمْ عَلَيْهَا لِلصَّهْرِ وَالْتَّصْنِيعِ أَوِ التَّخْزِينِ، حَلَيَا وَأَسَاوِرَ مِنَ الْذَّهَبِ وَأَحْجَارًا...



قاطعه موسى:

. ثم؟

. إنما أحثهم على دفنها في هذه الأرض المباركة هبة للإله فيباركنا ولا تلحقنا لعنة.

أشار موسى للناس أن يتفرقوا وجذب عَضد الفتوى مُبتعداً عن الآذان:

. كيف تتقول على الرب بأنه يتلقى الهبات ليتجنبنا اللعنة؟ أخبرك الرب بهذا أم تجتهد فيما لا تعلم؟

. إن الذهب الذي نحمله ملعون، زينة الطغاة الذينتبعوا الملك، وما حدث لقارون وقصره خير دليل، إن كان قدْم

للرب قرياناً أو ...

جذب موسى قميصه بغضب وهمس في أذنه:

. من أنت لتتكلّم باسم الإله؟

. أنا...

. اخْرُس واسمع، نحن، في موقف عصيّب، هؤلاء أناس هجروا ديارهم وعبروا بحراً، وهناك جيش من الجيبيتين

يقبع خلف ذلك الجبل، وأنت تريد أن تحدث صدعاً!

. يجب عليك مُعاقبة من حمل وزراً بغير حق.

. ليس ذلك من شأنك.

. لكنك كليم الراعي ورسوله، والرب لا يقبل أن...

صَرَخ موسى:

. لا تتكلّم بفم الرب.



ودفع الفتى فأسقطه أرضاً. ساد الصمت لحظات نظر فيها موسى لكتبه فتذكر ما فعلته منذ عشر سنوات، ثم نظر للناس الذين تابعوا الموقف حين اقترب هارون فهمس:

يا ابن أم، إن القوم لم ينسوا.

قاوم موسى غضبه حتى زفر نفساً حاراً، ثم هم بالرحيل فأحاط الفتى السامری بساقيه محظناً ورفع صوته:  
امتحنني شرف لقاء الرب على يد كلیم الرب.

فبك موسى أصابع الفتى من حول ساقيه وهمس:  
اغرب عنّي.

كان ذلك حين ارتفع صوت:  
ووجدت خوذة العجل.

ركض هارون ناحية صاحب النداء فاستدركه موسى:  
أخبرهم لا يمثلوا بالجسد حتى نتأكد أنه هو.

في أقصى اليم شمالاً، عند مدخل كهف مظلم يقع على بعد خطوات من الماء، تجمّع الناس حول الفتى الذي يحمل خوذة قرنى العجل، خوذة فرعون، وصل موسى فأشار الفتى لخوذة ولقوس ولدرع ثقيلة تحمل شعار رأس العجل، وخطوات على الرمال تنتهي عند المدخل، تحفز الناس وهللا قبل أن يأمرهم موسى بالتزام الصمت، اقترب من المدخل المظلم ورفع صوته:

يا فرعون.

انتظر لحظات ولم يتلق إجابة فرفع صوته:



أظهر نفسك وسأضمن لك الأمان، لا عاصم اليوم من الرب ولا مفر.

مرت اللحظات فتأهب الفتية كالغهود الخشيمة يريدون الفتوك به، نهرهم موسى بيديه وجحظت عينا هارون  
فيهم فتراجعوا:

إن لم تخرج فسيدخلون إليك، لن أملك مساعدتك.

لم يتلق إجابة فطلب الشيوخ حرق الكهف وهدد الشباب بالطعن والتمثيل، رفع موسى عصاه ثم صاح فيهم:  
سأدخل إليه، وحين أخرج لن يمسه أحدكم بسوء حتى يقرر الرب أمره.

اقرب هارون:

فرعون يعرف كيف يضرب بالسيف.

لقد ترك قوسه فلن يصيبني عن بعد، أما السييف فقد تربيت على يد معلمه الذي علمه القتال.

قالها موسى ثم سحب من حزام هارون خنجره، اقترب من مدخل الكهف وسط الترقب والفضول، ثم دلف في  
حذار، سار خطوات ثم رفع صوته منادياً:

لقد سقطت هؤارة في يد الجبتيين، لم يعُد لك ملجاً إلا بيننا، أعطيك الأمان لتخرج معي في سلام، هذا عهد  
بيني وبينك والرب الذي لم تؤمن به شاهد.

تلقي موسى صمتاً، لا شيء يعلو فوق صوت قطرات ماء تقطر من السقف، أردف:

خير لك أن تعلن عن نفسك من أن يخرجك الفتية، جئمان هامان معلق على جذع خلة.

تقدم موسى خطوات فأحاطته الظلمة، تحفَّزت يداه على العصا والختنر، ثم مضى خطوات إضافية:

إن جيش أحمس قادم لا محالة.



ثم توقف للحظات حين أدرك أن الظلام يخفي، عيناه ترىان التفاصيل جلية! تقدم خطوات فارداد يقيناً، النور يتسرّب من ثغرة ما، الكهف ينحني لليمين، تزداد أرضه ارتفاعاً، ثم بقعة شمس تضرب الصخر من ثغرة صغيرة، ثغرة تتسع لعبور جسد! اقترب موسى فوجد حزام فرعون ملقى على الأرض وفردة من صندله، ترك عصاه وقفز فتشبثت أناشه بأطراف الثغرة، تحامل على نفسه فرفع جسده حتى أخرج رأسه للنور، الكهف كان يُفضي إلى سر جبلي وعر، سر يترفع إلى سلسلة من جبال ومنحدرات لا أول لها ولا آخر، ترك موسى جسده فسقط، سيطر على غضبه ثم التقط عصاه، وحزام فرعون.

خارج الكهف كان أبناء القبيلة متحفزين، اتجهوا إليه ليسألوه فأخبرهم بما رأى، زمجروا كالضياع واقتحموا الكهف يصرخون، قبل أن تخرج جماعة منهم ليتعقبوا خطاه، كان ذلك حين اقترب هارون فهمس في أذن أخيه، بدوي مذعور يركض منذ ساعات، لو كنت مكانه لركضت حتى بابل.

لن يعثروا عليه، فهو خبير بالصحراء، لم ينس يوماً حياة البدو، من دون الجندي كلهم ينجيه الراعي، ربما ليقابلة الذين كانوا يظنونه إلها.

كلمات حكيمه، لكنها لن تشفي غليل الإسرانيليين.

علينا أن نمضي في طريقنا، لن يفيد الانتقام شيئاً.

سأترك لك إقناعهم، وسأتقدم لأقبل ملك الجيبيين.

التفت هارون إلى حيث يشير أخوه فرأى جحافل الجيش الجيبتي تتقدم من الغرب.

بين النخيل وبعيداً عن أعين القبيلة وضع الجندي كرسبيين، ريش الأسد تحت قدمي سيده، الدماء على السيف ما زالت، والضربات على الدرع تركت الآثار.

تلك أول زيارة للمصر؟



. تسللت مع أخي كامس مرات إلى أرض الفيروز، كان يعود قلبي على كسر هيبة الرعاة، نتسدلل ليلاً فنقتل من يقابلنا من الجنд لنترك الرعب في النفوس ثم نعود لواست، إلا أنها أول زيارة لهوارة.

نظر موسى لجرح في قدم الأسد الرابض فأردد:

. وجدت مقاومة؟

ربت على عنق الأسد وداعب لبدته الداكنة:

. كنت أعده لذلك اليوم، حلم ظل يراودني منذ كان شيئاً، سأدخل به هوارة، وسيببث زئيره الرعب في النفوس، لدى القبائل جند أشداء لكن قلوبهم غير مؤمنة، اجتحنا معظم الحصون، والبقية تركناها محاصرة حتى نعود.

وماذا عن قصر فرعون؟

. كان حالياً من الحراسة حين أتيتنا.

هل صادفتم ابنته؟

. ماتت قبل أن نصل إليها.

وضع موسى كفيه على فمه قبل أن تناسب دموعه حارة، تحشرج صوته وتهدج نفسه:

هل...؟

. قتلت نفسها.

غض موسى أنامله قبل أن يتمالك نفسه:

. لعنة أبيها لم تكن لتفارقها.

ليرحمها الراعي، هل وجدتم جثة الثعبان؟



. فرعون نجا من الغرق، أوى إلى كهف فيه ثغرة وضعته على طريق المنحدرات الوعر.

Abbas وَجْهُ الْمَلِكِ :

سأرسل في أثره من يأتيني به حيًّا، ماذا عنك؟

كما تعاهدنا، خرجت وقبيلتي من هؤارة، وسأكمل طريقي شرقًا حتى يأتيني أمر الراعي.

لك مبني الأمان ولقبيلتك ما دمت في أرضي، استقر كما تشاء ولا تتعجل الخروج من مصر، فالبدو الشرقيون

لن يقابلوك بالترحاب. سيكفل جندي لكم المؤن وسينصبون لكم الخيام إن أردتم.

لدينا ما يكفيانا، لكنني أرجح الابتعاد عن مصر، فنفوس القبيلة تميل للعودة.

قام أحمس مبتسمًا ومد يده بسلام:

كما تشاء يا نبي الراعي.

صافحة موسى:

السلام الجيبي، لن أنساه، كما لن أنسى صاحب الأسد.

ابتعد موسى خطوات قبل أن يستدركه أحمس:

يا نبي الراعي، هل تعرف الكتابة؟

تعلَّمْتها في معبد «أون».

ما جعل إيجيبت سابقة للأمم إلا تدوين حياتنا في الصخر حفرًا.

ثم نظر أحمس لشيوخبني إسرائيل وهمس في أذن موسى:

اكتب سِجَلًا لرحلتك، منذ بعثتَ وحتى تموت، واثمن علیها شخصًا تعرّفه، فأعين قومك لا تحمل الخبر.



التفت إليهم موسى ثم رجع لأحمد الذي أردف:

لا أتنبأ بالغيب، إنما هي أشياء نتعلمها في الصعيد الجنوبي.

قال لها ثم ربت على كتفه بابتسامة ورحل، ساحبًا وراءه جيشاً ظلفر بعد شقاء.



♀

♀

♀

و ضررت الشمس الشفتين الأسرتين.

تلبّهت، رفعت جفنين كرسولين فادركت أنها فوقه، مُستلقية في راحة. كانه سريرها. شعرها المموج مبعثر على وجهه وأناهلها ممسكة بشحمة أذنه. ابتسمت، ثم فسحت لعاباً سال على صدره قبل أن تقوه، داعبت بطنهما والعرق الذي اختلط من الملاصقة، ثم تأملته فتنهدت. كان يغط في ثقوب والبوصة بين أصابعه لم تسقط.

كم هو مليح ووديعاً.

التفتت ناديا بخفة فرأتها، تستند الباب في سكون لم تعهد فيها وفي شفتيها ابتسامة رقيقة،

. يا وجه الشؤم.

. جئت لأودعك.

. حقاً.

. لم أعهدك سعيدة مثلما أعهدك الآن، فالفرح شبع وامتلأ، والقلب شغف بالعشق، لم تعد هناك ضرورة لوجودي بجانبك، وما أتيتك يوماً إلا لأنصحك.



غادرك الحقد ألم العوبة جديدة تفرقين فيها بيني وبين حبيبي.

اقتربت منها فاللقطت حُصالتها، لم تكن يوماً لتقاوم الخدر الذي يسري في روحها حين تصفر العاهرة شعرها، وتخفي رأسها بأظافرها. تخمض عينيها في نشوة حتى ترتعش أصابع قدميها وتخفت الأصوات في أذنيها فلا تسمع إلا صوتها.

أن يصير لك وحدك، فلم تنتظري الأعوام لظهوره، ينصرف رجل... هنيئنا لك الحياة في كنف حببك، في مذود للبقر أو في مستنقع، لا يهم، فالعشق لا يهمه مكان أو زمان، أرجو فقط.

نصف رحال

نعم، فقلبه معك، وعقله

<sup>٢</sup> وأشارت باصابعها للبرديات على الآثار.

إن لم تملئي عقل الرجل كما ملأت قلبه، فلن تصير ملكته. مع غيابات القمر سيسأم رحيم الجسد، وستفتقدين الشغف الذي ترينـه في عينيه، ثم تنبت بذور المشاحنات فتسقيها بالسموم، حتى يضيق صدره وصدر الرجال ضيق، وبعد أن كنت الملاذ، بعد أن كنت الحصن، الحلوي، الدفء، ستتصيرين العباء، ويفسد العشق. ستطلبـينه بقدميك يا حلوتي دون أن تدري، ثم تظهرـ من هي أضـج منك ثـماراً، ستتجذـبه، فقط لأنـها ليست أنت، سيئـني على طعامـها وشرابـها، ثم تراودـ أحـلامـه، حتى يملأـ الشـغـفـ بها، فيـقـطـفـها، ويـلـقـيـ بـذرـتكـ فيـ رـكـنـ مـظـلـمـ كانـ لمـ تكونـيـ.

ما في بطنك؟

قد يصبح بطنك سبب نفوسه، أو انحذابه.

ماذا على أران فعله؟

لم تلقي ناديا الإجابة، فتحت عينيها ولم تجد عاهرتها، التفتت حولها فلم تعثر لها على أثر، قبل أن تلحظ الضفيرة السمراء التي صرخت ببراءة ناظرتها، فور ذلك تراجعت عشقاً قبل أن تقترب من العينين المأهولة ساتحة



بأناملها من تحت ذراعه، نظرت فيها ثم اتجهت لحكومة الحطب، بين الرماد كان لا يزال بصيص نار، جذوة صغيرة، لكنها كافية لتشعل النار في حروف القصيدة العتيقة، ما إن لامست النار البرديات حتى استيقظت، أكلت بنهم وقطّقت حتى استيقظ كاي، جلس مقاوماً الدخان الأسود الذي أغشى عينيه، قبل أن يميز ناديا، جالسة القرفصاء أمام الحطب، تمسح بأناملها الفحم المتخلّف عن الحطب وترسم على وجهها خطوطاً ودوائر، ما إن أدركت استيقاظه حتى علت الضاحكة وجهها:

لم أخبرك أني أجيد الرسم.

ماذا تفعلين؟

دعني أرسم على وجهك وأنت تعرف.

نظر كاي في الحطب ثم تلتفت بحثاً عن برديات معلمته فلم يجدها:

ماذا تحرقين؟

ابتسمت بعينين جاحظتين ولم تتجبه، فقط مدّت يدها لحكومة الأخيرة من البرديات وشرعت في إلقائها في النار حين قفز من رقده وبرك فوقها كفهد جائع فوق غزال، ألقى البرديات بعيداً وثبت ذراعيها بقبضتيه، الشرر يتطاير من عينيه والألعاب من فمه، صرخ في غضب لم تعهده فيه من قبل:

ماذا فعلت؟

فعلت ما هو واجب، أحرقت ما يقف بيّني وبيّنك، ما يحجب العشق ويُبطل الشغف.

أيتها الملعونة، كيف تسول لك نفسك تقرير مصيري.

أنا لا أقرر مصيرك، إنما أحمي عشقنا، أحمي ابنتنا.

بأن تحرقي ثمرة يديّاً





. ولو أحرقت الدنيا بمن فيها.

. لقد مسّك الجنون.

صرخ ثم قام فوضع يده في النار غير عابئ باحتراقها، التقط البرديات فتفتتت بين أصابعه هباءً منثوراً، أغمض عينيه في حزن ثم فتحهما فنظر للبرديات التي أنقذها من يد ناديا، كانت بردياته المترجمة، عدا الجزء الذي سهر لأجله أمس، الجزء الخاص بخروج الرعاة، لم لم برمياته وحزمها قبل أن يدسها في ملابسه، نظر لناديا في غضب مكبوت ثم خرج من المذود في خطوات واسعة واتجه جنوباً، قامت ناديا فاتبعته عن بعد، مغورقة عينها بالدموع ومعصورة قلبها بالحزن والنده، تهمس في سرها ولا تجد إجابة:

«ما الذي فعلت أيتها الخرقاء؟ لو مكانه ما عدت إلى، ما وثقت في؟ يا لها من طبيعة، طبيعتي، أثر حثى أحرق القرى والزرع، لا أملك لنفسي رداعاً أو تحويلًا، ثور أعمى وخذ بسجين في كبده، ثم أهدا فأدرك، أني قد أشعلت النيران في أحباب من عرفت، ثم تكتشف الأسباب أمام عيني كأنني امرأة أخرى، أعرف، أعرف أن الفتاة البيضاء لم تكون لتنثيره، أعرف أنه مخلص في عشقه فالأخرين لا تكذب، ربما هي أثارتني أنا؟ نعم، وفيها ما كان في يوماً، كان لي بيت وأم وأب، كنت فتاة مدللة قبل أن أصير عازفة إليوسيس، كنت فتاة عادية، لها حلم واحد ب الرجل ناضج مثل كاي، حلم يتبدل الآن أمام عيني، كدحان البرديات التي أحرقتها.

صفعت نفسها مائة مرّة، ومزقت أشواك الزروع بآناملها حتى أدمت نفسها، تسير وراءه ولا تجرؤ على الاقتراب، تنظر حولها بحثاً عن العاهرة التي دفعتها من فوق الجبل، حتى علا نديبها فتوقفت وتوقف، هز رأسه ثم التفت إليها ورفع يديه فاقتربت، أرسست آناملها في كفه:

ـ تحرقين بردياتي لغيره انتابتكم!

ـ وأحرق الدنيا كلها، من أجلك.

ـ تلك البرديات تجعل لشقايني معنى، بدونها لن أكون كاي الذي تحبين، لا تهددي السلام الذي رأيته في عينيك، لا تعكري العشق الذي استولى عليّ.



اغفر لي جنوبي.

أحاط رأسها بكفيه العريضتين:

. يُضْنِنِي ضعْفِي تجاهك، أصير طفلاً أمام أمّه.

انغرست في حضنه دون كلمة، بكت ثم قبلت يديه.

. لن أقف حائلاً أمام ترجمتك ثانية، سأقتل تلك الأخرى التي تعيش بداخلي إن رأيتها، سأقطع لسانها، سأمزقها.

نظر كاي في عينيها اللتين ترقرقتا:

. لن نتوقف حتى نصل إلى المستنقعات، هي على بعد ساعات.





حين دلفا إلى المستنقعات كان الليل قد وقع، نور القمر يسفل على فروع الأشجار المتتشابكة ويصل إلى الأرض، الأعين المضيئة تشتعل ببريق كالنار، والرائحة النفاذة للملح الآسن تغمر الأنف والصدر. سار كاي وفي أثره ناديا، تقواهم الغثيان والخوف، وتقواهم النظر حولها خوفاً من أسوأ مخلوقات الليل؛ عاهرتها، تسمع هسيسها بين الأشجار فتنظر لكاي وتضغط على أصابعه ذوداً، حتى بلغا البركة التي قابل أباها عندها يوماً، نادى في الفضاء باسمه، مرات ومرات ولم يتلقِ إجابة:

أيكون قد رحل؟ أو حدث له مكروه؟

أبوكِ رجل تمرس على حياة المستنقع، لعله بدأ إقامته، أو لعله يصطاد بومه أو فاراً لوجبة الليلة.

امتعض وجهها فارتجمت، أحاطها بذراعيه ودلك ظهرها قبل أن تنتابه رعشة حين نظر لكتلة أسفل الشجرة التي رقد يوماً تحتها، فقد كان الطبيب عزيز راقداً، مطعوناً في البطن... دون أن يفلتها من حضنه سلت سُكينه من جزمه وهيمس:

ناديا، عليك أن تثقني بي.

لا أثق إلا بك.



. علينا أن نرحل من هنا.

. لماذا؟

. أبوك لن يعود.

. تشنّجت فلما حها:

. كيف عرفت؟

نظرت في عينيه فالتفتت بغتة إلى جسد أبيها، صرخت في هلع قبل أن تدفن رأسها في صدر كاي، كان ذلك حين ارتفع الصوت من بين الأغصان:

. أرجو أن يكون الكاهن قد استحق العناء.

ضربت الرُّعْشَةُ أطرافها وسقط قلبها على الأرض الطينية. التفتا في فزع، الظلام كان كفيناً بمُضاعفة الرعب فيهما، وضع كاي نادياً خلف ظهره وتأهبت أطرافه فشهر السكين قبل أن يتكرر النداء من مكان آخر:

. من يعرفك مثلي؟ من وطنك مثلي؟

ثم علت زمرة تعرفها، زمرة سيربيروس. غادرت الدماء جسد نادياً وانتصب شعر رأسها، أردف الصوت: ما كذبتي عيناي يوماً، كنت أراك عارية من الداخل مثل الخارج، أرى الدم حين يصعد إلى وجنتيك، أرى لعابك حين يسيل، كالكلبة، وحدقتك اللتين تضيقان فلا تخفيان العجب، فمنذ فتح الكاهن فمه وألقى سحر كلماته لم تعودي نادياً التي رتّها يداي.

أنهى آرام كلماته ثم خرج من بين الأغصان المتشابكة، ممسكاً بجنزير رقبة كلبه سيربيروس، مقاوِماً اندفاعه. أضاء نور القمر وجهها زينه جرح غائر تحت العين اليسرى، وقف فابتسم ثم أمال رأسه يتأمل كاي ونادياً قبل أن يشير إلى جرحه: جئت أباك كي أطلبك للزواج، قلت له إنني يهودي، وإنني سأترك ديني من أجل ابنتك، حكيت له كم أنت شهيبة، كم أن



غنجك وبحة صوتك لا تغادران أذني، كم أنت خائنة لا تحفظي عهداً. وحين حكيت عن ماضيك في إليوسيس، وكيف انتسلت من تحت الرجال، ثارت ثائرته، طعنبي بسكين فأخذت عيني، فشققت بطنه دفاعاً عن نفسي.

بكت ناديا، بكت حتى أصدر قلبها الدقة الناقصة، بردت أطراافها بغثة وانسحبت روحها إلى قدميها فاستمسكت بكتف كاي الذي صالح:

دعها وشأنها، ألا يكفيك ما فعلت؟

. الآن أسمع صوتك، تخضب من أجلها؟ لم لا نزيل الغشاوة عن عينيها؟ لم لا نريها من الأجرد بحبها، كاهن أم رجل حقيقي؟

وأقفلت ناديا على الأرض بجانب قدمي كاي فتأهب للقتال:

قاتلني إذن.

. لتواجه آرام، وتتل شرف منازلة سيد شباب حي دلنا، عليك أن تثبت جدارتك.

قالها آرام قبل أن يفلت الجنزير، ركب سيربىروس نحو كاي بعينين بارقتين، يزمجر في غضب شربه من يد سيده وبكسر الأنابيب، لم يكن بحاجة أن يشرح له آرام ما عليه فعله، وفي الحلبات تعلم شيئاً واحداً، أن المخلوقات ليست إلا قاتلاً أو مقتولة. قفز على كاي الذي رفع ذراعه مسدداً سكينه، أمال سيربىروس رأسه فغرر الأنابيب في المعصم متجلباً النصل قبل أن يسقط فوق كاي دافنا جسده في طين المستنقع، ملوحاً برأسه يميناً ويساراً ممزقاً اللحم مهشماً العظام، صرخ كاي ألمًا قبل أن يغوص رأسه في الوحل، قاوم الألم والطين الذي ملا فمه حتى اعتدل بصعوبة ليبحث عن السكين، لمح آرام يقترب من ناديا وينحدر عليها، قبل أن يدفعه الكلب دفعاً للوحل ثانية، غاص كاي فمد يده والتقط أذن سيربىروس، جذبه ناحيته ليقاوم الدفن فرجع الكلب للوراء خطوة فخرج معه كاي، لمح ناديا على كتف آرام فحمله كالذبيحة، ضرب بيده وجه سيربىروس فأصاب عينيه ولم يتراجع الكلب عن فهمته، فما كانت تلك الضربات لتضاهي منازلة بحلبة ديونيسيوس، زاجر وازاد شراسة وانقضاضاً، لمح كاي ذراع ناديا مرتبخة على ظهر آرام، تغوص معه في ظلمات الأشجار المتتشابكة.



بآخر ما أوتي من قوة صرخ، صرخ من أجل ناديا ومن أجل روحه التي تسلب منه، دفع ذراعه التي تمزقت في فك سيربيروس وضرب بيده الوحل بحثاً عن السكين. حتى التقط حجراً، ضرب به وجه الكلب مرتين قبل أن يترك الكلب ذراعه، ويغرس أنيابه في ذراعه الثانية، سقط الحجر فضرب العينين بأصبعيه فأفلت الكلب ذراعه وعض ساقه ثم فخذله، جذب كاي ثم أطاح به وبرك على ظهره فغرز أنيابه في الكتف، ضرب بكتفه الكلب الذي طوх به، صرخ فتردد ألمه في المُستنقع، فغرس سيربيروس أنيابه في العضد، ثم وهنت المقاومة. الطين احتلّ بالدم في عينيه، وتولّت المياه المالحة كي اللحم، الصريح لم يعد مجدياً، أو المقاومة، سُكّن كاي فسكن الكلب بعد لحظات، لما لمس الموت في غريمه، قرّب أنفه من الوجه يستشعر أهارات الحياة، قبل أن يسلي لعابه على الأذن، لهث بنفسه كريه ثم وقف بقائمته على الصدر، ينهج ويستشعر نبض غريمه، ويتهدأ للنهاية، ينتهي قطعة الرقبة دائمًا تبدو شهية، تحسّم آخر رعشات الحياة وتنهي الجدال في العروق، انحنى على كاي وفتح فمه فطوح الأخير يده بحجر أصاب رأس سيربيروس، نبح في ألم ثم هجم على كاي الذي لم يمهله الوقت أن يقوم، هم بغرس أنيابه في ذراع كاي فتلقي ضربة ثانية أبعدته ذراعين، زُجَّ في غضب عارم ثم تهيا لهجوم أخير حين نبح في ألم، ثنى رأسه لينظر إلى قائمته الخلفية، قائمته التي حشرت بين فكّي تممساح، التف حول نفسه حتى كاد يكسر ظهره فغض رأس التممساح ولم يتأثر الجلد السميك، اتخد الأمر لحظات نبح فيها استغاثة بكاي الذي لم يقو على الاشتباك أو القيام، قبل أن يسحبه التممساح بعد مقاومة شرسة، إلى القاع.

رغم الألم.

رغم النزيف.

ورغم الموت المُقنع.

كان على كاي أن يقوم، فالتماسيخ لن يُشبعها كلب، حتى ولو كان بحجم سيربيروس العظيم، والضياع لا تنتظر الضحية حتى تموت، بل تشرع في أكلها وهي تنفس، بحث كاي عن طرف في جسده يستطيع التوكؤ عليه حتى عثر على ساق لم تصبها إلا كدمات، استند عليها وقام مبتعداً عن محل التماسيخ، صرخ في ألم فاللتقطت أذناه حركة خافتة ورأى الأعين المضيئة، كان عليه أن يتبع الطريق الذي سار فيه آرام، لكن تقضي خطواته كان مستحيلًا في



الظلام، علاوة على أن عليه إقناع النزيف بالتوقف حتى لا يسقط مغشياً عليه. بحث عن البرديات المتبقية حتى التقطها من الوحل، رفعها على فرع شجرة لتجف ثم مزق إزاره بصعوبة، ضم ساقه وذراعه، ولم يمهله الوقت ليغطي كتفه بورق الجميز، سقط مغشياً عليه حتى انبلاج الفجر، ثم فتح عينيه بغتة لما شعر باحتراق جسده، اعتدل فرعاً فقام على ساقيه، قبل أن يسقط، استند على جذع ليستوعب ما حدث قبل أن يستدرك صراعه مع سيربيروس، التقط أوراق أشجار يعلم خصائصها، دسها في فمه محاولاً أن يستسيغ طعمها، ثم وضع بعضها على جروحه والتقط البرديات الباقية، تضرر ببعضها ومُحِي الحبر عن بعض السطور، لغها بحزامها الجلدي وثبتتها على ظهره، ثم زحف حتى الطريق الذي سار فيه آرام، بحث عن أولى الخطوات فحفظ معالمها، قدم غليظة تحمل عشه على الكتف اليمنى، اتكاً على آلامه فقام، يقاوم ألمًا من تهتك الجروح، رتل متون الاستغاثة وشكراً للراعي في دعاء لأنه حفظ عينيه اللتين سيتقضى بهما طريق الخروج، التقط عصا تمنى أن تكون كعاصًا موسى، ثم سار وراء الخطوات لساعة حتى توقفت، أثر جسد نادياً مستلقية على الوحل وأثر جسد أثقل برك لدقائق بركتيه استجلاباً للراحة، نادياً لم تفق من غيبتها، قلبها الضعيف لم يتحمل، رقدت ساكنة حتى استراح فحملها متكتناً على ساقه اليسرى، فبدلًا الحمل بين كتفيه، نظر كاي لاتجاه الشمس فوجدها إلى الشرق تسير، آرام يعود بغيريته إلى الإسكندرية.

اتخذ الأمر من كاي ساعات طويلة حتى بلغ نهاية أراضي المستنقع، خرج راحفاً على ركبتيه وكوعيه، يغطيه الوحل كخنزير وتكسوه أوراق الشجر وفضلات الطيور، استلقى على ظهره لساعات لم يحصلها، حتى ضرب الأرض قرب وجهه خفٌّ ناقة تحمل رجلاً لم تسمح الشمس بتبيان ملامحه، قبل أن تغرب الشمس بغتة.





بعد أربعة عشر يوماً.

طريق المقابر الغربية كان يمتد من الشارع الكانوبي لينتهي ببواة القمر، ثم ينحرف جنوباً حيث تصطف مقابر الجيتيين في ساحة واسعة لها بوابة يحرسها تمثال كبير لإدريس بلونه الأخضر الرائق.

قبل شهرين كان الملك قد أمر بتشييد مقبرة فخمة لها نفق عميق، نقلت إليها متعلقات الكاهن القتيل ثم نقشت جدرانها بالأدعية والابتهاالت والمقولات التي آمن بها فرددتها طوال حياته، ثم تحدد ميعاد مسيرة الوداع فتم إعلام الناس في الأبواق، تجمهر أهالي راقودة والجاليات الأجنبية في طريق المقبرة، وتغيب اليهود، يرتدي الجمع زي الجنائز الأبيض ويرفعون سعن التخيل، أما الأطفال فيحملون تماثيل صغيرة من الكتان المحسو بحبوب القمح والشعير، على شكل جسد إدريس، يغمرونها بالماء العذب لينبت الزرع وتبرز عيدهانه الخضراء من بين ثنياً الجسد، تمهدياً لوضعها عند باب المقبرة، محملة بأدعية لهم وابتهاالتهم، «تنبت كالقمح، تنمو كالقمح، وتخلد في سنابل كالقمح».

سار الموكب مهيباً يتقدّمه الملك وحاشيته وعلى رأسهم مردحاني، يمشي في خشوع خلف التابوت المحمول على عربة تجرّها الخيول، النحيب والدعاء لم ينقطعوا طوال المسيرة التي توقفت مرتين، مرة أمام المكتبة الكبيرة التي تدين له بالفضل، ومرة قرب معبد إدريس الذي درّس فيه اللاهوت للكهنة، قبل أن تصل المسيرة للمقبرة، ازداد النحيب وارتفعت الصوات تعدد مآثر الكاهن وتمنى له الخلود في رحلته التالية، ثم نزل الجسد إلى المقبرة وسط صمت



مهيب، مصحوباً بأوان تحوي أعضاءه، وتماثيل إدريس الحارسة، ثم أغلقت البوابات وضربت عليها الأختام، ووضع الملك إكليلًا من الورود قبل أن يلقي خطبة حكى فيها عن الفقيد وما ذرته، كيف قابله وماذا تعلم منه، ثم سُكِّب كأس نبيذ على الأرض ليشربه التراب تحية وتوديعاً.

ثم رحل الملك بعدما أوكل إلى مردحه استقبال الوفود المعزية، جلس في مقصورة تقىء الشمس وسمح للعامة بزيارة القبر في طابور طويل، يقفون أمام الباب المختوم، يضعون التماثيل والجعارين المحفورة بالدعاء، وسعف النخيل، ويصلون على الراحل مدرفين الدمع، كان مردحه في قراره نفسه ينتظر ظهور الفتى الجيبيتي، فجئته لم يعثر عليها في المستنقعات، حفظ حراسته أن يرصدوا إن حضر، فذلك النوع من التابعين ما كانت لتفوته جنازة معلمها، مائيتون، ذلك اللعين الذي لا يموت، دائمًا ما قالت أمّه «راعوث» إن كهنة الجيبيتين مثلهم مثل الجعارين، حتى وإن ماتت أجسادها ألف عام، فإنها ما تلبث أن تتنفس وتحرك مع أول قطرة ليمون تنزل عليها، من أجل ذلك حرص مردحه أن يخفف عنها العذاب، فهي من حددت يوم دفنه في النجوم ليكون يوم نحس وكرب، ثم رافقها إلى المعبد ليلة الدفن لتنظر إلى جسد القتيل قبل غلق الثابت، في ضوء شمعة رمقته لدقائق ثم اقتربت فتللت اللعنات وبصقت على الوجه، ثم أخرجت وريقات التعاويد فدستها في الكتان الملفوف حوله، واستبدلت جعارين الحماية على صدره بجعارين المقت لاستجلاب الضرر إلى روحه ومنعها من التعرُّف على الجسد، ثم وضع الخنافس الحية في الإناء المرمرى الذي يحوى الكبد قبل أن تلتفت لابنها متهدجة الأنفاس شافية غليلها بجحظ عينين وزيد من الحماس على جوانب الفم.

عادت الدماء إلى وجهك يا أمري.

لو ما أوصيتني بكتمان أمري لمزقت جسده وأكلته.

قالتها ثم جحظت عيناها:

هل وجدت تلميذه؟

نعم، نهشه كلب من كلابنا في المستنقعات.



. والبرديات؟

«ألا تهدئين يا أمي؟ ألا تتركين الرجال ليتولوا مهامهم؟ لم لا تنزوين إلى الشيخوخة الهنيئة التي يصادق فيها الأجداد أبناء الأبناء؟».

أفاق فردخاي من شروده:

فقد معظمها في الوحل يا أمي، وما تبقى أحرقته.

أكان فيها ذكر لأحمس؟

. نعم.

الكاهن خلد الملعون في قائمة الملوك، وضعه على رأس ملوك الأسرة الثامنة عشرة، كان يتشدق بسيرته، ويتجاهل سنتات شعب وتيهاً وملحمة ما فتئت إلى الآن تنزف.

لقد أرسلت رجالاً إلى مقابر «أحمس» وقواده، سبزيلون النقوش التي تذكر اسمبني إسرائيل ليلاً، وستتولى الأيام والأترية طمس ما تبقى، كما أمرت ب مجرد رفوف المكتبة واستخراج ما دون عنه، سنستعيدها ولن نعيدها، لتصير سيرته إلى زوال.

. وماذا عن تلاميذه من الكهنة؟ ماذا عن البرديات التي يخفونها في الخزان؟ ماذا عن...؟

قاطعها فردخاي

. أهآها كفى، قد نلت انتقامك الذي طلبت.

نظرت إليه «راعوث» في استنكار:

تريدني أنأشيخ يا فردخاي؟ أن أموت؟ تراني أخرف؟ إنني أنتقم لحي دلتا بأكمله، أنتقم لأجدادك وأجداد أجدادك.



إنني مشقق على قلبك الذي لا يرتاح، تهلكينه كأنك فتاة في العشرين.

طالما أتنفس وأتكلم فسأظل أسعى لرفع اسم شعب الرب، وستظل طفلاً في عيني أرعاك وأوجهك.

أنا لم أعد صغيراً يا أمّاه، أنا أدير قصر إله يمشي على الأرض.

ترقرقت عينها:

تربيد لأمرك الموت يا مُرْدَخَاي؟

بل أريد لك الحياة، الراحة.

لا راحة لي ونحن محاطون بالجيبيتين.

أعدك أن لا تزيدهم الأيام إلا تخبطاً وإنزلاقاً في الوحل.

نظرت «راعوث» إلى جسد مانيتون ثم إلى عيني ابنها قبل أن تتهجد أنفاسها. هزّ رأسها في أسى وابتعدت، حاول أن يمسك رسغها فنزعـتـ ذراعـهاـ بـعـصـبـيـةـ وـغمـخـمـتـ بـالـاسـتـيـاءـ.

أفاق مُرْدَخَاي من شروده بعد وقت لم يحصه حين خُلِّـ إـلـيـهـ أـنـهـ سـمـعـ هـمـسـةـ فـيـ أـدـنـهـ، هـمـسـةـ تـنـطـقـ اـسـمـ كـايـ، أو ربما كلمة قاتل، تلقت حوله فلم تجد عيناه إلا الجموع في ساحة المقبرة. ثم رأه، ركض نحوه وجذب كتفه فلم يجده كاي، كان شخصاً يشبهه، لما عاد إلى كرسيه وجد على المنضدة برديات ملفوفة بحزام جلدي، برديات يعرفها، تأهبت أعضاؤه فالتقطعاً وابتعد إلى خيمة الاستراحة، صرف الحاضرين فيها وأمر حرأسه بعدم الدخول عليه قبل أن يفضي البرديات، فمسح هيراطيقية مانيتون ونهاية قصة موسى التي كانت بحوزة كاي، قبل أن يستشعر شيئاً بين البرديات، فض الأوراق حتى آخر ورقة، وإذا بها قبل أن ينتبه تنقض كالسهم نحوه، سوداء، تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان صفراء، كالأعين، همسـتـ بـفـحـيـحـهاـ عـلـىـ عـجـلـ ثـمـ رـشـقـتـ نـابـيـهـاـ فـيـ رـقـبـتـهـ، أـفـرـغـتـ السـمـ فـيـ لـحـظـةـ قـبـلـ أـنـ يـدـفـعـهـاـ جـزـعـاـ بـيـدـ تـأـخـرـتـ وـصـرـخـةـ يـاـسـ، وـقـعـتـ عـلـىـ الـأـرـضـ فـتـلـوـتـ ثـمـ اـنـتـصـبـتـ اـسـتـعـداـداـ لـهـجـومـ جـدـيدـ، أـمـسـكـ مـرـدـخـاـيـ رـقـبـتـهـ فـيـ الـمـ وـتـرـاجـعـ خـطـوـاتـ شـاهـرـاـ خـنـجـرـهـ جـاحـظـ العـيـنـيـنـ يـحـدـجـهـاـ بـإـجـالـ وـخـشـيـةـ، فـلـمـ تـكـنـ الـمـرـةـ الـأـوـلـىـ التـيـ يـقـابـلـهـاـ، كـمـ تـأـمـلـهـاـ



لليال طوال تتلوى في أقفاص المساجين، تقترب منهم فيتناشونها في رُكن، يتكونون ويدودون بالأيدي والسيقان، ويدفع بعضهم بعضاً ناحيتها، قبل أن تنقض في سرعة فتخترق أنيابها ساقاً واحدة منهم، يسري الألم بعد لحظات، كما يستشعره الآن في رقبته، سخونة في موضع اللدغة، اضطراب في التنفس وضربات القلب، وخدر في الأطراف، اقترب من الباب فتوسّط المسافة، نادي في الحرس فلم يستجب أحد، فصوت المتنحّبين على مانيتون والمبهللين كان عالياً، ثم زاغ البصر، رمش بعينيه حتى رأى الأفعى اثنتين، برك على ركبتيه غصباً فضرب موضع القلب بقبضته يستحثه على الصمود حين انتابه الخيان وبردت أطراقه وتقياً، اقترب الثعبان ذراعاً فرقى بخنجره تجاهه، تجنبه الأخير فزحف ناحية مُرْدَخَاي الذي سقط على ظهره، تحسّس موضع اللدغة الذي توّرم وانتفخ، قبل أن يفقد الإحساس بأطراقه، كان ذلك حين اقترب الثعبان، التقطت أذناه الفحيح، كأنه ينطق بالكلمات: «أنا سيدة الرمال، حارسة الملوك وساكنة التيجان، الجلال على من زرع الحركة في أطرافي وحقن الموت في أنيابي، باسم الذي سخرني، لن أعود إلا ظافرة». كان ذلك قبل أن تلثم مُرْدَخَاي بثلاث قبّلات في الوجه والصدر، قبّلات أقنعته بعدم جدوى الحياة.





بعد يومين.

اهتزت الإسكندرية لخبر مقتل رئيس القصر بلدعة ثعبان، أعلن الحداد العام وتجمّع أهالي حي اليهود أمام منزل السيدة «راعوث»، ملفوفين بالحزن فضريبيين بالصمت، عاجزة قلوبهم عن استيعاب وطأة الخبر ونكبة فقد، فمردحاي كان أباً لأبنائهم، وفخراً لشيوخهم، وقرة عين لوالدته، سيدة الحي التي توسّطت فناء دارها فوق كرسي عالٍ، ترثدي السواد وتغطي وجهها بخمار شفاف يخفى الأسى واللهمّ، تقدم الناس منها في طابور دائري، ينحدرون أمامها ويضعون الورود وشقّقات الفخار المحفورة بالأدعية ويرددون الابتهاج جلباً للسكينة والصبر، لم تتحرك السيدة أو ترمي حتى تحركت الشمس إلى غروب، رفعت يدها فتوقفت حركة المُعزّين، ضرب الخبر آذان الواقفين خارجاً فترزاحوا حولها، رفعت ذمارها في هدوء، وبملاطفة تملؤها الإرادة وصوت قوي قال:

بعرق جبينك تأكل خبزاً، حتى تعود إلى الأرض، فمنها أخذت لأنك تراب، وإلى التراب تعود.

ردد الشيوخ وراءها آيات سفر التكوين وجثنا الشباب في إجلال ثم ساد الصمت، أردفت:

مات مردحاي، فخر رجال حي دلنا، ابن رجمي، مات وهو يترجم توراتكم إلى لغة اليونانيين، مات كي تقرعواها، كي تعرفوا تاريخكم، كي ترددوا ما ثر أجدادكم وبطولاتهم، كي لا تنسوا يوماً أقهرنا ملكاً ظالماً، كي لا تنسوا أننا هزمنا جيشه من البائدين، همج إنجيبت التي لا يستحقونها، مات كي لا تنسوا أن أرض الفيروز أرضكم التي ورثتموها عن



مُوسى بوعد يهوه الأبدي، مات كي لا تنسوا أنكم من بنitem المجد لتلك الأرض، فما أنتم إلا نسل إبراهيم المقدس،  
النسل المختار، حملة التوراة، حملة شعلة الرب.

سكتت فدمعت الأعين وتردد النحيب في الصدور، اتكأت على عصاتها ودخلت إلى بيتها ولم تغادره ثانية، حتى ماتت  
بعد شهور قليلة.





حين أوى كاي إلى البيت كان مضطرباً ترتعش أطرافه، كان أسدًا غرف صدره ببرائته فمزق القلب وأخرج الأحشاء، فللتتو  
كان يتقصّي أثر ناديا في مزرعة آرام للمرة الثالثة، راقب المكان ساعات طويلة قبل أن يداهمه، تسلق السور الخشبي  
فوجد المنزل مهجوراً والكلاب فيه ترعى والقطط، بلا صاحب، تفقد أوانِي الطعام المليئة بالتراب وأثار الأقدام الأرضية  
الوحيدة التي ترجع لخطوات آرام، «ناديا لم تدخل تلك المزرعة منذ رحلت معه، ناديا لم تعد إليها حين خرجت على  
كتف آرام من المستنقع، ربما هلكت ولم تصل إلى الإسكندرية؟ وربما قتلها؟ أو اختار لها منزل آخر تقضي فيه حياتها؟  
أم أنها ركنت إليه واستسلمت؟ فآرام عاشق قد يهُب لها ما لم أستطع: الأمان، كيف لرئتي أن تنفساً؟ كيف لمعدتي  
أن تعضم الطعام؟ بل كيف لروحِي أن تستقر في أوصالي في الليل وأنا أعرف أن حبيبتي عادت إلى جلادها؟  
ستنهك، ستستحلّ مثلما استحلّت إيجيبت أمام جحافل الفرس واليونانيين، لن تنفعني الابتهاالت فلم يعد فمي  
قادراً على ترددها، ولم يعد عقلي يستطيع استدعاءها، فالعشق ثم فقد قادران على قتل ثور فتي في البرية دون  
أن تمسه الوحوش، أيا إدريس، يا معلمي الأكبر، لا تشفع لي عند راعي السماء كي يخفف عنِي الجبل الذي يجثم على  
صدرِي؟ لا تنزعها من قلبي ومن روحي ومن أفخاري؟ لا ترحمني من لھفة وشخف وحزن وكمد؟ فموتها بات عندي  
أهون من أن أراها بصحبته، اللعنة على ابتلاء لم أظنه مصيبةني، ابتلاء كنت أسرّه منه في وجوه العباد، اللعنة على  
نفسِي التي لم تعد ساكنة، نفسِي العاجزة المضطربة، تعيش النهار لتفحّر، وتقضي الليل لتتذكرة ضوء القمر على  
شعرها، رعشة شفتِها في النهر والجسدين جسد واحد، صوتها المبحوح وهي تنطق أسمِي».



وبكي كاي، بحرقة لم يعهدوها في جواره، بكى كالطفل وتشنّج، حتى أتت سيدة الدار العجوز؛ زوجة الرجل الذي انتشل ما تبقى منه بجانب المستنقع. كان عائداً في قافلة تجارة حين وجده ملقى، مغطى بالوحش ومنهوشًا بالجروح، وقف بالناقة قريه حتى استشعر نفسها في صدره فحمله ودخل به أطراف الإسكندرية الغربية حيث يقطن تجار الماشية، سجأه في سرير ووضعت امرأته المراهم على جلده وحشت لحمه بالملح قبل أن يغرق في النوم لأيام بتأثير الحمى ولا ينطق لسانه سوى باسم ناديا. حتى تحسّن بعد أيام وأفاق وكان أول ما سأل عنه البرديات التي انتزعوها من عليه، وحين أمسكت جروح فخذه عن النزيف قام كالمسوس، غاب ليوم كامل ليعود في الليل وفي وجهه أحارات الموت، يقضى ليله في الدعاء للزوجين العجوزين وقراءة مَتُون الرحمة من أجلهم، ثم ينزوّي في غرفة قبليّة، ليتم ترجمته التي جرّت عليه الوبات، ثم يأتي النهار فيعود لجولته بحثاً عن ناديا، متخفياً مثلما برداء التجار، حتى سمع يوماً عن جنازة الكاهن الأعظم، سياواري التراب وقاتله حر مختار يتلقى التعازي فيه، ماذا عن لقاء آخر؟ يرسم فيه نهايته أو نهاية الكاهن الذي صرّعه العشق قبل أنياب الكلب! خرج كاي في الليل وتمشى حتى بحيرة قربة، جلس فسكن ثم قرأ السلام على سيدة الرمال، حارسة الملوك ساكنة التيجان، قضى ليته في ترقب، وفي منتصف اليوم التالي أتاه خبر مردّه، فلكلهنة إيجيبت سحر يؤثر في تسخير الثعابين، لا يخرج إلا لشر البشر، ذهب بعدها فتقصد رحيق حبيبته في أركان الإسكندرية، حتى أنهكت قواه فعاد إلى بردياته، إلى موسى وهارون وبني إسرائيل؛ بنو الملاعين، يخلط كاي هباب الآنية بصمغ السنط وبدموع يذرفها على فراق ناديا وابن محتمل في أحشائها، دموع لم تمنعه من استكمال ما بدأ، فقبيلة بنو إسرائيل كانت تقضي ليتها بجانب اليم، ملتفين حول النيران مُتلاصقين، الأعين ترقب والأذان تنصدّ، ومُوسى وهارون يمران بينهم ليربّتا على كتف هذا ويثبتا قلب هذا، وتولت مريم أمّ النساء والأطفال، تغنجي لهم وتحكي الحكايات السعيدة، حتى عاد الفتية مع بزوج الفجر يجرون خلفهم الإحباط والخيبة، لم يعثروا لفرعون على أثر، كأنه ثعبان صحراء دفن نفسه في الرمال، صاح موسى في القبيلة أن يستعدوا للسير شرقاً فز مجروا واستنكروا قبل أن يخطب فيهم هارون بأن الانتقام للراعي ولملك الجيبتيين من بعده، هز الشباب رءوسهم صاغرين وتهامس الشيوخ بصوت أرادوا أن يصل للأذوين: «لم لا نعود لهوارة وقد بتنا في كنف الملك الجيبتي؟ سيكون لنا الحظوة والعلو على القبائل». ليجيبهم موسى: «هكذا أمر ربّنا»، ينظرون إليه ولعصاباته ثم يتهامسون فيما بينهم.

تحركت القبيلة شرقاً لثلاثة أيام قبل أن تنزل قرب معبد حتحور الجيبتي، وضعوا الرحال في طريق العير وصعد



موسى هضبة المعبد بصحبة بعض فتية القبيلة، وبينهم السامری بعدما التمّس من هارون العفو فتوسط له عند أخيه الذي قبل اعتذاره، وشيخ القبيلة الذي أصرّ على مُرافقته موسى ليضمن لنفسه مكاناً في زعامة تخلخل تحت قدميه.

حين وصلوا المعبد قرع موسى الباب، طلب من الكهنة المؤنّ بعدم حکي لهم ما كان من أمر هوارة وملكتها. نظر الكهنة في خطوط كفه اليمنى حتى وجدوا علامات النجوم فضررت البشرى وجوههم فقتلوا جبينه وأكرموا زيارته، وزودوه بمؤنٍ تكفي قومه عشرة أيام. كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها أفراد منبني إسرائيل معبداً جيبيتاً، هالتهم التماثيل والأعمدة، وأدهشتهم البحيرة المقدسة وأرباء الكهنة، قبل أن يرحلوا، حاملين زادهم عبر الطريق الوعر، التحموا بقومهم ثم تحركوا شرقاً، يقصون لأقرانهم عجائب المعبد الجيبيتي والتماثيل التي شاهدوها، قبل أن يقترب الفتى السامری من موسى. مشى وراءه حتى أشار له موسى أن يقترب، في دشوع قال:

لقد عرف الكهنة الجيبيتون سيدی من خطوط كفهـا

لهم في قراءة الكفوف خبرة، وعين بصيرة لا تراها الأعين.

وأشار موسى لمنتصف جبينه، ضربت الدهشة ملامح السامری فأردفـ:

هل إلههم كالهنا؟

الراعي واحد، وهم أول من عرفوه على يد نبی مثلي يدعى إدريس.

لِمَ لَا يكون لنا إله مثلهم؟

ماذا تقصد؟

التماثيل: حين تدرك الأعين إلهها تتودد إليه وتزداد يقيناً.

يا فتى ماذا كنت تعمل في هوارة؟



. أتحت التمايل.

ضحك موسى:

. الآن فهمت، أصغ، إن ما بصرته من تماثيل مجثحة لبشر وبعضاها ذات رءوس حيوانات إنما نحتت لتبجيل وتوقيير

النورانيين، يسميهم الجيبتيون «نيثرو»؛ أي الملائكة، حملة العرش، أعون الراعي، جنود السماء المحاربين.

. هل يراهم الجيبتيون ولا نراهم؟

. لا تراهم إلا القلوب المضيئة، وذكرت أوصافهم في صحف «سر الملوك» لنبي الجيبتيين إدريس.

. وهل يحتاج الراعي لأعون وهو خالق كل شيء؟

. هو خالق الأعون أيضاً، يعهد إليهم بالمهام التي لا يقوم بها الإله، فهو محارب للشر حافظ للعدالة في الأرض،

وللنجموم في أفلاكها، بكل ملاك مسئول عن نجم في السماء، وسيط بين رب والبشر.

. مثلك ومثل هارون أخيك؟

. شيء مثل ذلك، لكن هارون إنسان وأنا إنسان.

. وماذا عن تمثال العجل والهلال المائل بين قرنيه؟ أليس ذلك برب صراء؟

. يا أحمق، إن تمثال العجل ما هو إلا تبجيل لقدرة الإله في هذا المخلوق؛ تكريماً لبعيمة هي مصدر الخير ليس إلا.

مثل تمثال الجعران؛ تبجيل لقدرة الخالق في البعث.

. لكنهم يقدمون لها القرابين؟

. بل يضع الناس الطعام والشراب أمام الراعي ليذهب للفقراء، فيعرف الخير فيهم.

. ألا يعرف؟



ألا تصمت؟

الأسئلة تخمس جبهتي وتجثم على صدري.

الصبر من الفضائل.

لِمَ لَا يكلمنا فنراه؟

ألا تكفيك آياته؟

بلى ولكن... القوم يريدون أن يروا خالقهم.

الخالق لا يرى بالعين.

ل يجعل له جسداً إذن فيحل فيه ويكلمنا.

لا تنطق تلك الكلمات فأنت لن تفهم حكمـةـ الجـيبـتـينـ.

وـماـ الفـارـقـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـهـ؟

إنـهـمـ مـلـكـوـ الـعـلـمـ وـعـرـفـواـ إـلـهـ وـتـطـهـرـواـ مـنـ الجـهـلـ وـالـدـنـسـ.

حين وصلت القبيلة إلى الشطر الأيمن لجبل الطور أمرهم موسى بالمكوث وضرب الخيام، سأله ماذا يأكلون فأجابـهمـ بأنـ الرـاعـيـ قدـ سـخـرـ لـهـ المـنـ:ـ هـادـةـ لـزـجـةـ حـلوـةـ المـذـاقـ تـفـرـزـهاـ شـجـرـةـ الـأـنـثـلـ،ـ والـسـلـوـيـ،ـ طـبـرـاـ مـهـاجـرـاـ طـرـيـ اللـحـمـ.

كـلـواـ قـدـرـ حاجـتـكـمـ وـلـاـ تـخـزـنـواـ،ـ فـسـتـأـتـيـكـمـ عـطـاـيـاـ الرـاعـيـ فـيـ كـلـ يـوـمـ.

تركـهـمـ يـحـصـرـونـ الشـجـرـ الـذـيـ اـنـسـابـ مـنـهـ الـمـنـ،ـ والـسـلـوـيـ الـذـيـ هـبـطـ عـلـىـ الـأـرـضـ فـالـتـقـطـهـ الـفـتـيـةـ دـوـنـ مجـهـودـ،ـ قبلـ أـنـ يـقـرـأـ الشـكـ فـيـ أـعـيـنـ الشـيـوخـ،ـ نـادـيـ هـارـونـ:



.سأعهد إليك بالقبيلة وأصعد إلى الجبل.

.لِمَ لا تنتظِر حتى تستقر النفوس؟

.لقد أمرني الراعي بالخلوة فور ما أستطيع.

.كم ستغيب؟

.ثلاثين ليلة.

.يا ابن أم هل تظنهُم سيمصدرون لأوامرِي دونك كل ذلك الزمن؟

.أنت منهم، يصدقونك.

.دون العصا ودونك يستذئبون.

.لا أظن بعد انشقاق البحر يعصون لنا أمراً.

.إنما أخشى الشيوخ، قلوبهم مغلفة بالحقد، يتربصون بنا وبهمسون بالمكر ليسترجعوا مكانتهم.

.هؤلاء الحمقى منذ أيام كانوا يعيشون في خرائب، الآن يبحثون عن مكانتهم؟

.الطموح يقتل صاحبه.

.إنهم في حضن الجبل، قبائل الشرق أمامهم وجندي الجبيترين من ذلفهم، أين تظنهُم سيطمون؟

.احتضنه هارون وقبل جبينه وهو موسى بالصعود حين اقترب الفتى السامري.

.سيدي، دعني أكُن خادمك المطبخ.

.عُد يا فتى من حيث أتيت.



سأحمل متابعاًك وسأسجد حين أرى إلهك، لتشملني بركته.

إن كنت ساصلب أحداً من القبيلة فسيكون أخي هارون.

هناك صوت يناديني من فوق الجبل، أكاد أحبيه، اجعلني خادمك، سأضع يدي في كل جحر حتى لا يلدغك ثعبان، أنوسل إليك.

بل كُن بين قومك عوناً ولأخي هارون سندًا حتى أعود.

وإن لم تَعْدْ؟

رفقه موسى في صمت فاستدرك السامراني:

إن آثرت الراعي علينا أو منعك من العودة؟

دع الأمر للخالق.

قالها هارون فهز موسى رأسه ثم صعد الصخر يستند عصاه، حتى اختفى.

في الأيام الأولى انشغل الناس بملء بطونهم بالسلوى، يلتقطه الفتية بلا مجهد فيذبحونه، ويجمعون الماء من الشجر في السلال، يخمسونه في البتاو الذي حملوه من معبد حتحور، ويشربون ماء مطر من غمام يظللهم ولا يكاد يتحرك، بعد أيام ضربهم الملل والفتور، ينتظرون للجبل نهاراً متربقيين عودة رسول الراعي، وفي الليل يلتلفون حول النار مستدفين مستائسين قبل أن يضرب أحدهم الدف وينفتح آخر في الناري فيرقصون ويلهون حتى تخمد قوتهم، فيأowوا إلى الكهوف وثنايا الصخور فيعتلون بعضهم بعضاً، شهوة وذوقاً، حتى يأتي الفجر.

في اليوم الواحد والثلاثين ارتفع صوت:

لم يهبط من السلوى اليوم إلا أفراخ معدودة؟ ما البديل إن كفَّت عن الزيارة ونحن بلا أقواس نصطاد بها أو



ماشية نرعاها؟ وقد أمرنا بعدم التخزين!

**قال هارون بهدوء:**

نَحْنُ فِي كَفَالَةِ الرَّاعِيِّ، لَنْ يُضِيقَنَا.

ساد الصمت لدقائق قبل أن يقول قائل:

السنا في اليوم الواحد والثلاثين لصعود موسى؟

اعق هارون صاحب الصوت ثم نظر للجهاز الصامت و قال :

٦٧

أدشنوا أن يمكن قد أصابه مركبة وقد طالبوا الأمان

فضن بخشش، صدیقه الائمه

Sudan

Digitized by srujanika@gmail.com

#### **Satellite-based navigation**

<http://www.lib.utexas.edu/staff/tech/act.htm>

Section 1

Digitized by srujanika@gmail.com

106 of 110 pages | 0 0 0 0 0 0 0 0 0 0



سرت الهممـات فالتفت هارون للصخرة التي رفع السامرـي صـوـته من فوقها:

أظـنـونـها صـدـفةـ أن يـفـرـ منـكـمـ بـعـدـمـ عـصـيـتمـ الرـاعـيـ؟ـ لـقـدـ نـجـاـ لـأـنـ صـدـورـكـمـ تـحـمـلـ الدـنـسـ وـالـقـادـورـاتـ.

سـادـ الصـمـتـ وـوـقـفـ هـارـونـ يـتأـمـلـ السـامـرـيـ الذـيـ أـرـدـفـ:

أـتـعـرـفـونـ لـمـ لـمـ يـهـبـطـ الرـسـوـلـ؟ـ

انـزـلـ عـنـ الصـخـرـةـ يـاـ فـتـىـ؟ـ

صـاحـ هـارـونـ.

أـرـدـفـ السـامـرـيـ كـأـنـ لـمـ يـسـمـعـهـ:

لـأـنـ الرـاعـيـ يـأـبـيـ رـؤـيـتـكـمـ،ـ فـأـنـتـمـ لـمـ تـبـلـغـوهـ كـمـاـ يـبـلـغـ الـجـبـيـتـيـوـنـ رـسـلـهـ وـمـلـائـكـتـهـ.

أـرـفـعـ صـوـتـ،ـ

مـاـذـاـ نـفـعـ؟ـ

رـسـوـلـكـمـ لـنـ يـهـبـطـ الـجـبـلـ إـلـاـ إـذـاـ تـطـهـرـنـاـ مـنـ الدـنـسـ،ـ حـيـنـتـذـ نـتـلـقـيـ حـكـمـةـ وـعـلـمـ السـابـقـيـنـ؛ـ الـجـبـيـتـيـيـنـ.

هـزـتـ بـعـضـ الرـءـوسـ وـاـشـرـأـبـتـ أـعـنـاقـ الشـيـوخـ فـيـ تـرـقـبـ،ـ يـصـغـونـ لـصـوـتـ فـحـبـ إـلـىـ قـلـوبـهـمـ؛ـ صـوـتـ الصـدـعـ.

اقـرـبـ هـارـونـ فـصـعـدـ الصـخـرـةـ بـجـانـبـ الـفـتـىـ السـامـرـيـ

ـ يـاـ قـوـمـ،ـ تـلـكـ بـذـورـ الـفـرـقةـ وـالـعـصـيـانـ تـأـتـيـكـمـ مـنـ قـمـ لاـ يـعـلـمـ مـنـ أـمـرـ الرـاعـيـ شـيـئـاـ،ـ لـقـدـ أـمـرـنـاـ بـالـمـكـوـثـ وـالـسـكـونـ

ـ وـلـمـ نـؤـمـرـ بـالـسـؤـالـ.

رفع السامرـيـ صـوـتهـ:

إـلـىـ مـتـىـ؟ـ



لحين يأذن الراعي ويعود موسى.

ثلاثون يوماً لا ندري عنه خبراً، ولا يجرؤ أحد على الصعود خلفه، ما يدرينا إن كان قد مات أو صعد إلى بيت الراعي

أو ...

قاطعه هارون:

إن أخي في عنابة الراعي، لا يظلمه ولا يقتله، إن تأخر فلحكمة سنعلمها حين يهبط

. وإن لم يهبط؟

ابتلع هارون ريقه:

سأتولى أمركم.

بلا عصا؟ بلا علامات؟

لم نعد بحاجة إليها.

لِمَ لَمْ تُصَاحِبْهُ فِي صَعْدَدْ؟

أمرني أن أكون فيكم.

أم أنت لا ترقى لرؤية الراعي؟

نظر القوم لهارون في ترقب، قال:

لا يسأل عما يفعل وتسألون عما تفعلون.

ارتفاع صوت:

موسى لن يعود.



وقال آخر:

.لقد غضب الرب علينا فتركنا.

رفع هارون صوته:

.ماذا تقولون، أنسىت أعينكم البحر المشقوق والثعبان المبين؟ أنسىت قلوبكم الإيمان بالراعي؟

قفز السامي من فوق الصخرة فمشي بين الناس يلامس أكتافهم:

.يا قوم، إن الراعي اختصنا من دون القبائل، بل من دون البشر، شق لنا بحراً وأغرق عدواً، وضلل رءوسنا بالغيام وأنزل إلينا المن والسلوى، لا نظهر أنفسنا ونخلص من الأوزار التي حملناها من المصر لعله يتجلى لنا كما تجلى لموسى عند الشجرة؟ لنسترضيه ونبجله، نصنع من خطابانا جسداً تتجلى فيه روح الراعي، لنحرق الطعام قريانا بين قدميه فيفرضي عنا ويرد لنا موسى وتنهيا أجسادنا لرؤيه الخالق.

.ماذا تقولون؟ لقد شق الراعي البحر لأن عدوكم فعل ما فعل آباؤكم الأولون، ثم ظلللكم بالغيام وأعدق عليكم من الخيرات لتحملوا رسالته، لتحملوا ما سيهبط به موسى من ذلك الجبل.

.لقد قال موسى إن الجيبتين لم يعرفوا الإله إلا حين تطهروا من الجهل والذئب.

.ما بالك تفتأ تذكر الجيبتين! هؤلاء قوم نزل عليهم رسول من قبل، تماثيلهم ليست آلهة، هؤلاء شعب عرموا الراعي قبل أن تجروا، لهم شأنهم ولهم شأنكم.

صرخ السامي:

.نحن أولى بالإله منهم، نحن قبيلة الراعي الأثيرة، إن تجلى لأحد فلن يتجلى إلا لنا.

استحسنـت الآذان ما سمعـت فـسرـت هـممـات ضـاعـ فيها صـوت هـارـون، رـفع السـامي صـوـته:

.من يـرغـب عن التـطـهـر فـلـيـلـزم جـانـب هـارـون، وـمـن أـرـاد الـخـالـص فـلـيـضـع حـلـي الـقـبـائل وـالـأسـاـور وـمـا كـان عـلـى الـجـنـد



من زينة في تلك الحفرة.

اقتربت مريم من هارون وقد حاوشه بعض الفتية يريدون به إيذاء:

ماذا تفعلون؟ تريدون أن تقتلوا من تربى بينكم؟ رسول الراعي إليكم، العار في وجوهكم، العار في أولادكم.

انسحب هارون إلى طرف الجبل بعدما قذف بحجر من مجھول فشق جبهته وأسال دمه، تبعه من القوم فئة قليلة ليس من بينهم الشیوخ الذين كانوا أول الملتقطين حول الفتی السامی. حين هدأت الجلبة سأل التابعون عما يجب أن يكون فائز هارون انتظار أديه عن بُث الفرقہ بين القبیلة حتى لا يقضوا على بعضهم البعض بلا عدو. قضى ليلا في مراقبة الجبل ومناجاة الراعي، وفي النهار يتبع القوم يتحرکون بين يدي الفتی السامی كأنهم دفع من القش، جمعوا الحلی الذهبیة والزینة في حفرة كبيرة، صهرواها تحت نار عظیمة اشتعلت لليلتين متتاليتين حتى لانت المعادن وسائل فصیلها السامی في قالب محکم نحته من القدور على شکل عجل، حتى إذا بردت المعادن أزال السامی قالب وعمل عليه طرفاً وحفرًا لثلاثة أيام حتى بدت الملامح: أذنان، عينان من الفیروز، وأنف ثقبه كالنای وأنفذه لمؤخرة العجل فدخله الهواء والتفسی صوتاً يشبه الخوار، ما إن سمعه التابعون حتى هلعوا فرفع السامی صوته:

لقد حل الراعي في الجسد، تجلی لكم من دون القبائل وأثرکم.

ذرعوا سجداً فالتفت السامی لعجله وسط دهشة هارون وتابعه ورفع يديه متضرعاً:

يا إله الآلهة، ألقينا أو زارنا في جوفك وسجدنا أمامك خطأ، لتطهرنا، وتغید علينا فوسی، رسولك، أو تحلل روحه في جسدي فأتكلم بفمك وأسير بقدميك، ساريق الدم من أجلك وأحرق اللحم، وساطعن بقرونك من يأبون هبتك.

قالها وهو ينظر لهارون وأتباعه ثم أمسك ببعض العجل المتدلی:

مرحی لفحولتك، لتهبنا العیمنة على القبائل وتوثّرنا عنهم، لتکن لنا العظمة والسُّمُّ، لنکن المختارین دائمًا



وأبداً، فما شققت البحر من أجل أحد من قبلنا.

صرخت مريم في شيخ القبيلة:

يا كبير القبيلة! أتذمّر الراعي بعد أن جاءكم موسى بالأيات؟ تعبد عجلًا لا حول له ولا قوّة؟

نظر إليها الشيخ ثم أشاح بوجهه تجاه عجله لأن لم يسمعها وأردف السامری:

خوار الحلول لا يسمحه إلا المؤمنون.

جذب هارون عضد أخيه فهمس:

لا طائل من كلماتك إلا الفرقة والاختلاف.

ألا ترى ما يفعلون؟

هؤلاء هم بنو إسرائيل الذين تربينا بينهم، ذراف جشعة لا عقل لها، ما كانوا ليخرجوا من الخراب دون عصا.

لعمري أراهم يقتاتون الريا ويمتصون رهونات الفقراء كالخفافيش، لا أشفق إلا على موسى حين يعود.

أخوك لم يهبط الجبل منذ أربعة وثلاثين يوماً أخشى أن يكون أحدهم قد تسلل إلى خلوته فقتلته في غفلة

منا.

ما كان الراعي ليترك موسى فريسة للمضللين.

اصعد إليه.

لم يوح إلي الراعي أو يأتيني المنام.

هل سنترکهم؟

حتى يعود موسى.



. وإذا لم يَعْدْ ؟

نظر إليها هارون ولم يعقب، كان ذلك حين رفع السامرِي يديه وصوته:  
أيها الرب، إن كان موسى حيا فأعده إلينا، وإن لم يكن، فلترسل إلينا عالمة، ولتسر أهاننا فترشدنا إلى مصيرنا.  
أرض أبنائك و...  
.

لم يكُد ينْهَاي كلماته حتى صدرت من الشرق فرقعة مدوية وتساوى بالأرض جبل كان شامخاً، في طرفة عين،  
مَحَدُّثاً باندكاكه رعدة أرضية لم ير لها مثيلاً من قبل سارت تحت القوم في موجة رفعتهم عن الأرض وأوقعتهم  
فزعين، قبل أن يبتعد الصدى عن الآذان قام السامرِي بوجه هربت الدماء منه، رفع يديه عالياً وجثا أمام العجل:  
المَجْدُ لَكَ وَلَفْحُوكَ، يَا مَجَامِعَ الْأَرْضِ، يَا وَاطُوقَ السَّمَاءِ.  
.

ثم التفت للناس:  
لقد قال الراعي كلمته، مات صاحب الثعبان، مضى زمانه وأتوا زمان صاحب العجل، هَلَّمُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلِ،  
أتريدون عالمة أكبر من ذلك؟ لقد انشق البحر لموسى ودك الجبل لأجلِي، من أراد السلامة فليتبعوني.  
قام هارون يساند مريم.  
.

ما الذي يحدث يا هارون؟  
إنه هذا لشيء عجائب، شيء يحدث لأهلك يَا مَرِيمِ.  
ما كاد يتم هارون كلمته حتى خُزِّنَصف الواقفين من أتباعه سجداً لعجل السامرِي الذي اقترب منه شيوخ  
القبائل يتبركون بملامسته وينظرون لهارون ورهطه الباقيين باستعلاء.  
اندكاك الجبل لن يزيد هذا الملعون إلا أنصاراً.  
لا نملك إلا الانتظار.  
.



في الأيام التالية انعزل هارون وجماعته في ركن بجوار الطريق الهابط من الجبل، يتحملون نظرات السخرية وصبر انتظار الغائب، محفوفين بالخطر مرصدون من جماعة السامری، يحيطون بهارون ومريم في نوبات حراسة بعد أن تعددت فتى ملثم من القبيلة على هارون قاصداً قتله لولا أن صدّوه، أما العجل فبات مزاراً للمربيدين: يطوفون حوله ويرقصون، ثم يحرقون تحته الطيور والأعشاب التي يجمعونها، ويتمسحون بالفتوى السامری الذي يتكلم بكلمات موسى ويرسم لهم طريقهم، قبل أن يجذب الخرقة التي تسد أنف العجل فيجري الهواء في منخاره ليؤفن على كلماته بخوار عجيب يتتردد صداه في الأجواء فيختر القوم على وجوههم سجناً ويبتهلون، ثم يشعلون النار ويتوددون للقمر أن ينصرهم، في اليوم الأربعين لغياب موسى التقط هارون صوت خطوات تدب على الصخر، ثالث خطوات: قدمين وعصا، قام متخفذاً جاحظ العينين ففزع من حوله، التقط شعلة نار واتجه ناحية الطريق الهابط حين لمح قدماً أخيه، نحيفتين تديان على الأرض في حزم، رفع الشعلة فأبصر العصا وألواماً حجرية يحملها بين يديه، ثم نظر في الوجه، فقد الكثير من لحمه فبرزت عظامه وإن امتلاً بدموية الغضب، كاد قلب هارون أن يقفز من صدره، ركب الـأخيه حتى كاد يقع قبل أن يفتح ذراعيه احتضاناً

اپنے کیتھ میں اپنے ام؟

ألقى موسى عصاه والألواح ومد خطواته حتى قبض على لحية هارون وأحاط عنقه بذراعيه، ذهل الجمع القليلون قبل أن يستيقظ الناس تباعاً فيتحمّعوا.

اعصت أمرى يا هارون؟ ما منعك اذ رأيتم ضلوا؟

جاءه هارون ليسجد نفساً إلى ربِّه

يَا أَيُّهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِهِ وَلَا بِرَأْسِهِ إِنَّهُ خَسِيرٌ فَرَقَ هَارُونَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَرْقُبْ قَوْلِي.

يا ليتك فرقت، لقد أتاني الأمر وأنا بين يدي ربي فكدت القوى بنفسي من فوق الجبل غصباً.

رکبت مریم فاستم سکت بعض موسوی



يا موسى، إن أخاك كاد يُقتل في انتظارك.

أردف هارون:

إنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمَتْ بِنَا أَتْبَاعُ السَّامِرِيِّ.

نظر موسى لمريم وللقوم المتجمعين قبل أن يزفر غضبه ويحرر رأس هارون:

أين السامری؟

أشار هارون إلى العجل فشقَّ موسى الطريق نحوه. مشى بين وجوه ضربها الوحش وأجساد ترتعش. يفسحون له ثم يسجدون في نحيب وندم، مقطوعي الأنفاس لا يقوون على الحركة، ينظرون لخائب عاد من العدم، غائب ظلّوه مات أو قُتل، أو ضل طريقه بين السحاب.

حين أصبح موسى أمام العجل توقف وتأمله، النار كانت تزيد جسده لمعة وبرقاً، نظر لل القوم من حوله شرزاً فتراجعوا في دائرة تتسع قبل أن يصعد لمنصة العجل وينظر في وجهه المحفور وأنفه الذي يصدر الخوار، ثم رفع أصابعه فسد النقابين ليُسكت الصوت فنادي:

اخرج يا سامری...

تردد الصدى في الجبال فخرج الفتى من وراء صخرة، شاحب اللون جاحظ العينين متهدج الأنفاس، ركض فاعتلى منصة العجل وسجد بين قدمي موسى:

سيدي، كدنا ننيأس من عودتك، لقد عكفت تحت قدمي الإله لأبتهل عَلَكَ تعود...

أأنت من صنعت ذلك الوهم؟

أتاني الرب في المنام فأمرني...

قبل أن يكمل السامری كلمته صفعه موسى:



. كاذب.

سقط الفتى أرضاً فامسك موسى بتلابيبه.

أصعد الجبل لأقابل ربِّي فتصنع لهؤلاء العميان صنماً! كيف تجرؤ؟

لقد سأله عنك فأعطي العلامة بأنك قد مت.

. سألت من؟ العجل؟ أيها المضل، كيف سوت لك نفسك؟

. بصرت بما لم يبصر به القوم.

سكنت الرياح والأنفاس وشرارت الأعناق حول المنصة.

. بصرت بماذا؟

. بالوسيط.

أي وسيط تقصد؟

رأيتك تحكم الفراغ في طرف الجبل وتتمتم بالهمسات قبل أن تصعد، فادركت أنه حاضر؛ النيثر، الملائكة النوراني، نور تلألأ من حولك ما لبث أن طار بجناحيه في السماء، حين رحلت ذهبت إلى حيث كنتما مجتمعين فأخذت قبضة من الرمال التي وطئتها قدماه وأقيتها في قدر الحلبي السائلة فوق النار، ليتجلى الملائكة في العجل كما تجلى للجيبيتين في معابدهم.

نظر موسى لعيوني السامراني اللتين لمعتا ببريق الجنون:

أنت فاسد العقل، لقد أوحى لي الرب صعود الجبل ولم يرسل ملائكته.

ها أنت تقول ملائكته، ما يدرك أن الرب لم يبعثني مثلك؟ صدقناك حين أتيك العلامات.



.تعبد صنماً نحتته يدك وتدعى النبوة؟

التفت موسى للناس:

. ذلك الفتى تطلع إلى قوم نزلت عليهم رسائل السماء فأضاءت طريقهم قبل أن توحدوا. قوم بنوا أهراماً ومحابداً لتقديس الرب وملائكته، قوم نزل فيهم «إدريس». أغرّتكم الآيات التي نصرتكم أم عميت نفوسكم؟ تضلّون بعد أن انشق لكم بحر وغرق جند الطاغية أمام أعينكم؟

ارتفاع صوت:

. لكن السامری أثنا بعلامة، اندهش الجبل كان لم يكن.

ضرب موسى جبهته:

. تلك العالمة لم تكن لكم؛ فقد طلبت من الرب رؤيتها. تحلى للجبل فلم يتتحمل ظهوره، اندهش من فوره فصُعِقت، وقعت على الأرض لساعات لا أستطيع قيامًا من هول ما رأيت.

سكت موسى وقد جحظت عيناه وتهذّجت أنفاسه قبل أن ينظر لشيخ القبيلة:

. لا أظلكم آمنتم بذلك العجل، أعينكم تفضحكم، إنما أعنتم ذلك الأحمق ونصرتموه لاستعادة ما كان لكم من خطوة، أن تخونوا القبيلة وتخدعوا الأغراء فيها ليعودوا تحت إمرتكم خير من أن تخونوا الرب، ما لكم تنتظرون إلى كاني أقول شيئاً ليس فيكم؟ نعم، إنما اتبعتم ذلك الغريب لأن ما أتي به يتبع أهواكم.

. لست بغربي، لقد رأيت النور الذي تراه، هو من أمرني بالتطهر وبسبك الخطايا.

. ما رأيت إلا شيطان نفسك، هيأ لك الكفر بالرب.

. إن أراد الرب بنا خيراً فلهم ما يمنعني؟ لم لا يدمر ما صنعت؟

. ليختبر نفوسكم يا حمقى، وقد سقط أكثركم، فالرب يريد ليفرز من يستحق العهد ممن لا يستحق، إن الذين



اتخذوا العجل إلهًا سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة. كذلك يجزي المفترين.

ثم التفت موسى للسامري:

. أما أنت فلا مكان لك هنا، اغرب عن وجهي.

نظر الفتى السامري للناس ولموسى في غضب:

. لا بأس، فساكن العجل سينصرني.

. ستلازمك الوحدة والنبد طوال حياتك، ستتوه روحك وتختبئ الأذيلة حتى تتمني الموت، سيهلك جسدك لتقابل الرب فيأجرك بما فعلت، ولكن لن تغادرنا حتى تنظر إلى الهك الذي صنعت، لنحرقنه ونسحقه فننشره في اليمّ أمام عينيك.

قالها موسى ثم دفع العجل بقدمه فأسقطه على الأرض.

لم يسكت عن موسى الغضب حتى صهر العجل في الأتون الذي سبك فيه، قبل أن يدق المعدن حتى فته قطعاً صغيرة ونثره في اليم، ثم أمر شيوخ القبيلة قبل الفتية أن يشربوا منه ويعبووا وكاد أن يغرق أحدهم في فورة غضب، أما السامري فراقب ما يحدث بصدمة قبل أن يهرب ركضاً أمام أعين القوم حتى غلّفه الظلام.

تلك الليلة لم يزر موسى النوم، التمس صفاصفة كالتي قابل الرب فيها أول مرة، استند الجذع واحتضن الألواح ينظفها ويمسحها نادماً على إلقائها على الأرض، يتطلع للفجر الذي ينبلج بعينين جاحظتين لا ترمشان، تتردد بداخله آخر كلمات الملك الجببتي: «اكتب سجلاً لرحلتك، منذ بعثت وحتى تموت، واثمن علىها شخصاً تعرفه، فأعين قومك لا تحمل الخير».

«صدقت».

زفرها موسى ثم نظر للأغصان المتسلية حوله كالستائر فرفع يده، لامس إحداها فسررت بداخله رعشة يتذكرها رعشة لمس النور، أغمض عينيه حتى أصبح والغضن جسداً واحداً ثم همس:



اغفر لي غضبي وإلقاء الألواح، لقد أوكللتني نفوساً خانعة، ذليلة عن رضا، فارغة من روحك، لا تركن إلا إلى طين الأرض، كيف سيحملون كلماتك إلى الأعم وهم للإثارة أبعد؟ كيف ستلتقي تلك القلوب حكمتك؟

سَكَتْ مُوسى فداعب النسيم وجهه ثم وقع في قلبه الصوت:

إنِّي أعلم مَا لَا تعلم.

هَذِ مُوسى رأسه مؤمناً:

الجال لك يا علي يا حكيم، سأسير كما أمرتني، وسأبلغ حكمتك، لتضمن لي طريقاً لعل روحي تمضي إلى أرض الأبدية والخلود، لتحفظنا من الشر وتخمرنا بعنائك، ولتأذن لي أن أتبع ما قال الملك الجيبي فأدُون سجلاً بأيامي فاحفظ سيرتي لأمم تستحق من أحفادبني إسرائيل، أو من غيرهم.

لا يدرى كم من الوقت مر قبل أن يخرج من ردامه قلم البوص وحفلة من بودرة النيلة الزرقاء، بل لها بمياه الصفاصفة وغمس البوصة،

أنا موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم متابع ملة إدريس الحنيفية، أكتب ذلك الكتاب في العام ٤٨٩ هـ من التوقيت التحتوي بالجانب الشرقي للليم بأرض الفيروز...

ظننتك ستقتل الفتى بعد أن كدت لترديني!

التفت موسى فوجد هارون جالساً القرفصاء يراقبه،

إن كنت تلقيت الخبر من فم العلي في صمت الجبل لذبحته قبل أن يتكلم.

ولم لم تفعل؟

من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لا إكراه، هكذا قال ربك.

وماذا عن الذين اتبعوا الفتى وعبدوا العجل وقد أمرتهم بقتل أنفسهم؟



ذلك حكم الغضب، سيعرضون على الرب فيقضى فيهم ما هو قاض، ولتغفر لي أخذني برأسك يا أخي.

هَذِهِ هارون رأسه ثم جلس بجانب موسى مستنداً إلى الجذع:

لا عليك، لقد اعتدت طبعك يا مضطرب المزاج، ماذا تكتب؟

سجلأً بأيامي.

دهش هارون:

سجل؟ لماذا؟

أعين القوم تفصح الغدر فيهم، وأخشى أن يأتي يوم يسبكون فيه معبوداً من دون الرب ليكتب باسمي

واسمك كتاباً يقدسونه.

لَكُنَا وحيدانٌ بِينَهُمْ

ليحفظه الأطول عمراً فينا.

وحين يموت؟

إن لم نجد من نثق فيه يوماً فنحن هالكان.

ضرب الصمت الأخوين قبل أن يسأل هارون:

ماذا حدث فوق الجبل؟

في القمة أرض مقعرة تملئ بالأمطار، في وسطها صَفَّاصَافَةُ أَكْبَرُ مِنْ تِلْكَ الَّتِي نَجَّلَسْ تَحْتَهَا وَأَغْزَرْ أَوْرَاقَهَا وَأَغْصَانَهَا، أَدْرَكَتْهَا لَيْلًا وَكَانَتْ تَشَعُّ بِنُورٍ فِيروزِي يَتَمَوَّجُ، دَخَلَتْ فِي سَتَّائِرِهَا وَجَثَوْتْ فِي الْمَيَاهِ خَائِفًا، حَتَّى تَكَلَّمَ رَبِّي، أَمْرَنِي بِالصِّيَامِ إِلَّا مِنْ مَيَاهِ الشَّجَرَةِ وَأَوْرَاقِهَا، وَأَمْرَنِي بِالصَّبَرِ، وَالصَّمَتِ، قَضَيْتِ الأَيَّامِ فِي دَاخِلِهَا لَا أَخْرُجُ وَلَا



أقضى حاجتي، فلم أشعر بحاجة، حتى مُحِيط الفرق بين اليقظة والنوم، بين النهار والليل، بين الحياة والموت، شعرت في لحظات أن لا حاجة لي في التنفس أو الطعام، أو رؤية من البشر أحد، حتى أبنائي، لم أتذكرهم، ثم بدأت عيناي تدركان الأطياف النورانية: الملائكة، الذين يُنثرون الذين كنت أراهم مجسدين في معبد «أون»، لهم رءوس كرعوس الطيور والأسود وأجنحة هائلة، يأتون في كل يوم ويجهرون عند الشجرة، يبتهلون ويسبحون فأصبح معهم في عقلبي، كنت أرتعد ثم ينساب بداخلي سلام عجيب واطمئنان، حتى تقدم أحدهم يوماً وكان له رأس كرأس «أبو منجل». وضع تلك الألواح أمامي ثم رفع كفه فاخترت صدري، لم أشعر بشيء، فقط برودة منعشة ثم نور مبهر غشى عيني قبل أن أفيق مستلقياً على جنبي تحت الشجرة وقد حفظ قلبي ما فيها من أوامر وقوانين، كان ذلك ليلاً، ثم بدأت الشجرة تنبض بالنور وتتلاًّ فسجدتَ ووقيع في صدري الصوت، طلب مني أن أبلغ القوم الحكمة والوصايا ثم سألني عن تعجلِي الصعود فأجبته باني تركتهم في أثيري مطمئنين وعجلت إليك رب لترضى، فقال لي إنه اختبر القوم وفتنهم لكي يعلم من المخلص ومن الخائن، وأسرَّ لي باسم الفتى السامي فلم أتمالك روعي، حملت الألواح ونزلت الجبل قفزاً حتى كدت أكسر ساقِي، وهذا أنا أمامك.

يا لها من رحلة اشتقت أن أكون معك.

كان على الصبور الحكيم أن يبقى.

ابتسم هارون:

ما الذي أطالت بك الأمد حتى أربعين يوماً؟

الأسئلة، فأذوك لا يكفي عن الأسئلة، تكلمت فكسرت صومي فأراد ربي أن استمر حتى أبلغ الصفاء الكامل.

وماذا بعد؟

سنبلغ القوم ما جاءنا من رب، سيكون على قراءة الألواح وسيكون عليك تعليمهم العبادة وإقامة مناسكهم، أما الآن فأمرهم بشد الرحال استعداداً للاتجاه شرقاً.





لا خوف يعلو فوق خوف هارب.

فائد للدهن مشوش الذهن بارق البصر يركض ويتلتفت، كأنب يائس يطارده فهد، الجلد أحرقته الشمس، والقدمان مجروحتان متقرحتان من حواف الصخور، في الرئتين سعال دموي وفي الفم قبح وفي العينين، يتقي بسيفه الجوارح من الطيور والأسد والضبع والذئب والحيث، والفتية المتربصون، لا يراهم لكنه يسمع همساتهم في رأسه، أو هكذا يخيل إليه، فيقوم من خلف صخرة أو من داخل جحر ليركض فرعاً، بلا توقف، يقتات في طريقه العشب والفنران والحيات، ويشرب من بوادي المياه في الشقوق، ثم يدركه التعب فيixer على ظهره قبل أن تبدأ الضحكات في مهاجمته حتى ينقطع نفسه وينزف دماً فيغشى عليه لساعات لا يُحصيها، يرى فيها من الهواجس ما يواظبه فرعاً، قبل أن يواصل الركض.

اتخذ الأمر منه ليالي طوالاً حتى بلغ الوادي فالجبل، جبل ثمود ببرية فاران، لم تتغير معالمه رغم السنين، الصخر الأحمر، الفجوات التي يخافها الصغار، والرياح التي تخللها فتصرخ في الصدور بالفزع، فلتلت منه ضحكة حين تذكر نفسه طفلاً صغيراً يسكنه الخوف، قبل أن يركض بما تبقى له من قوة غير مبال بجروح جديدة تشق جلده وصبية يراقبونه، حتى بلغ السفح الذي طالما نهي عن اللعب قريه، جثا على ركبتيه ملتقطاً أنفاسه رافعاً عينيه للجبل، سعل بحشحة شديدة ثم قام فتشبث بالصخر وبدأ الصعود، لنفس الفجوة التي صعد إليها غالماً، تعثر فسقط، تأوه ثم قام، صعد ثانية فسقط، ثم نجح في الصعود ثالثة، استوى على أرض الفجوة يسعل في



نزيف كاد يغرق في دمائه، حتى التقط أنفاسه، زحف فبحث في الصخر عن اسمه الذي حفره بسكين قبل خمسة وخمسين عاماً حتى وجده مطموسًا، أزال التراب عنه بطرف سيفه وأكَّد الحفر، ثم جلس فارجاً قدميه، ينظر في طلام الفجوة ويتمتم لأول مرة منذ أربعين يوماً:

ان كنت موجوداً فأصدر صوتاً، قل شيئاً، تذمر، هز جبلك بغضب، أو، اقبضني.

الذين عثروا على جسده في الفجوة كانوا صبية صغاراً رأوه يتسلق فتتبعوه، انزعوا سيفه، والحلقات النحاسية التي ضفرها في لحيته وحاتماً ذهبياً عليه نقش لرأس عجل له قرنان، لما شوهد في يد غلام صعد أبوه والرجال إلى الفجوة فوجدوا الجسد دافناً والنفس ضعيفاً والضمير ينذف، حملوه إلى دار حكيم القرية فتعرفه بعض الشيوخ من لعبوا معه صبياً، ليث في الدار لثلاثة أيام لا يستجيب جسده لعشب أو شراب، ثلاثة أيام تجمّع الناس فيها ليتطأعوا لرجل ولد فيهم، صبياً عيذاً تيم بجبل الآباء حتى خلب عقله، ثم رحل غريباً حتى صار ملكاً لمصر التي يأبِّي بيت، قبل أن يعود إليهم، بدأ بلا روح.

في فجر اليوم الرابع سرت البرودة في الجسد وتغير لونه، أبي الناس دفنه قبل أن يطلعوا عليه فضولاً، وضعوا جثته على حصيرة في فناء ومرروا عليه لنهر كامل يتأملونه ويلمسون جثته، حتى بدأت كرشه في الانتفاخ وتكاثر الذباب حوله.

في الليل دفنه شيخوخ القرية في مكان لا يعلم إلا نفر قليلون حتى لا يصير مزاراً للعابثين أو المربيدين، وتم طمس اسمه من فجوة الجبل وصُهر سيفه وحاتمه، خوفاً من انتقام الجيبيين.



♀

♀

♀

«جزء مفقود من البرديات يخص سنوات التيه، وقع بحوزة فردخاى ولم يعد بالإمكان استرجاعه. كان على أنا كاي مترجم تلك البرديات من الهيراطيقية إلى اليونانية أن أقفز بالبوصة سنوات في سيرةنبي الرعاة. وليخفر لي العليُّ الحكيم تقصيرى وإهمالى».





بعد سنوات.

الحدود الشرقية لأرض الفيروز.

حين وصل الجيش كان الثلوج يُخطئي الجبال والوديان وجذوع النخيل. جلس أفراد القبيلة كُتّل من الفروع يستدفِئ بعضهم ببعض حول النيران. كُتل لا تبدو منها سوى الأعين والأنوف، والتساؤلات، يتداولون الهمسات في صمت وهم يراقبون الملك الذي ذاع صيته وترددت سيرته وسبقه الأخبار؛ أحمس يحاصر حصون الرعاة في هوارة وما حولها. أحمس يحتاج، أحمس يشتت، أحمس يطرد وينكل، الجيبتيون يهبطون من الجنوب إلى الشمال ليسكناً أراضي المكسوس التي هجروها لمائة سنة ويزيد، مناوشات وهجوم مُفاجئ من القبائل يصدح جيش الجيبتيين، القبائل تضعف، تستسلم، ترحل شرقاً، تخاف أسد الفتى الجيبتي وتحاكى عنه... لم يبق من الرعاة في أرض الفيروز سوى شرذم متفرقة وجماعات ممزقة بالكاد تحمي نفسها، يحرص الملك على تصفيه وجودها كي لا تختل ثانية، يدفعها شرقاً نحو منتها الأصلي ويزرع الحاميات ويبني القلاع.وها هو يلتقي بموسى بعد سنين غياب، ينزل عن حصانه المغطى بالوبر ليحتضن حليقه بحميمية ويتبادل حديثاً قصيراً ثم يمضي لبقعة بعيدة يحرسها الجند فلا تتسلل منها الكلمات. يجلس أحمس على كرسيه ويضع الحراس كرسيّاً يماثله لموسى ويشعرون النار بينهما.



ظننت أنّ لن أراك ثانية.

زفر أحمس ببخار دافئ:

إزالة ما خلفه رأس العجل سيرته أحفاد أحفادي.

هل عثرت عليه؟

. ترددت شائعة عن وصوله قريته ببرية فاران وموته هناك، لم يعد أمره يعنيني، فثاري منه حفرته للزمن على جدران معبدِي ومقبرتي.

. صدقت، الانتقام سمة الأحساء، أعنيه من فتية القبيلة وشيوخها المُخربين، لا زالوا يتسممون رائحته رغبة في تمزيق جسده والتنكيل به، توافت عقولهم عند لحظة شق البحر ولم يغادروها حتى الآن، يظلون أنفسهم شعب الرب المختار.

. «أغبياء، من يتوقف عن الحركة، يمُت». حكمة لا تخادر عقلِي، أجول من أجلها الأرضي، بلا توقف، أقتحم الحصون وأفتح المدن، أبني القناطر وأصلاح القنوات التي خربوها قبل رحيلهم، ثم يتبعدي الكوشيون في الجنوب فأرسل إليهم من يردعهم، وفجأة يناؤش الليبيون من الغرب فأردهم، حتى الأسد مرض ولم يعد يستطيع مجاراتي.

. الرب في السماء يعرف جسامه حملك، لكنه يؤيدك ويحميك.

. ماذا عنك؟ ما الذي حدث في السنين الماضية؟ وأين أخوك هارون؟

. ذلك ما طلبت لقاءك من أجله، لقد مات هارون منذ ثلاثة أسابيع، عثرنا على جثته عند سفح الجبل الشرقي، مهشمة الرأس.

فزع أحمس:

. قُتل يا لها من مأساة، هل عرف قاتله؟



. كما ترى، أنا أقود نصف من خرجت بهم من البحر، انشق البعض كفراً وراء فتى ظالم، والبقية تفوح منها رائحة التمرد، فمنذ نزل أمر الرب بالخروج من إيجيبت شرقاً، بت أرى في أعينهم الخنوع والتراجع، وفي فمهم السخرية، لقد أمرهم الرب بالاستعداد لقتال مرتب مع القبائل الرعوية، ووعدهم التأييد بالنصر وجند من الملائكة، وكان جوابهم: «اذهب أنت وريك فقاتلا إنا هنا قاعدون». مما كان مني إلا أن ابتهلت وطلبت من ربِّي أن يُفرق بيني وبين الفاسقين.

. ذلك نذير سوء، استعد معي للرحيل إلى طيبة، وسأتکفل بإخراج قاتل أخيك من بين هؤلاء الخونة.  
لا أستطيع.

. يا حليفي، لقد بَتْ خَهْلَا، ضَاعَ عَمْرُكَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْذَالِ، عَدْ فَعَيْ إِلَى «وَاسْت» لتعيش حياة كريمة، أتحت لك مقبرة تحكي حياتك، وأبني لك معبدًا، وخذ معك من القبيلة مَنْ تأمنهم،  
لقد أمر ربِّي بالخروج.

. هذا انتحاراً  
أشد من الموت ما يتمنى له الموت. لكنك تستطيع أن تقدم لي معرفة يحمدك لك الرب، شيئاً نصحتني به منذ سنين وقد أخذت بنصيحتك ففعلته.

قالها موسى ثم أخرج من تحت ردائِه بردِيات ملفوفة بحزام:  
ذلك سجل لحياتي، دوَّنت فيه قصتي وقصة أخي، لعل يأتي زمان يعرف فيه الناس القصة الحقيقية.  
نظر أحمس في البرديات ثم لصديقه:  
أفين الحِكْمَةُ أَنْ أُتَرَكَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ؟

. على أن أكمل رسالتي حتى آخر نفس، هل تحتفظ لي بتلك البرديات؟



. سأضعها في معبدِي، وسأأمر أن توضع في مقبرتي، وتُنسَخَ منها في مقابر من يتولون الحكم من بعدي، في غرفة الجسد، مع سيرة حياة كل راحل ومتون إدريس.

. أشكرك يا صديقي.

احتضنه موسى، ربت أحمس على كتفه وهو يعرف أنها آخر مقابلة بينهما، فالموت يطل من عيني رسول الرعاة، ولا شيء سيمنعه من تنفيذ مشيئته. قاوم البكاء على كتفه، ثم ناوله خنجراً محفوراً عليه اسمه، طلب منه الاحتفاظ به فأبى موسى باتسامة شاحبة.

بعد ثلاثة أيام احتفى موسى، ثم عثر على جسده فوق الجبل، مشجوج الرأس من ضربة حجر، دفنه في موضع قتلته.

وكانوا حريصين كل الحرص على لا يعرف أحد مكاناً لقبره.

تلك كانت نهايةنبي الرعاة؛ قتله قومه مثلما قتلوا آباءه، وكذلك سيقتلون كل من يعترض طريقهم، حتى ولو كان ملكاً فوق عرشه. أيها الجيبتون اكتبوا لأبنائكم على البرديات، على الجلود، على ألواح الأوستراكا، وعلى الجدران، اكتبوا وإلا فلن يبقى شيء من حكمتكم سوى حكايات ملقة، لن تلقوا تصديقاً، حتى من أبناءكم، ستصبح إيجيبت مهجورة موحشة، وستحرم من زيارات الملائكة، اكتبوا لتُفندو إفك تلك الترجمة اليونانية، اكتبوا أن «فرعون» لم يكن يوماً ملكاً جيبيتاً، «فرعون» كان ملكاً لدولة الرعاة، غزاة الشرق، اكتبوا أن «مصر» المذكورة فيها، والتي تعني «مدينة محورية عاصرة يجتمع فيها السُّكُن بأسواق التجارة»، ترجمت عنوة إلى «إيجيبت»، لتحمل أعناق الجيبتون وزر الدماء التي جرت على يد «فرعون»، وترثوا لعنة ستستقبلون تاريخكم وأرضكم ومعابدكم من أجلها.

تذكروا أبداً.

فرعون: اسم ملك بدوي، هكسوسى



فرعون ليس ملكاً چيبياً

إيجيبت ترجموها عن عمد إلى: مصر

مصر هي عاصمة أرض الرعاة، أرض الفيروز

أما إيجيبت، اسم أرضكم الأصلي، فيعني:

أرض الإله.



♀

♀

♀

بعد سنة.

مدينة أرسينوي <sup>(٥)</sup>.

حين اقترب من المزرعة تعافت الكلاب خلف السُّور الخشبي بنباح يخيف الغرباء، أغمض عينيه وجثا بهدوء ثم رُتَّل متن الحيوان حتى هدأت ذيولها، ثم سكتت، أخرج من السلة التي يحملها قطع لحم ألقاها إليها فالقطوها بشغف، ثم اقترب من مزلاج الباب فرفعه ودخل بينها، التفت حوله تتشمم رائحته وتلحس ساقيه، قبل أن يتوجه بهدوء إلى البيت الخشبي، سحب السكين من حزامه ومشى بحذر حتى التقطت أذناه بكاء رضيع، حرق قلبه فبطؤت خطواته وارتعشت السكين في يده، «نادي؟ ابن؟»، لسنة كاملة لم يفتا يتبع خبرها، راحتها التي لم تغادر أفقه يوماً، يمشي في الأرض مطاطئ الرأس يبحث بين الأقدام عن قدمها الصغيرة، أصابعها التي عشقها، حتى التقط يوماً خبراً عن جامع كلاب يعيش في مدينة أرسينوي، يربيها ويعقد حلقات المصارعة، سافر ليالي طوالاً دون طعام، دون توقف، يدفعه الأمل أن يرى عينيها ثانية، أن يمشي بأنامله على جلدتها الخمرى، أن يحتضنها فتتكوم بداخله ليحميها من تلك التي تعيش بداخلها، تلك اللعينة التي صبت الحمم في أذنيها ففرقته بينهما، يعزوه الأمل ألا تكون قد تمكنت منها، أو أقنعتها أن تربى ابنها بدلاً منها لتثبت في أذنيه أحلامها المسمومة.

زفر فأفرغ رئتيه من الهم والترقب ثم تابع الالتفاف حول البيت الحالي، حتى رأه، جالساً فوق جذع مقطوع، طويل الشعر



هزيل الجسد، يداعب بشرود رضيعه في عمر سنة، رضيعه لها لون ناديا، اقترب كاي فالتفت آرام، نظر إليه في هدوء المنتظر، ثم قام يحمل الرضيعه، تحفَّزَ كاي وقبض على السكين، لم يبدَّ على آرام تراجع أو اهتمام، اقترب حتى بات على بعد ذراع، وضع الصغيرة بين ذراعي كاي فذهل، سقط سكينه، نظر في الوجه الصغير الذي يحمل قسمات من اسجدته أرضاً، ثم في عيني آرام فرأى الخواء والحطام اللذين خلفتهما ناديا، فتح فمه بصعوبة كمن صام عن الكلام

دهراً،

. ماتت ناديا بعد ولادتها بساعات، قلبها لم يتحمل، أسمتها مليكة.

توقف قلب كاي.

أردا آرام:

. رحلت بها إلى هنا لعلها تنسى ماضيها، لعلها تنساك، باتت تحدُّ الجدران، الكلاب، تراود فتيان القرية، وتسبُّ فتاة لا تراها عيناي، حتى اضطررت الحمّى في جسدها، ثم أراحتها الرضيعه منك ومني، ومن نفسها.

همس كاي بشرود:

. قتلتها الملعونة؛ لأنها أحبتني.

. أيها السادج، ناديا لا تعرف العشق، ناديا تعرف فقط، كيف تعيش.

. أين هي؟

أشار آرام لمزرعه من الفخار تحت شجرة صفصف بعيدة.

. تحفلت النار بتطهير روحها.

قالها وابتعد، عائدًا ل الكلاب ركضت حوله، بينها كلب ناداه بسيبربيروس.

داعب كاي الأنامل الصغيرة التي تنثنى مثل أنامل أمها، داعب الشفاه المكتنزة والشعر المموج الداكن، ثم تمثّل



بأنامله على جلدها الخمرى، وشامة الرسغ التي ورثتها عن أمها، ثم دنا من شجرة الصَّفَصَافِ، فاشياً فوق الشَّوْقِ واللَّهُفِ، وضع ابنته على العشب وسقط على ركبتيه، خائر القوة، يَكُونُ كما تبكي الرجال على امرأة، بحرقة، حتى روت دموعه العشب، ارتعشت شفتاه بمَتْوَنِ الحُبِ والرَّحْمَةِ، وكلمات كان يَدَّخِرُها لاذنيها، وأحلام ذهبت هباءً، وآمال أكللتها تماسيح النهر، ثم احتضن ابنته الخمرية، وحمل المِزْهَرِيَّةَ، فابتعد، إلى أرض لا تعرفه، عاش فيها وحَكَى لصَغِيرَتِهِ كلاماً نَضَجَتْ، عن الراعي، عن البرديات العجيبة، ترجمة الدم ونبي الرعاة، وعن أمها التي لم ترها؛ أمها التي قتلتَهَا، عيشقاً.

---

(٤) أرسينوي: مدينة الفيوم حالياً.



♀

♀

♀

صنع «كاي» من ترجمة سفير «التصحيح» للكاهن الأعظم «هانيتون السمنودي» نسختين، أودع إحداهمَا معبد حتحور بأرض الفيروز، وأودع الأخرى رفوف مكتبة الإسكندرية تحت اسم «أرض إله». أما رفات ناديا، فنثره كما أوصته، في جبانة المعبد قرب عرائش العناب، حيث تخرج أرواح الأموات من الأرض في جذوع الأشجار.

احتراقت مكتبة الإسكندرية في زمن الإمبراطور الروماني «يوليوس قيصر» عام ٥٤٨.





في نوفمبر من عام ١٩٢٢ تم اكتشاف مقبرة الملك «توت عنخ آمون» على يد الأثري الإنجليزي «هوارد كارتر» وبتمويل من لورد «كارنارفون الخامس» «جورج هربرت ستانهوب». لاقى الحدث اهتماماً عالمياً لأن المقبرة سلية وكاملة، لم تطلها يد اللصوص من قبل.

بعد عشرين يوماً من اكتشاف المقبرة تم العثور على حائط مغلق بختم ملكي يشير إلى أن مومياء الملك ستكون حتماً وراءه. وكانت التقاليد تقضي بوجوب إخبار كبير مفتشي الأقصر بأي كشف فور التوصل إليه. وهو ما تم بالفعل. بعد يومين من إزالة الأتربة عن الحائط تحضيراً لفتحه بحضور مفتشي الأقصر وبعض رجال السلطة والمدعون. ودون إخطار. اقتحم «هوارد كارتر» ولورد «كارنارفون» وابنته «ليدي إيفيلين» تلك الغرفة ليلاً. قضوا فيها ليلة كاملة، نقلوا خلالها بعض المقتنيات إلى غرفهم، قبل أن يغلقوا الفتحة التي حفروها ببعض الآثار الأخرى. ويتصنعوا أمام الحاضرين افتتاحها في اليوم التالي.

في المؤتمر الصحفي الذي عقب الكشف المبهر عن غرفة الدفن سأل الحاضرون بفضول عن برديات الملك «توت عنخ آمون»، حيث من الثابت أن غرفة الدفن تحوي سيرة الملك وبعض النصوص الجنائزية من كتاب «الخروج إلى النهار»، لكن «هوارد كارتر» أنكر العثور على أي بردية! وصرّح بأن الصندوق الذي أعلناه أن فيه برديات، ما كان إلا بقايا لفائف الكتان المختلف عن تحنيط المومياء!



في فجر الخامس من إبريل من عام ١٩٢٣ توفي ممول الحفريات «لورد كارنارفون الخامس» إثر مضاعفات قرص ناموسية!

قبلها بأسابيع كان يعاني من أعراض تشبه التسمم بالزرنيخ، مثل تداعي الأسنان وتشنجات الجسم وظهور بقع لونية بأظافر الأصابع.

في ربيع ١٩٢٤ أوقف «هوارد كarter» التنقيب في المقبرة بسبب رفض مصلحة الآثار تجديد تصريح التنقيب الخاص بزوجة اللورد «كارنارفون». لما لاقته المصلحة من مخالفات وتلاعب بسجلات مقتنيات المقبرة، مما كان منه إلا أن اندفع إلى مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة طلباً للدعم، قابل «كارتر» هناك أحد المسؤولين الذي أكد له صعوبة التدخل لحساسية القضية. وأنه كان معروفاً بحدّ المزاج بدأ «كارتر» يصبح في المسئول حتى سمعه موظفو المكاتب المجاورة يعلن بأنه:

إن لم يتلق ترضية كافية وعادلة، فسينشر على العالم كافة تفاصيل نصوص البرديات التي عثر عليها بالمقبرة، والتي تحوي القصة الحقيقة لما يسمى بالخروج اليهودي من مصر؛ والذي حدث حوالي عام ٥٧٣ ق.م.

وتطور الموقف حتى قذفه المسئول بمحيرة ارتطمت بالحانط فتحطم. قبل أن يهدأ الرجال ويتوصلوا لاتفاق نتج عنه سكوت «هوارد كarter» عن هذا الموضوع، إلى الأبد.





في أكتوبر من عام ١٩٥٦ هاجم الإسرائيليون سيناء في احتلال تأمري مشترك مع إنجلترا وفرنسا. بعد شهر من نفس السنة هبطت مروحية الجنرال «موشيه ديان» في منطقة «سرابيط الخادم». داهم وبعض معاونيه معبد حتحور، استولوا على قطع أثرية وعدد من اللوحات يطلق عليها أهل سيناء اسم «سربوط». كان ينقش عليها سيرة ملوك مصر وأخبار الحملات العسكرية التي قادوها ضد غزوة الشرق المعروفة بالهكسوس.

امتدت حملات تنقيب الإسرائيليين الواسعة في خمسة وثلاثين موقعًا أثريًا بسيناء تم تدمير معظمها، حتى ذروة عملياتها في عام ١٩٨٥.



♀

♀

♀

مدينة «هوارة» عاصمة الهكسوس يطلق عليها الآن اسم «القناطرة شرق».

أما «مصر» فتعرف الآن بـ«سيناء» نسبة إلى الإله «سين»: إله القمر.



## شكّر خاص

فاطمة الزهراء زكي	م. عاطف عزت
هي مراد	م. محمد عبدالعزيز خليفة داود
ناهد نصر الله	د. نديم السيّار
لينا النابلسي	أ. أحمد علي الشيخ
شيماء علاء	د. حسن كمال
آدم عبد الغفار	د. تامر إبراهيم
نرمين نعمان	شيرين راشد
خالد ذهني	محمد صادق
إيمان أسامة	وجدان حسين
إيمي رزيق	د. عبير قاسم

